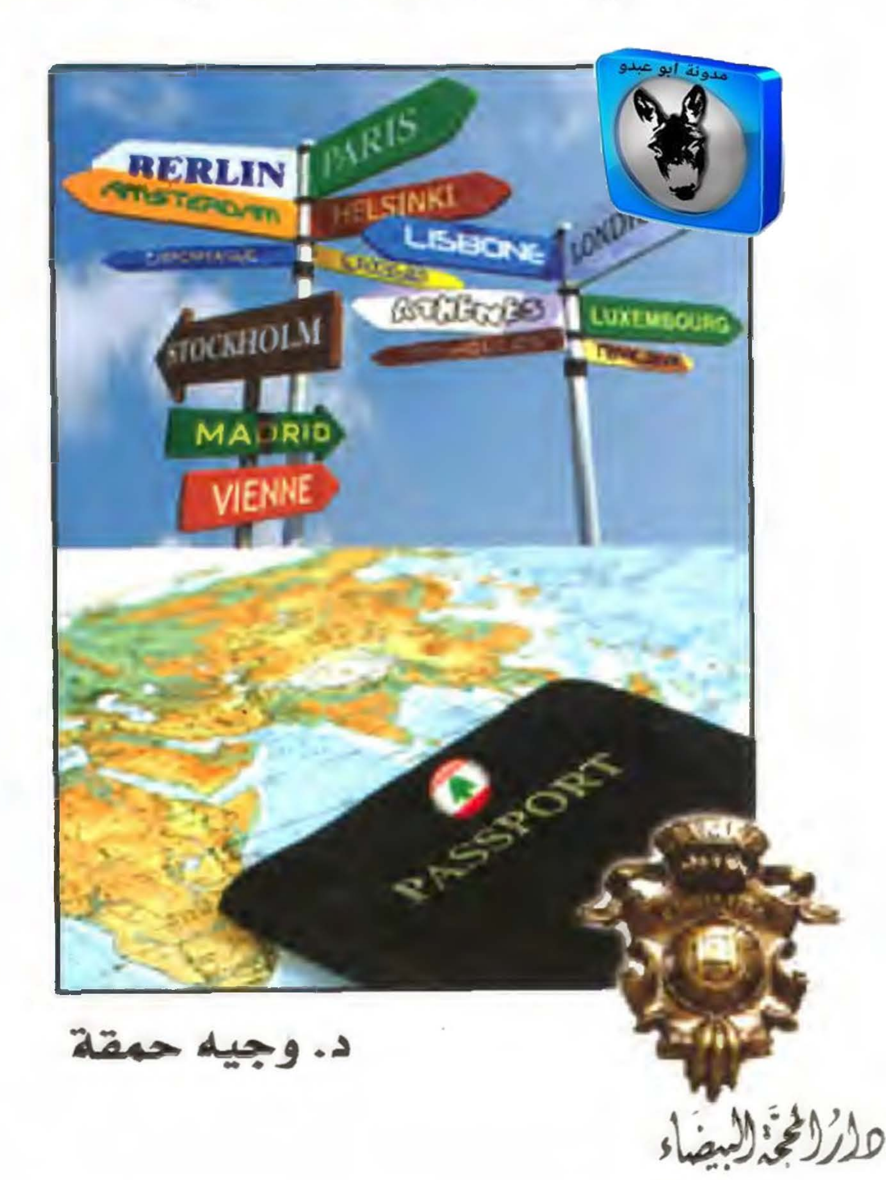
المغتربون الشيعة

(عناء في المهجر ومعاناة في الوطن)



د. وجيه حمقة

دار المحجة البيضاء

المغتربون الشيعة	تأليف
(عناء في المهجر ومعاناة في الوطن)	د. وجيه حمقة
The Lebanese Shiite Immigrants	عدد الصفحات
(Suffering of Home and Toiling Abroad)	360
الطبعة الأولى (2010)	قياس الصفحة
رقم التسجيل الدولي	17*24 سم
ISBN: 978-0-88628	عدد النسخ: 2000
Published by	جميع حقوق الطبع محفوظة
The Arab Canadian Cultural	يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء
& Media Center	منه، بكل طرق الطبع والتصوير
Ottawa – Canada	والنقل والترجمة والتسجيل المسموع
	والحاسوبي إلاّ بإذن خطّيّ من المؤلف

صدر عن:

المركز العربي الكندي للصحافة والاعلام

أوتاوا – كندا

عنوان المؤلف:

Ottawa, ON K1V 9W1

E-mail:
wajihhamka@hotmail.com

Web:
www.wajihhamka.com

المغتربون الشيعة

(عناء في المهجر ومعاناة في الوطن)

د. وجيه حمقة

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

-1-

إهداء

{وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} (24 الإسراء)

شَأْنُ الحَيَاةِ مُوَدِّعٌ وَمُوَدَّعٌ وَلَكَمْ تُفَاجِئُنَا الأُمُوْرُ وَتُفْجِعُ

كَمْ دَمْعَةٍ فِي الْخَدِّ سَيَّلَهَا الأَسَى لِفِرَاقِ حِبٍّ ذَاهِبٍ لا يَرْجِعُ

وَتُضَمِّدُ الأَيَّامُ جُرْحًا غَائِرًا لَكِنَّهَا فِي النَّفْسِ قَطُّ لا تَنْفَعُ

كيف لا يكون هذا الإهداء مُفتَتَحًا بآية مباركة تتجلّى فيها حكمةُ خالقِ الكون جلَّ وعلا في أنبل مخلوقين جعلهما الله لباسين لبعضهما وسكنًا، تأكيدًا لقوله الكريم في سورة البقرة {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ }، ولقوله في سورة الروم: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا }، يَهبان بفضله للإنسانيَّةَ ذريَّةً تستمرُ بها الحياة وتكتمل بفضله دورتها. وهل أنبل وأجلُّ من الوالدين طيَّب الله ثراهما ليكونا بعد الله ونبيِّه وأوليائه، مَن يُهدى لهما هذا الكتاب وقد كان نداء البارئ لهما أسرع من الفراغ من كتابي هذا ونشره، وها أنا أهديه إلى روحيهما الطاهرتين في جنان الخلد.

ولأنَّني، كما يقول الشاعر "عروة بن الورد":

"إِنِّـي امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِي شِرْكَةٌ وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِدُ

أُقَسِّمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قُرَاحَ الْمَاءِ وَالمَاءُ بَارِدُ."

فلا بدَّ أن أخصَّ الشيعيَّ اللبنانيّ، مغتربًا ومقيمًا، الذي من أجله وضعت هذا الكتاب، بنصيب وافر من إهدائي، وأنا أعلم علم اليقين أنَّ والديَّ تغمَّدهما الله بواسع رحمته ورضوانه، يسعدان بمشاركتهما أبنائهم الشيعة كتاب بكرهما وجيه.

يا لله! هل نحن نقتل أوقاتنا، أم هي التي تقتلنا؟ نعم، طوى المحيط وأتاني الخبر.

"حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِيْ صِدْقُهُ أَمَلاً شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرَقُ بِي."

قبل زهاء عامين، عندما وقّعْتُ كتابي، "**ظلال أفكاري**"، باكورة نتاجي الأدبيّ في قاعة نادي الصحافة الوطنيّ الكنديّ في أوتاوا، العاصمة الكنديَّة، في حفل ضمَّ نخبة من المثقَّفين العرب المغتربين وعددًا من رجال الفكر والقلم الكنديِّين، كان والدي تغمَّده الله برحمته ورضوانه بين الحاضرين يرقبني بعين حانية تظلِّلها فرحة حيِيّة، وباعتزاز رصين قرأت في ابتسامته ملحمة والد تلخَّصت فيها سنوات عمري كلُّها ولمَّا ضمَّني بعدُ مهنِّئًا، أدركت كم هو فخور بي، وتمنيْتُ آنذاك لو أنَّ الوالدة رحمها الله كانت معنا لتشارك الوالد فرحة عمرٍ ولحظة اعتزاز عارمة.

علمت الوالدة، وهي الآن في دار البقاء، بحفل توقيع الكتاب، واتّصلت آنذاك من ألمانيا مهنئةً، فوعدتها أن أكون معها قريبًا وبالفعل هذا ما كان. وما أن جلست بقربها ورحت أتلو على مسامعها الإهداء الذي ورد في الكتاب والموجّه لعائلتي وأهلي، حتّى اغرورقت عيناها بدمع تلألأ فيهم او شعّ منهما حبّ نورانيّ غامر، وحنوٌ لسوف يبقى معي ما حييت حبستُ فيضَ العاطفة في صدري، وتابعت القراءة، وما أن وصلت إلى : "أمّي! لقد اتّسع قلبك فضمّنا بحبّه وحنانه، وامتدّ عمرك ليشملنا بعطفك ورضاك، أنت التي – بعد الله – لولاك ما كنت وما صرت." حتّى ضمّتني إلى صدرها ولم أعد أدري هل دموع فرحها بلّلت وجهي أم دموعي امتزجت بدموعها، فأحسست بحرارتها دفق إيمان ونفحةً علويَّةَ ما أزال كلّما تذكّرتها، ولا سيّما بعد أن وافتها المنيّة، أحسُّ بها كما أحسست بها أوّل مرّة.

كان ذلك في نيسان / أبريل 2007، وما أن انقضى عام على ذلك العناق الأبدي حتّى لبّت في 7 تشرين ثان/ نوفمبر 2008 نداء ربّ العالمين، وانتقلت إلى دار الخلود راضية مرضيّة، لتدخل في عباد الرحمن وفي جنّة الرضوان إن شاء الله. كان هول الصدمة شديدًا، ولكنّ الإيمان بالله وبقضائه وقدره هوّن المصاب على جلله. غير أنّ حياة الأسرة ظلّ يشوبها فراغ لم تتمكّن الأيّام من ملئه، ولا طولها من تخفيف وطأته كان عزائي وأشقّائي وشقيقتيّ بوالد كرّمنا الله به وكان ذخرًا وسندًا وعزاءً ومرجعًا.

ومرّة ثانية تمتدّ يد القضاء، وفي زهاء عام على فراق الوالدة واللوعة التي خلّفتها، لتخطف أعزّ مخلوق بقي لي، ولا شكّ لبنيه وأحفادهم في هذا الوجود ففي 7 تشرين أوّل/ أكتوبر 2009 كان الحاج قاسم حمقة على موعد للقاء ربّ

العالمين، ولا يخالجني شكٌ بأنَّه فرح بلقاء ربِّه وانتقاله من دنيا الفناء إلى دار الخلود والبقاء.

لم يغب عن بالي وأنا أراجع الذاكرة في اليوم السابع من التشرينين، وإن مرَّ بينهما عام غيَّب الموت فيهما عزيزين من عائلة آل حمقة، لأنَّه، وفي تشرين تحديدًا قبل عقودٍ من السنين، ملأت الفرحة والبهجة صدريٌ الوالدين، ففيه كان ميلاد طفلٍ لهما، وفيه أيضًا بعد عامين رُزقا بآخر في عائلة ضمَّت من الذكور خمسًا ومن الإناث اثنتين. فيالله كيف تنقلب الفرحة في الميلاد إلى حزن وألم في الممات! وما أصدق ما قال "أبو العلاء" حكيم المعرَّة وفيلسوف الشعراء العرب في هذا السياق:

"غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي نَوْحُ بَاكٍ وَلا تَرَنُّمُ شَادِ

وَشَبِيهٌ صَوْتُ النَّعِيِّ إِذَا قِيسَ بِصَوْتِ البَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِ."

وبين الحياة والموت تتجلَّى حكمة الخالق، وينجلي سرُّ هذا الكون الذي يستعصي فهمه على الإدراك . ولكن ليتفكَّر الإنسان كما أشار الله جلَّ جلاله في أوَّل آيتين في سورة المُلك **{تَبَارَكَ الَّذِيْ بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْئٍ قَدِيْرٌ، الَّذِيْ خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيْزُ الغَفُوْرُ}**. ولسوف يبقى السابع من التشرينين علامة فارقة في حياتي وذكرى عزيزة لما تنطوي عليه من حكمة وعبرة، أرادها ربُّ العرش العظيم هداية وموعظة، ولا اعتراض على حكمه.

لقد التاع قلبي حسرة وألمًا على فراق لا لقاء بعده إلاّ في جوار الإله ومهما كانت كلمات العزاء، ومهما منّ الخالق عليّ بالصبر والسلوان، فقد فقدت في غياب الوالد ما لم تستطع كنوز الأرض كلّها ولا مسرّات الحياة قاطبة تعويضي عن خسارتي به.

لقد كنت يا والدي الظلّ الظليل الذي يقيني حرّ الهجير، وكنت النسمات الرطيبة تداعب وجهي في ساعات غمّ عصيبة. سيظلّ ذكراك يا والدي، يا حاج قاسم "أبو وجيه"، لصيقة بالروح حبيسة في الصدر. فنم قرير العين. لقد أكملت فرائض دينك بحجّك وأتممت واجبك تجاه ربّ العالمين، فمنزلكما بإذنه تعالى أنت والوالدة في علّيّين.

ولأنّ الرثاء فيه العزاء، ها أنا أردّد مع "أبي القاسم الشابيّ" ما قاله يوم فراق والده:

"يامَوْتُ قَدْ مَزَّقْتَ صَدْرِي وَقَصَمْتَ بِالأَرْزَاءِ ظَهْرِي
فَلَبِثْتُ مَرْضُوضَ الفُؤَادِ أَجُرُّ أَجْنِحَتِي بِذُعْرِ
وَقَسَوْتَ إِذْ أَبْقَيْتَنِي فِي الكَوْنِ أَذْرَعُ كُلَّ وَعْرِ
وَفَجَعْتَنِي فِيمَنْ أُحِبُّ وَمَنْ إِلَيْهِ أَبُثُّ سِرِّي
وَأَعُدُّهُ فَجْرِي الجَمِيلِ إِذَا ادْلَهَمَّ عَلَيَّ دَهْرِي
وَأَعُدُّهُ غَابِي وَمِحْرَابِي وَأُغْنِيَتِي وَفَجْرِي
وَرَزَأْتَنِي فِي عُمْدَتِي وَمَشُورَتِي فِي كُلِّ أَمْرِ
وَهَدَمْتَ صَرْحًا لا أَلُوذُ بِغَيْرِهِ وَهَتَكْتَ سِتْرِي
فَفَقَدْتُ رُوحًا طَاهِرًا شَهْمًا يَجِيشُ بِكُلِّ خَيْرِ

وَفَقَدْتُ قَلْبًا هَمُّـهُ أَنْ يَستَوِيَ فِي الأُفْقِ بَدْرِي
وَفَقَدْتُ كَفًّا فِي الحَيَاةِ يَصُدُّ عَنِّي كُلَّ شَرّ
وَفَقَدْتُ وَجْهًا لا يُعَبِّسُه سِوَى حُزْنِي وَضُرِّي
وَفَقَدْتُ نَفْسًا لا تَبِي عَنْ صَوْنِ أَفْرَاحِي وَبِشْرِي
وَفَقَدْتُ رُكْنِي فِي الحَيَاةِ وَرَايَتِي وَعِمَادَ قَصْرِي."

أمّا أنت يا أخي الشيعي، فإنّني أخصُّك بإهداء هذا الكتاب، الذي كنت أنت ملهمه وبطله وأحداثه وغايته، أردتّه صورة صادقة عن ملحمتك التي لازمت وجودك وحضورك وحياتك منذ مئات السنين، ورافقت أولادك وأحفادك في أرضهم، مع ما فيها من صراع وصبر وآلام، لتكون عبرة تمهّد فيها السبيل لأخوتنا وأخواتنا الذين ما يزالون يرسفون في قيود واقع ما أراده الله ولا نبيَّه المصطفى ولا آل البيت الكرام، وحافزًا للنهوض واليقظة لاستقبال يوم تنقشع فيه الغيوم المتلبّدة وتشرق الشمس في سماء حياتهم كما أشرقت على الشعوب المعذّبة والمقهورة.

وأنت أيُّها المغترب الشيعيُّ، السابح في فضاء الله وبحاره، الخائض الغمرات تواجه عواصف الغربة وتيّاراتها وأمواجها الكاسحة، أنت المحمول بقيم جدِّك الكربلائيَّة الرافضة للخضوع والخنوع والمذلّة، والممسكون بريح جنوبك وبقاعك ورائحة البيلسان وشقائق النعمان الطالعة من تلال قانا ومرابع الأنبياء والقدّيسين، المجبول كأيقونة مقدّسة في عنق جبل الإيمان، وقد قذفك الحرمان والظلم إلى آفاق مجهولة، فغادرت آيسًا من الرجوع، وبنيت مجدك ونجاحك بالدمّ والدموع، وأمضيت أيّامك ولياليك وأنت تنسج أحلام العودة وتحيكها تاجًا

ترصّع فيه رأس الوطن الذي جار يومًا عليك، أعلم أنك مثلي محاصر بحبٌ لبنان الجريح، ومصاب بحمّى اللهفة لتراب ذرّته تعادل ذهب الدنيا وكنوزها. فلك أيضًا أقدّم كتابي هذا الذي يضمّ معاناتك ومعاناتي، ويجمع صور أحلامنا وآمالنا، ويزرع الشموع لتضيء درب الإياب إلى من نحبّ.

وإليكم أيضًا وأيضًا يا أسياد طائفتنا وزعماءها وقادتها، إليكم أنتم، أودّ أن تهمس صفحات كتابي في آذانكم، وأن ترسم كلماتي أمام انظاركم، قبل أيّ أحد آخر، حقائق قد ترونها قاسية أو جارحة أو متحاملة، لكنّها، وبكل الصدق والوفاء والمحبّة، لم تخرج إلاّ من فؤاد يعمر بالوفاء والإخلاص، ولم يتعوّد إلاّ البوح بما يعتمل في القلب من غير مداورة ولا مداهنة ولا رياء. وأملي أن تصل نداءاتي إليكم، وأن تكون موضع اهتمامكم، لأنّنا، نحن المغتربين، من حقّنا عليكم أن تفسحوا لنا مكانًا في مسامعكم، ومن حقّكم علينا ألاّ نتأخّر عن بناء الوطن وصناعة مستقبله، ومن حقّ الطائفة علينا معًا أن نعمل جاهدين لتعويضها سنوات من الضنى والعذاب وطمأنتها إلى غد مشرق.

إلى كلّ هؤلاء، أهدي ما جمعته من وقائع الوطن والاغتراب، وما عايشته من انكسارات وانتصارات وأنا أجوب قارات الدنيا الأربع، وما خبرته من معاركة الأيّام والأحداث، وما حاولت أن أصوغه من رؤى قد تسهم في فتح المغاليق المحكمة، أمام شعب يصبو إلى حياة آمنة كريمة، وسلام نفسيّ وجسديّ، لأنّه جدير بها ويستحقّها.

عسى أن تجد أفكاري طريقها إليكم.

-2-

المقدّمة

لا ازعم، ولا اخالني قادرًا، أن أكون محلّلاً سياسيًا، يغرق في محيط الأحداث ولججها، يستقرئ ظاهرها وباطنها، ويقلّب مواجعها ويحدّد وجهة سهامها، كي يتمكّن من إلقاء القبض على الشياطين الكامنة وراء أسطر البيانات وبين مفردات الخطابات وتحت طيّات الأخبار المنقولة والمصنوعة.

ولا أدّعي أبدًا أنّني باحث في شؤون التاريخ والأمم والشعوب، لأتابع حلقات المسلسل الآدميّ على هذه الأرض، فأفكّك وأربط، وأستنتج وأقرّر، لأتحف البشريّة بنظريّات الحضارات ومسارات السوالف والتوابع واللواحق، وساحات الحروب والنزاعات، وسواقي الدماء وأهرامات الجثث والضحايا.

لست من هذا ولا ذاك ولا أجيد صناعة أيّ منهما.

أنا ببساطة تامّة، إنسان منحني الله اثنتين هما سرّ وجودي وكنه كياني وأغلى ما أعتزّ به وأفخر، وأتمنّى أن يعيدني ترابًا قبل أن أفقد إحدى هاتين المنحتين الثمينتين، وهما عقلي وحرّيّتي، لأنّه لا حاجة لي بعد ذلك كي أكرّ أيّامي كمسبحة أو أجترّها كجمل.

أنا بكلمة أبسط وأوضح، فرد لبنانيّ مسلم شيعيّ، سلّمه قدره إلى هذه الهويّات الثلاث، وزاد عليهما جرحًا غائرًا متوارثًا من عمر التاريخ، كلّما قارب على الشفاء أمطرت عليه الدنيا ملحًا وخناجر، كي يزداد عمقًا ويستمرّ حريقًا.

مشكلتي الأولى، أنّني أفكّر وأعرف الإفادة من عقلي غير المزروع عبثًا في راسي. وأدرك تمامًا أنَّ هذه الظاهرة . التفكير . من أعقد مشكلات أوطاننا وأخطرها، لأنّها غير مطلوبة وغير مستحبَّة وغير مقبول امتلاكها من الناس العاديّين، لأنَّ ثمَّة من خصَّه الله بهذه القدرة والميزة، وهو وحده الذي يتولّى عنّا، كلَّ عمليّات التفكير والتدبير والتعبير والتصوير وكلَّ المصادر العربيّة المصاغة على هذه الأوزان، فما على الآخرين إلاّ التزام الخطّ، مستقيمًا كان أو منحنيًا أو منكسرًا، وسيّان أودى بهم إلى الطاحون أو إلى روما أو إلى المقصلة، كقطارٍ على قضبان سكّته، دون استفسار ولا اعتراض.

مشكلتي الثانية، أنّني حرٌّ مسؤول . لا أدري من أين أتتني هذه العاهة الخارجة عن عادات قبائلي العربيّة ! ولا أعلم كيف استوطنت فكري وكياني ! ربّما كانت كذبة من أكاذيب دروس الأخلاق والأدب، أو دروس علم النفس والاجتماع، صدَّقتها على صغر عقلي وسنّي آنذاك، فسكنتني كالعفريت ودخلت في جلدي، وأصبحت ترافق شهيقي وزفيري أحببت هذا "العفريت" وأحبّني ووسدته قلبي ووجداني.

وفوق منحة العقل والحرّيّة، ابتلاني الله بما يستعصي على الفقدان وأمرّ، ألا وهو عشقي لهوّيّاتي الثلاث وهيامي بها إلى حد الهوس إنَّه المرض العضال الفاتك بالأضلاع والجوارح، ولا ينفع في شفائه فقر ولا غنًى، ولا جور ولا عدل، ولا غربة ولا مكوث. وما أن استخدم تفكيري حتّى يطلُّ صاحبي الحبُّ من بين الخلايا والأوردة ليلسعني بلظاه وينبّهني بأنّ لا تفكير خارج هذا المرض . وما أن أفرح بحرّيّتي حتّى يلوّح لي بسوطه منبّهًا مهما بلغت آفاق حرّيّتك فأنت وهي محاصران بي إلى أبد الآبدين.

حين عزمت على المباشرة في إطلاق أفكاري وتأمُّلاتي ورؤاي من عقالها لأدوّنها على الورق الأبيض، كان القلم رابع ثلاثة معي على الطاولة، عقلي وحرِّيتي وحبِّي. وكنت على ثقة تامَّة بأنني أستخدم هذه الممنوعات، وأدخل المنطقة الحرام بقدميَّ علنًا وجهارًا، وأسلّم نفسي طواعية إلى حرّاس الحدود. كنت أدرك كلَّ هذه المخاطر، لكنَّ حبِّي ووفائي لهويّاتي الثلاث، لم يتركا لي مجالاً للاختيار أو التردُّد.

لماذا ومتى تتحوَّل الكتابة إلى سيف قاتل يا ترى؟ ولماذا ومتى يصبح الكتاب والكلمات مضبطة اتِّهام؟ ولماذا ومتى تصبح الأفكار كالوباء يلاحقها العسس لاقتلاعها من رحم الدماغ ومصادرتها قبل أن تتحوَّل إلى قنابل موقوتة على الورق؟

أجبت نفسي سريعًا عن هذه التساؤلات، عندما قرَّرت أن أكتب الحقيقة، وأن أصف الحقيقة وأن أعرّيها أمام أعين الخلق، من كلِّ زيفها وأقنعتها وتبرُّجها، وكمرآة، أعرضها إمرأة غجريَّة بدائيَّة مجنونة، خارجة لتوِّها من زرقة الموج، لتجفِّف شعرها المتهدِّل بخيوط الشمس.

أجل إنَّها الحقيقة، لأنَّ ما جمعه الحبُّ في ذاكرتي، من صور وتجارب وعلاقات ومشاهدات وخبرات، والحالات التي سجَّلها من جراح وآلام وصراعات أو من أفراح ونجاحات وانتصارات، عبر رحلات الولادة والشباب والرجولة، وعبر محطَّات المدن الغارقة في البؤس حتَّى الاختناق، والسابحة في النِعَم حتَّى التخمة، من الجنوب اللبنانيّ المرصود للعذاب والحرمان والمواجهة، إلى إفريقيا المنذورة للشقاء والموت، ثمَّ إلى رومانيا ومنها إلى ألمانيا فكندا المترعة كؤوسها جميعًا بنعم العدالة والحرِّيَّة والديموقراطيَّة. كلُّ ذلك كوَّن شحنة من نار

كلّما حاولت إطفاءها ازدادت قوّة ولهيبًا، لا سيّما وأنا أنظر، من على بُعْد آلاف الأميال، وبين عشرات الطبقات الكثيفة من الغيوم السوداء التّي خيّمت بثقلها على وطني ومنطقتي وأهلي وشعبي الشيعيّ الصابر الصامت، لأجد أنّ الحرمان الذي طوّقنا وأذلّنا وقذف بنا إلى أنياب الجهل والفقر والظلم، وسلخ الأمّ عن أبنائها، والوالد عن عائلته، وفرّق بين الأخ وأخيه وبين الأرض وأهلها، قد تحوّل إلى قدر ملازم تجاوز العناء والمعاناة والعذاب ليصبح مسألة تقف على حدّ السيف بين الإيمان والكفر، بين الوطنيّة والخيانة، بين الحياة والموت.

ليس بإمكان هذا الحبّ أن يصمت أو يُخنق، وقد اشتعل خوفًا على من نحبُّ، فكان لا بدّ أن أكتب، وأن أغرز النقطة فوق الحرف، وأطلق الصرخة والوجع والقلق، لأنّني، عندما خرجت من لبنان، كان في جعبتي درس واحد وفكر واحد وكلمة واحدة، هي زادي ومائي ومنجاتي. لقد كانت صرخة جدّي الحسين عليه السلام وكلمته الخالدة: "**هيهاتَ منّا الذلّةَ.**"

ولهذا كلّه كتبت.

من أجل من بقي في ديار الجنوب الحبيب . من أجل من ثبت وجاهد وصبر . من أجل العائلات التي صارعت الجوع وغلبته بتعليم أبنائها وبناتها . من أجل الموزّعين في أرجاء الكون والحالمين صبح مساء بلحظة العودة من أجل أجيالنا ومستقبلنا . من أجل وطننا، كتبت من أجل أن أفتح نافذة في جدار الخوف. من أجل أن أضيء شمعة في درب الباحثين عن الطريق، كتبت.

كتبت، وكانت أمنيتي أن أقدّم كتابي هذا، موقّعًا بيد المحبّة والصدق والوفاء، إلى القائمين على شؤون الطائفة، سياسيّين كانوا أو روحيّين. لكن المعاناة هي

المعاناة، تمرُّ بطيئة على رِسْلِها من أمام عتبات القصور لتحطّ رحالها وأوصابها وأوحالها منهوكة كسيحة على أبواب الفقراء والمقهورين.

إنّني أدرك بحسّ الطبيب، أنّ الأمراض المستعصية والمعشّشة في زوايا الوطن، وفي قلب الطوئف وعقلها وضميرها، تصبح أشدّ شراسة في وجه الطبيب **وجيه حمقة** ! كما في وجه الكثيرين من أطبّاء الإغتراب، لأنّهم ربّما حملوا في حقائبهم دواءً لداء مستأصل يُعيد للمريض عافيته فينير عقله وضميره!

كنت أتمنّى أن أحلَّ ضيفًا خفيفًا لأوقّع كتابي هذا في أجواء نقيّة للحركة الثقافيّة في وطني، التى ما تخلّفت عن دعمها وتشجيعها. لكن ما حيلة **الأديب وجيه حمقة**! الذي لا يعرف من أنواع الرصاص إلاّ رصاصة قلمه التي ربّما تحفر في طيّ أوراقه أفكارًا هجينة محظورة تغيّر المألوف ولا تسيغها الجهلة!

كنت أتمنّى أن أوقّع هذا الكتاب بين الشرفاء المطحونين والمقهورين من أبناء وطني، لكن العادة المتأصّلة في رفض الآخر وإلغائه، تحوّلت إلى جرس إنذار راح يقرع أذني **رجل المُكرمات وجيه حمقة** ، وآذان العديدين من أمثالي الذين يتنفّسون هواء الانفتاح والتسامح، خوفًا من أن تجرح الحقيقةَ خشبات المنابر في وطن بات خبزه وهواؤه من صنع الشعارات والموبقات والأضاليل.

كنت أتمنّى وأتوق أن يطلَّ ذلك اليوم الوعد، لأستثمر فيه فكري ومالي وتجربتي في بلدتي، وفي بلدي الذي ما بخلت عليه حتّى في أسوأ الظروف، لكنّ مهارة الرقص على الحبال، واللعب على حدّ السيف بين السلم والحرب، والعبث بإنجازات اللبنانيّ، ليست من مواهب **رجل الأعمال وجيه حمقة**، ولا

غيره من رجال المال والأعمال الذين ربّما كانوا يحملون في حقائبهم مشاريع بذور تنمية تفتّح العيون والأذهان على فشل السياسات والبرامج التي تضحك على ذقون الناس وتستغلّ ولاءهم المباح.

كنت أتمنّى أن أقول ما لم يستطع قوله الكثيرون من أبناء وطني، لكن توظيف الدين واحتكاره، والمزايدة في استخدامه أداة لمآرب شخصيّة، ليس من شيم **الحاج وجيه حمقة** ، ولا من عادة الكثيرين من المؤمنين بالله والوطن الذين رسّخوا إيمانهم بالفكر والممارسة والعمل.

كنت أتمنّى أن أوقّع هذا الكتاب بين تلامذتي الذين درّستهم في حاريص، وغرست في عقولهم شجرة العلم، وفي نفوسهم حبَّ الوطن، وفي قلوبهم عشقَ الحرّيّة، لكنّني أعاهدهم أن **الأستاذ وجيه حمقة** ، سيبقى وفيًّا لمبادئه وقيمه، وهو أقرب إليهم من كلّ مسافات الاغتراب التي تفصله عنهم.

كنت أتمنّى أن اقف أمام أصحاب الشأن لأشرح معاناة أبناء الطائفة المغتربين، وأنقل ما يعتمر في نفوسهم من حبٍّ لوطنهم وأمل في العودة إلى ربوعه، لكن البيروقراطيّة وبطانة السوء وأفواه الحاشية الجائعة التهمتني قبل أن أصل إلى باب "الملك"، وأوصدت منافذ العبور في وجه **المغترب وجيه حمقة** ، كما أمام أغلب المغتربين الأحرار والمعتدلين والصادقين، غير المنضوين تحت راية الرعيّة، لئلاّ تتّسع مساحة الرفض وتتنبّه الخراف النائمة.

كنت أتمنّى أن أقدّم هذا الكتاب لزعمائنا وولاة أمرنا، لكنّ الدسيسة والنميمة والإفك، بحقّ اليد التي تصافح خلق الله من شعوب الله في بلاد الله الواسعة، أقامت سدًّا يصدّ **المثقّف المنفتح وجيه حمقة** كما الكثير من المثقّفين، لئلاّ

تقرع الأجراس وتفتح الأبواب لتصويب تطبيق الآية القرآنيّة القائلة: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ} وليس أكثركم نفاقًا وتنابذًا واغتيابًا.

كان بودّي أن أوقّع كتابي في لبنان، لكن من المُحال أن أحرق عمري وعقلي وحرّيّتي، بعد هذا العمر، لأعود القهقرى، وألغي صوتي وإرادتي إرضاء لمشيئة وصوليّ تابع، فأكره - ساعة يشاء - من يريد أن يكره، وأحبُّ - ساعة يشاء - من يريد أن يحبّ، وأنا الذي جلت وعملت في أربع قارّات العالم، وخالطت في كلّ بلادها أحرارًا علّموني كيف أكون حرًّا.

أنا لست طائفيًّا قطّ ولا يخيّلنّ لك أيّها القارئ العزيز ذلك لأنّني أكتب عن طائفتي وأنافح عنها أنا كأكثر اللبنانيّين مؤمن أنّ كلّ الطوائف في لبنان مريضة ومعتلّة ومشوّهة وتحتاج للدخول فورًا إلى غرفة العناية الفائقة فعندما أكتب عن أمراض طائفتي فلأنّني أردت أن أبدأ بإصلاح الذات وأحفّز الآخرين على الاقتداء. فمصيبة الأديان في طائفيّيها المعوّقين، ومصيبة لبنان في طوائفه العمياء.

أكتب عن طائفتي الشيعيّة، لسببين هامّين:

أوّلهما، إنّ الشيعة في لبنان، قد يرتكبون اليوم أفدح خطأ في تاريخ وجودهم، إذا تراءى لهم أن يخرجوا من ثـوب التعدّديّة والطائفة العابرة للأحزاب والطوائف، ليدخلوا في لعبة الطائفيّة السياسيّة والطائفيّة العسكريّة والطائفيّة الإقطاعيّة، كما أخطأت كلّ طوائف لبنان سابقًا، وفشلت واندحرت.

ثانيهما، إنّ إصلاح الأوضاع الإقتصاديّة والمعيشيّة وإقامة المشاريع وتحفيز حركة التنمية والانفتاح في المناطق الشيعيّة، كما أنّ إشاعة الطمأنينة والأمان في نفوس الشركاء في الوطن، هي أوّل الطريق لإصلاح الوطن الذي لا يمكن أن يتمّ طالما بقي عضو في جسده يشكو المرض والحمّى.

في رومانيا، تعلّمت من "إيون أليسكو" الرئيس القائد الذي حرّر شعبه من نير الاستبداد. أتذكّره كثيرًا كلّما رأيت صور زعمائنا وأعوانهم فوق الكراسي التي تئنّ من تحتهم لقد أسقط الشعب الرومانيّ الحالم بالحرّيّة بقيادة ثلّة من الأحرار، واحدًا من أسوأ الطغاة والمستبدّين في العصر الحديث، الديكتاتور "نيكولا تشاوشيسكو"، وانتخب "إيون أليسكو" رئيسًا. وفي العام 1996، أي بعد ستّ سنوات على الثورة، إنتخب الشعب الرومانيّ رئيسًا آخر، وكان رهان الكثيرين أنّ الفوضى ستعمّ، وأنّ أبا الثورة لن يتنازل بسهولة. لكنّ الرئيس الذي أراد لشعبه أن يكون حرًّا، خضع لإرادته وتنحّى قائلاً "نحن في رومانيا نحبُّ الرياضة، وقد تعلّمت من الرياضيّين أنّ الرابح يكمل والخاسر يكمل."

إنتقلت إلى إفريقيا، إفريقيا "نيلسون مانديلا"، الذي قاد حركه تحرير شعبه وبلاده من الحكم العنصريّ الأبيض، وقضى أكثر من ربع قرن في غياهب السجون. حاور مانديلا سجّانيه ولم يتنازل كانت المهمّة شبه مستحيلة أمام مطامع الاستعمار، لأنّ جنوب إفريقيا من أغنى بلاد العالم بالمناجم والمواد الأوّليّة. وهي دولة شاسعة وتتميّز بموقع جغرافيّ هامّ، ومع هذا انتصر القائد المناضل المحرّر، دون أن يمنّن شعبه، وتنازل عن الحكم وذهب ليقضي بقيّة عمره قرير العين وسط احترام وطنيّ وعالميّ لا مثيل له.

إنتقلت إلى ألمانيا، هذا الشعب الجبّار، الذي خاض حربًا مدمّرة في لحظات، قاده فيها إنسان مسكون بجنون القوّة والعظمة، فدُمّرت البلاد وقضى العباد وانشطرت ألمانيا إلى نصفين، واحد شرقيٌّ يحتلّه السوفيات الروس، وآخر غربيٌّ يخضع لإرادة الحلفاء وفي مقدّمتهم أميركا . ومع ذلك وقف هذا الشعب العظيم ليبني من جديد مع من تبقّى منه وكان مشروع (ماريشال) الذي قدّم المساعدات والأموال والبرامج، فأحسن استعمالها لم يقم بأيّة حركة مقاومة عسكريّة، بل اقتصرت على الاقتصاد والعمران، واستطاع في غضون عشر سنوات أن يعيد بناء ألمانيا، فنال احترام العالم أجمع، وسقط حائط برلين وتزعزع اقتصاد العالم وعادت ألمانيا موحّدة وكأنّ الحرب ما كانت.

واستمرّ التجوال لأحطّ الرحال في أميركا الشماليّة، وفي كندا تخصيصًا، حيث البلاد التي جمعت معظم قوميّات الأرض وطوائفها وأديانها إن لم يكن كلّها، ووضعت قوانينها التي لا تميّز بين رئيس ومرؤوس، ولا بين أسود وأبيض. فغدت هذه القوانين ضمانة السلم الأهليّ، لأنّها قائمة على العدالة وحقوق الإنسان وكرامته، ولأنّها كفلت لكلّ مواطن حرّيّته في القول والرأي والمعتقد، وفرصته للارتقاء تبعًا لكفاءته وجهده.

لأنّ الأمل مرافق للحياة، والإيمان بالوطن ملازم للعمر، فلن تكلّ عزائمنا عن المضيّ في نهج لن يكون للبنان منجاة إلاّ به، ولسوف نبقى، نحن المغتربين، وأخصّ الشيعة تحديدًا، صوت الحقّ وضمير الشعب من أجل بناء مجتمع يجد فيه اللبنانيّ مكانًا آمنًا له ولبنيه أسوة ببقيّة المجتمعات المتحضّرة.

إذا كان عبثًا ما أقول، ولا تصيخ له آذان أمراء الحروب وملوك الطوائف، فإنّني أتوجّه بنداء لبنانيّ مخلص إلى اهلي في لبنان كلّ لبنان ، أن يعوا

خطورة المأزق الذي يحيط بوطننا قبل أن يصحّ فينا ما قالته أمُّ السلطان عبد الله الصغير لابنها، وهو آخر ملوك الأندلس عند مغادرته غرناطة مكسورًا حسيرًا:

"إبْكِ مِثْلَ النِّسَاءِ مُلكًا مُضَاعًا، لَمْ تُحَافِظْ عَلَيْهِ مِثْلَ الرِّجَال."

عند ذاك أراني أعيد ما قال أحدهم في أندلس الأمس، وكأنّني أخاطب به جنوبي الحبيب:

"مِمَّا يُزَهِّدُنِيَ فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ أَلْقَابُ مُعْتَمَدٍ فِيهَا وَمُعْتَضَدِ

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالقَطِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْرَةَ الأَسَد."

بدايات مباركة في تربة صالحة

بسم الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله.

هكذا درجنا أن نبدأ ونتنهي، أن نستقبل نهاراتنا ونودّعها، أن نحتفي بنعمنا راجين نوالها ويسرها، أن ندخل في ساعات غيابنا عن يقظة الحياة وننهض من جديد إلى عالم يحمل في ثناياه الكثير من المفاجآت والأسرار، مرتّدين وعيوننا شاخصة إلى الشروق البهيّ "الحمد والشكر لك يا ربّ العالمين . أصبحنا وأصبح الملك لله."

بهذه العبارات الطافحة بالرضى والتسليم والايمان، كنّا نفتتح أعمالنا ونباشر نشاطنا ونتحلّق حول موائد الخير في بيوتاتنا الصغيرة العامرة بالمحبّة والبركة والطهر، ونوجّه الرجاء والشكر والحمد لله الذي وهبنا والذي منعنا والذي وعدنا في الدنيا وفي الآخرة.

بسم الله والحمد لله، عبارات يحسبها القائل أنّها وُلدت ملتصقة بشفتيه قبل أن تلتصق حروف اللغة بوعيه ويحسبها السامع أنّها من نسيج القلب تعانق نبضاته وتتغلغل في حركتها ونغمتها لتصبح من الكينونة والحياة.

عبارات ولدنا فيها ومعها في قريتنا اللبنانيّة الجنوبيّة، انهمرت علينا كانهمار المطر الكريم على أرض أيبسها العطش والقحط والجفاف، فتلقّفته كحبّة الدمع المتساقطة من عين طفل جائع، وامتصّته حتّى آخر رمق من الروى، وأطلعته

بعون الله ومشيئته غلالاً وثمارًا لأهل الله في الأرض دون تمييز ولا منّة ولا جميل.

بسم الله، كلمة غُرست في قلوبنا وعقولنا، ونمت في نفوسنا نموّ العمر، وانسابت على شفاهنا وألسنتنا انسيابًا فطريًّا ما كنّا نعرف مصدره صغارًا، وحسبناها سابقة لأسمائنا ووجودنا وحضورنا في الحياة.

وعبارات مثيلة كثيرة غيرها، لا نعرف يومًا أنّها خلت من اسم الله الجليل العليّ، ترافقنا مع دعوات الأهل ونحن نغادر سعيًا وراء العلم أو طلبًا للرزق أو أملاً بنجاح. "الله معك، والله يحميك ويحقّق لك مرادك . وتعود لتستقبلنا بوجوه راضية شاكرة الله على العودة بالسلامة، لاهجة بالحمد في نجاح القصد أو عدمه.

بسم الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله، كانت المحصّلة التي احتضنت مجموعة من القيم النبيلة المرتفعة فينا كارتفاع الهضاب والجبال، والمنبسطة في دخائلنا كانبساط سهول بلدتنا بنت جبيل الوادعة بين يدي الخالق العظيم. علّمتنا ركائز الايمان وأسس التسليم لله تعالى والتصديق بكتبه واحترام أنبيائه ورسله، أنشأتنا على مبادئ التقوى والصلاح، تشرّبناها جرعات مع حليب الطفولة من أمّهاتنا الصالحات القانعات، الأميّات العاجزات في أغلب الأحيان عن قراءة الحرف وكتابته، والحافظات عن ظهر قلب آيات من القرآن الكريم، وأحاديث نبويّة شريفة وأقوال للائمّة وآل البيت الكرام، تحمي بيوتهنّ وأولادهنّ، وتضفي النعمة والصحّة والبركة على العائلة كلّها، وتحصّن الأبناء ضدّ الرجفة ووجع الرأس والظهر والأمراض القاسية والقاتلة التي كانت متفشّية في ذلك الزمان البسيط.

بسم الله الرحمن الرحيم، تلقّيناها حارّة صادقة معبّرة صادرة من أعماق آبائنا الكادحين مع إطلالات الفجر الأولى، سمعناها نسيمًا سماويًا يخرج من أفواه جدّاتنا وأجدادنا وضيوفنا وزوّارنا وكلّ من نلتقيه أو نصادفه ونتبادل معًا الاطمئنان عن الصحّة والأحوال والأعمال.

عبارات نبيلة طاهرة صافية، تروي الظمأ وتهدّئ النفس وترضي الخواطر، تطهّر أفواه الناس وتشيع الاطمئنان في العقول والقلوب تسبقنا ونحن نتأهّب لتصفّح كتبنا المدرسيّة واتمام واجباتنا المنزليّة وُلدت معنا لدى إطلاقنا أوّل صيحة نستقبل بها وجودنا على هذه الأرض، ومع الوعد (النذر) الذي قطعته امّهاتنا أمام الله، ومن قلوبهنّ مباشرة إلى آذان ربّهن، دونما وساطة ولا وسيط، يحمّلنه أجنحة الملائكة المحلّقة ما بين الأرض والسماء، مع عهد صادق على الوفاء والبرّ بوعدهنّ، حتّى ولو لم يسمعه أحد أو يشهد عليه شاهد أو رقيب.

لا أنكر أنّ أجيالنا في الخمسينيّات من القرن الماضي، لم تكن متشبّثة تمامًا بأهداب الدين والفرائض المتوجّبة، كما أعترف أنّ جلوسنا إلى رجال الدين وتردّدنا على الأماكن الدينيّة لم يكن مستمرًا ودقيقًا، لكنّنا، على اختلاف أوضاعنا ومستوياتنا، كنّا ننهل جميعًا من هذا النبع النفسيّ الغنيّ بأصالته الطبيعيّة والعفويّة الصافية، دون أن يكون هناك من يحصي علينا أنفاسنا ويرصد خطواتنا ويلقي علينا الأوامر والنواهي، ويسجّل تصرّفاتنا في دفتر الحساب الدنيويّ، ويمنحنا درجات التقوى والفسق، ويصنّفنا بين صالحين وغير صالحين، ومؤمنين وغير مؤمنين.

لا أذكر أنّنا تلقّينا علومًا في مناهج ديننا وأصوله وقواعده بين يدي رجل الدين، ولا أذكر أنّنا استظهرناها في دروس أحد الدعاة والموجّهين، لكنّني أعرف تمامًا

أنني وأخوتي وأترابي، كنّا نحفظ أجزاء كثيرة من القرآن الكريم نردّدها دون تلعثم ولا تلكّوء في كثير من المناسبات، قبل الطعام وبعده، وقبل النوم وبعده، وقبل العمل وبعده، في الأعياد والاحتفالات، نصاحب أصوات المؤذنين الصادحة في أعلى المآذن في مختلف أوقات النهار، ونشارك، صغارًا وكبارًا، في شعائر الأفراح والأتراح وإحياء ذكرى الأئمة والصالحين.

ولا تعتبر نشأتنا، على هذا المنوال، في ذلك الزمان غريبة أو قاصرةً أو ناقصة، فقد كانت بلدتنا كما كان الجنوب اللبنانيّ آنذاك، قد بدأ يتوجّه نحو احتضان الأفكار الحزبيّة والتجمّعات المدنيّة، بعد انحسار المدّ الدينيّ الذي كان سائدًا فيه زمنًا طويلاً، ثمّ بدأ بالخفوت بانتهاء عصر العلماء العامليّين الذهبيّ، والأساتذة الكبار أمثال الشيخ موسى شرارة والسيّد العلاّمة محسن الأمين العامليّ الحسينيّ وغيرهما كثيرين، بعد أن "اندرج الجبل العامليّ في دولة لبنان الكبير، وبدأ أفول الرابطة العامليّة وظهور جنوبيّ جديد وثيق الصلة بنشوء الوطن اللبنانيّ، ولم يكن هذا إلاّ من قرائن اضطراب العامليّة وثقافتها وذهاب التعليم الدينيّ إلى النضوب "، (كما يقول محمّد الحجيري في مقالة له نشرتها جريدة السفير في عددها الصادر في 2001/3/16)، إذ لم يخلف أحد من الأبناء والده في دوره ومركزه الدينيّ، وانصرفت الأجيال الجديدة إلى الاشتغال في الشؤون السياسيّة والأدبيّة والفنيّة ولم يكن بينهم رجل واحد يضع العمامة، أو يرخي اللحية.

لم يكن جدّي مثلاً ولا أبي كذلك، ولا أحد من أقربائي، قد أطلق لحيته كعلامة دينيّة، بل كان كلّ منهم يواظب على حلقها وتنعيمها يوم كانت حلاقة اللحى مشقّة وعذابًا وتستهلك الوقت والجهد، وتترك الشفرات العريضة ندوبها على

الوجوه والرقاب. ولكنّهم مع كلّ هذا، لم يهملوا وقتًا من أوقات الصلاة أينما وجدوا، ومهما كانت مشاغلهم وتجارتهم، على الرّغم من شحّ المياه اللازمة للوضوء آنذاك، التي كانت تتوفّر ببَرَكَة أداء الصلاة متجمّعة في خزّان صغير متواضع يطلقون عليه اسم "البِرْكة"، ربّما لما يتّصف به من بَرَكَة ونعم وكم كنّا نسعد، نحن الأطفال، عندما كنّا نقلّد حركات آبائنا في الصلاة ونتسابق لطيّ السجّادة ولملمة البَرَكات المتناثرة من أنفاسهم وأدعيتهم عليها، كما لم يقصّروا في ركن من أركان دينهم، وحضّنا على المحافظة عليها، لا سيّما صيام شهر رمضان والقبض على أمنية العمر في الحجّ لزيارة بيت الله والأماكن المقدّسة ومحاولة تحقيقها عند أوّل فرصة سانحة.

كانت تلك تباشير ولادة عصر التحوّل في المنسيج الثقافيّ، الذي أفسح المجال أمام ولوج الأفكار اليساريّة والأحزاب الشيوعيّة والتوجّهات العربيّة والقوميّة على ضوء اشتعال الشعور القوميّ الكبير، بعد احتلال فلسطين وهجرة الفلسطينيّين وظهور حركات المقاومة والكفاح ضدّ العدوّ الإسرائيليّ.

هكذا كانت نشأتنا في بلدتنا الجنوبيّة بنت جبيل، نشأة مجبولة بالبساطة والاعتدال والتسامح، بالصدق والعفويّة، نستلهم من تلك العبارات ومن تربية والدينا ومعلّمينا، خلاصة المثل والقيم الدينيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة، التي ترسّخت فينا من خلال الممارسات اليوميّة والعلاقات الأسريّة والعائليّة والانسانيّة، وبمعاملاتنا مع الآخرين أقرباء وأصدقاء أو غرباء، وشكّلت لنا حرزًا مغروسًا في لحومنا وحصنًا نأوي إليه فنشعر بالسعادة والأمان والسلام.

وأكثر ما أشعر به راسخًا في وجداني، من خلال هذه النشأة المحصّنة المعبّرة، هو مشهد مقبرة البلدة التي تحتضن أجساد الأحباب والأجداد والأقرباء الذين

يرقدون بسلام وسكينة، وكانت تقع على يمين طريقنا إلى مدرستنا الثانويّة، وغالبًا ما كان يصادفنا ونحن نغزّ السير ممسكين بكتبنا في يميننا نحو الجهاد في طلب العلم، مرور جنازة لأحد المتوفّين، فننظر إلى أصدقائنا ونتساءل إذا كان المتوفّى يحمل مثلنا كتابه بيمينه لملاقاة وجه ربّه في يوم الحساب العظيم، ونهرول جميعًا لنعبر سور المقبرة ملبّين نداءً عفويًّا ذاتيًّا دافعًا للمشاركة في حمل نعش الفقيد ونوال الأجر والثواب وتوديعه إلى مثواه الأخير، وأداء واجب العزاء والترحّم على الفقيد ومواساة أهله وأنسبائه، قبل أن نعود ثانيةً إلى استئناف السير نحو ساحة الجهاد العلميّ، ولسان حالنا يقول: ما أقرب المسافة بين الموت والحياة، بين كتاب العلم وكتاب الحساب، بين الأمل في صنع المستقبل والرجاء في الغفران والرحمة وجنّة الخلد! يا الله، كم كنّا نسرح بأفكارنا ونحن نطلّ من نوافذ غرف الدراسة، فتطالعنا شواهد القبور وعالم القبور وعالم الأموات الذين قضوا فنحدّق في أسرار الكون والحياة وقدرة الله عزّ وجلّ مردّدين مع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام:

"إعمَلْ لدنيَاك كأنّك تعيش أبدًا وَاعمَلْ لآخرتك كأنّك تموت غدًا."

جيل "النهضة والثبات"

أنا جنوبيّ مسلم شيعيّ من جبل عامل، جبل الجليل وبلاد البشارة، جبل بلاد (المتاولة)، الذين والوا النبيّ وآل بيته، العرب الأقحاح المتجذّرين في عروبتهم منذ نيّف وثلاثماية عام قبل الميلاد، عندما قدموا إليه واستقرّوا فيه بعد انهيار سدّ مأرب وضياع مملكة سبأ التاريخيّة.

أنا من أحفاد هذا الجبل العامليّ الذي أضاء سماء الاسلام بعلمائه وفقهائه على مدى زهاء ألف عام، ممّن تلقّوا النور من مشكاة النبوّة، كما قدّموا للانسانيّة في كلّ عصر نخبة من ألمع المفكّرين والأدباء والشعراء والكتّاب، وأثروا المكتبة الدينيّة والثقافيّة بمجموعة واسعة من المؤلّفات، حتّى قيل "إنّ أفران عكّا بقيت تشتعل منها (من المؤلّفات) ستّة أيّام في حادثة الجزّار (أحمد باشا) المشؤومة." كما جاء في كتاب "خطط جبل عامل" للعلاّمة السيّد محسن الأمين.

وُلدت في بلدة بنت جبيل، تلك البلدة التي لا يختلف شأنها عن بلدات الجنوب الزراعيّة الأخرى. فلم تكن تملك من مقوّمات الحياة شيئًا، ولا تختزن في باطنها مواد أوّليّة أو ثروة طبيعيّة، سوى إيمان أهلها وتضحيات آبائها وعزيمة أبنائها الطامحين الحالمين المنذورين لله بأغلبيّتهم، إضافة إلى موقعها الجغرافيّ الذي جعل منها شامة بارزة في منطقة جبل عامل، وارتباطها الاقتصاديّ والاجتماعيّ بجاراتها فلسطين والجولان وحوران، حيث كان أهلنا يذهبون إلى فلسطين، يأخذون معهم البيض والقمح والشعير والغلّة، ويعودون منها بخيرات

كثيرة. كانت فلسطين بالنسبة إليهم أقرب من بيروت، عاصمتنا، وكانت آنذاك عامرة بالمنتجات، وقبلة العالم ومحجّته، يؤمّها الزائرون من كلّ حدب وصوب. يقصدونها للتجارة وزيارة أماكنها المقدّسة عند جميع الأديان، كما للسياحة في مراكزها الساحليّة والجبليّة البهيّة إلى أن جاءها الاحتلال الأســود البغيض الذي جثم على صدرها وشرّد أهلها ونكب سكّانها وحوّلها، كما حوّل قرانا اللبنانيّة الجنوبيّة وعالمنا العربيّ كلّه، إلى ليل دامس طويل، مفعم بالمآسي والويلات لا يكاد ينتهي ظلمه وظلامه.

كان الكبار في بلدتنا يعرفون الكثيرعن الشركس وعاداتهم وتقاليدهم وما عانوه بعد أن اقتلعوا من أرضهم ووطنهم ووُزّعوا في أنحاء الدولة العثمانيّة، حيث هجّر قسم كبير منهم إلى الجولان في سورية والقنيطرة والقرى المحيطة بها، وعلى طول الخطوط بين الفرات ونهر الأردن وصولاً إلى فلسطين كما أنّ الرجال من قريتنا كانوا يعرفون أيضًا عن الدروز وجبالهم، وعن حوران وسهولها وخيراتها التي كانت تغذّي المنطقة كلّها.

أمضيت زمنًا طويلاً في دنيا الغربة، لم أتردّد فيه يومًا، عن إعلان هويّتي الدينيّة أو المناطقيّة أو الوطنيّة أو القوميّة، أينما حللت في أربع قارّات الدنيا التي جلت فيها وعملت ونجحت بفضل الله وعونه ورعايته، لأنّ هذه الهويّة بكلّ عناصرها، كانت تشكّل لي وللكثيرين ممّن جمعتني بهم آفاق الاغتراب، محطّ اعتزاز وفخر وكبرياء، وموضع تقدير واحترام في كلّ المواقع التي شغلتها.

كانت بلداتنا وقرانا الجنوبيّة، على مدى التاريخ، أمينة على إسلامها وعروبتها، ومثالاً للاعتدال والتسامح الدينيّ، ورمزًا للوطنيّة والتضحية من أجل الحرّيّة

والاستقلال، وبقعة منيرة بنبوغ أبنائها ونجاحهم في مختلف الميادين. وأكثر من ذلك، منحني اعتزازي بهويّتي هذه قدرة فائقة للانفتاح على الثقافات المختلفة والتفاعل معها والتأقلم مع البيئات الفكريّة المتنوّعة، ولم يحل يومًا دون انخراطي الايجابيّ الحقيقيّ في المجتمعات التي وُجدت فيها وعايشت أهلها وتأقلمت مع عاداتها وتقاليدها وأنظمتها الاجتماعيّة، وتحقيق نجاحات كبيرة في ميادين شتّى، مع الاحتفاظ التامّ بكلّ المبادئ والقيم والمثل التي نشأت عليها وترعرعت في ظلّها في بلادنا ولست مغاليًا إذ أقول إنّني وأسرتي وأبنائي الذين وُلدوا خارج وطنهم، ونشأوا وتعلّموا في بيئة أجنبيّة جديدة، لم تشكّل لنا هويّتنا حالة صدام أو تنافر وتعارض، ولم تتحوّل إلى "هويّة قاتلة" أو إلى سبب لتصادم الهويّات والحضارات كما يشاع. إلى أن جاء يوم من غفلة الأيّام ومن خارج الزمن الذي عهدناه، لتتلاقى فيه الأطماع الدوليّة وترهّل النظام السياسيّ اللبنانيّ، والقصور والعجز العربيّان، فتحوّلت هذه الثوابت والحقائق المضيئة في حياتي وحياة آلاف من الشيعة وغير الشيعة اللبنانيّين والعرب المغتربين، إلى أتّون من عذاب ومعاناة وقهر، سوف ترخي بظلالها الثقيلة على ما كان قادمًا من أيّامنا ومستقبل أبنائنا وبلادنا، إنطلاقًا من احتلال فلسطين ومرورًا بالحروب الأهليّة في لبنان، وانتهاءً بالاعتداءات والاحتلالات والاجتياحات الإسرائيليّة المتكرّرة لجنوبنا والوطن كلّه.

وكان الأدهى، ما أفرزته الحرب من زعامات وأزلام يدورون في فلكهم ممّن امتهنوا الابتزاز والثرثرة والتعاون مع مختلف أنواع المخابرات لإيذاء أبناء جلدتهم بذرائع متعدّدة، مرّة لحماية البندقيّة العمياء في زمن الحرب، وأخرى لحماية أمراء الحرب أنفسهم الذين أصبحوا أولياء أمر البلد وأعيانه في زمن السلم؟!

من المعروف تاريخيًا أنّ الطائفة الشيعيّة في لبنان، هي إحدى أكبر الطوائف الأساسيّة المكوّنة للشعب اللبنانيّ، والرئيسة في بنية الكيان الوطنيّ، كما أنّها طائفة ضاربة جذورها في التاريخ ولها دورها وأثرها الظاهران منذ قيام لبنان الصغير والكبير ودولة الاستقلال وجمهوريّة الطائف، كما لها دورها الثقافيّ والدينيّ والسياسيّ قديمًا وحديثًا.

فعلماء الطائفة الشيعيّة في لبنان هم الذين ساهموا في تأصيل الفقه الصفويّ إبّان قيام الدولة الصفويّة في إيران منذ القرن السادس عشر، حيث كان العلاّمة بهاء الدين العامليّ محمد بن الحسين بن عبد الصمد آنذاك، شيخ الإسلام في تدريس الفقه الإماميّ في أصفهان، كما ساهم آخرون بتحمّل أعباء الرسالة وتعليمها ونشرها. كما أنّ تثبيت المذهب الشيعيّ الإثني عشريّة في إيران تمّ على أيدي علماء جبل عامل.

ومن الأسباب التي شجّعت علماء جبل عامل بلبنان للتوجّه إلى إيران المكانة الكبيرة التي حصلوا عليها، "وقد وصل احترام الملوك من الصفويّين للعلماء والفقهاء العامليّين – خصوصًا – إلى حدّ أنهم فوّضوا إليهم كافة المهامّ القضائيّة في البلاد، ومنحوهم السلطات والصلاحيّات اللازمة، فأصبحوا المصدّرين والمنفّذين للأحكام والحدود الشرعيّة وعقوبات القصاص في كلّ مدن إيران". كما جاء في (تاريخ التشيّع في إيران، علماء جبل عامل).

ويقدّر مؤلّف كتاب "هجرة علماء الشيعة" (الباحث الايراني مهدي فرهاني منفرد)، عدد علماء جبل عامل الذين هاجروا إلى ايران في العهد الصفويّ بـ (97) عالمًا، لم يعد منهم إلى جبل عامل سوى سبعة فقط.

ويعتبر عليّ بن عبد العالي الكركيّ، المعروف بالمحقّق الكركيّ أو المحقّق الثاني، أبرز المهاجرين العامليّين إلى إيران، فقد هاجر في السنوات الأولى لتأسيس دولة الصفويّين، وتبوّأ في هذه الدولة منزلة لا تدانيها منزلة، إذ يقول الشاهرودي عن الكركيّ وتنقّله في الأمصار ثم استقراره في إيران: "ثم رحل إلى بلاد إيران هادفًا الترويج للمذهب الشيعيّ، وقد لقي من السلطان الشاه إسماعيل الصفويّ آيات الاحترام والتكريم والتقدير، وأناط إليه الشاه وظائف كثيرة وجعل له مرتّبًا سنويًّا كبيرًا ليصرفه في تحصيل العلوم ويفرّقه بين الطلاّب والمشتغلين بالعلم...وقد بلغ شأنه في تحديد الوظائف والمراتب حتى قيل: إنّ كلّ من يعزله الشيخ الكركيّ لا يعيّن ثانية."

ولم ينته تأثير علماء جبل عامل بعد وفاة الكركيّ، ذلك أنّ عددًا من المهاجرين تبوّأوا المراتب العليا في الدولة الصفويّة، وساهموا في النهضة الشيعيّة، نذكر منهم على وجه الاختصار: كمال الدين درويش محمد بن الحسن العامليّ الذي يوصف بأنّه أوّل من نشر أحاديث الشيعة في عهد الصفويّة، وعليّ بن هلال الكركيّ الذي يحكى عنه أنّه نقل معه من جبل عامل إلى النجف والهند وإيران مكتبة ضخمة يبلغ تعدادها أربعة آلاف مجلد، وحسين بن عبد الصمد الجباعيّ وبهاء الدين العامليّ وهو ابن حسين بن عبد الصمد الذي عيّنه الشاه عباس الكبير شيخاً للإسلام في عاصمته الجديدة "أصفهان"، وهو أعلى منصب دينيّ رسميّ في البلاد، ونشط العامليّ في التأليف، حتّى اعتبر كتابه "جامع عبّاسيّ" أحد أعظم الكتب تأثيرًا في تاريخ الشعوب الاسلاميّة، ومحمد بن الحسن الحرّ العامليّ وهو أحد أكبر علماء الدولة الصفويّة في مراحلها الأخيرة، وأحد أهم علماء جبل عامل على الاطلاق، هاجر إلى إيران في سنة 1073هـ ، وأعطي منصب شيخ الإسلام وقاضي القضاة في (مشهد)، وفيها توفي سنة 1104هـ

(1692م)، واعتبرت مؤلفاته العديدة من أهمّ ما وضع في أمور الشريعة والفقه والتاريخ الشيعيّ.

كما كان لعلماء جبل عامل دور كبير في نشر العقيدة وتأسيس المدارس والحوزات العلميّة الدينيّة في مختلف البلاد فالسيّد محسن الأمين العامليّ الحسينيّ المولود في بلدة شقرا 1867 م، يُعتبر من كبار العلماء الشيعة، وذاع صيته في دمشق التي أسّس فيها المدرسة المحسنيّة، وسمّي شارع الأمين باسمه، وأحدث نهضة فكريّة واسعة بمحاربته العادات والبدع والتقاليد البالية، ودعوته الناس إلى اتّباع الشرع الاسلاميّ الصحيح والتخلّي عن الأضاليل والأكاذيب، كما ترك إرثًا ثقافيًا ودينيًا ثريًا ما يزال حتّى يومنا هذا مرجعًا ودليلاً. فقد كان، رحمه الله، شديدًا على الأعداء، رحيمًا على أهله، مدافعًا عنهم وعن حقوقهم، متصدّيًا للظلم، مناصرًا للحقّ والعدل وقد وُصف بـ "العلاّمة المرجع المتبحّر المجدّد الرائد."

كان أئمّة البلدة في أيامنا، متواضعين، لا يختلفون في حياتهم اليوميّة عن أبناء البلدة. وكان الأهالي يقدّرونهم ويجلّونهم ويخصّونهم بأحلى ما عندهم وأغلى ما يملكون، لأنّهم موقنون بأنّ لله حقًّا في مال المرء ورزقه فقد كان الائمّة بيننا نجومًا مضيئة تلمع في سماء بلدتنا، نستدلّ بها ونتتبّع أنوارها للاهتداء إلى الطريق القويم. كانوا يشاركوننا تفاصيل حياتنا الاجتماعيّة، يباركون منازلنا في مناسباتنا الخاصّة والدينيّة، ويلقون على آذاننا وفي أفئدتنا نسائم من الآيات الكريمة والأقوال الطيّبة والقصص النبيلة التي تهدّئ من مصابنا في أوقات الحزن والشدّة، وتشيع فينا السلام والسعادة في أيّام الفرح والأعياد. كانوا يتلقّوننا بالحسنى والكلمة الطيّبة والموعظة الحسنة، بوجوههم البشوشة التي تتوهّج

بضياء الايمان والطهر، فيهدوننا بلطف ولين من غير تعنيف ولا وعيد ولا ترهيب، ويزرعون في قلوبنا حبّ الله وطاعته بسلاسة ويسر لم يقيموا أيّة مسافة أو حدود شائكة بينهم وبين الأهالي، ولم يضعوا الحواجز ولم يصدروا الأحكام القاطعة بالتكفير والقصاص على من يتجرّأ بطرح أسئلة غير مألوفة، التي كثيرًا ما كانت تراود أجيالنا بحثًا عن الحقائق الكبرى، وعن إجابات شافية على أسئلة تمور في أنفسهم عن العدالة والحقّ كان هؤلاء العلماء يجسّدون بحقّ كلّ معاني المعرفة الصادرة عن عالم متواضع واثق من علمه وأحكامه، وكلّ معاني الحكمة المتأ تيّة عن الخبرة والمحبّة والتسامح والاعتدال لا أذكر انّ أحدًا منهم تعرّض في أحاديثه ودعواته إلى أيّ أمر سياسيّ أو حزبيّ من شأنه أن يثير خلافًا أو يخلق عداءً بين أهل البلدة أنفسهم أو بينهم وبين أهالي القرى المجاورة، كما لا أذكر أنّ أيًّا منهم تطرّق إلى موضوع يتعلّق بمواقف الدول الصغرى أو الكبرى كان اهتمامهم مصبوبًا على زرع المحبّة والوئام والهداية والصلاح بين الناس، وعلى نشر الكلمة الطيّبة ودعوة الخلق إلى طاعة الخالق ونبذ الأحقاد والضغائن والشرور ما رأينا يومًا صورة لأحدهم تتصدّر جدران البيوت أو الساحات، ولا يافطات تطلق عليهم صفات سماويّة خارقة تجعلهم في منزلة الأنبياء والمعصومين، وتضفي عليهم نعوت القداسة وترفعهم فوق مستوى الآدميّين. كانوا بكلّ بساطة رجالاً جنّدوا أنفسهم من أجل كلمة الله وخير عباده، فلذا كانت مشورتهم واجبًا وكانت "الخيرة" وهي سؤال الله مباشرة على أيديهم، مستحبّة عند الرغبة في عقد صفقات البيع أو الشراء، أو الشروع في رحلة سفر أو انتقال، أو الدخول في عمل جديد وكان آباؤنا يرسلوننا إليهم لطلب إجراء "الخيرة" وأخذ المشورة في ما يريدون الإقدام عليه، وكان جوابهم على طلبنا يختصر بقولهم: "منيحة إن شاء الله." أو "مش منيحة، ويُستحسن تجنّبها."

لم نكن نفكّر حينذاك، ماذا يفعل الامام، ولماذا ينصح بهذا ولا ينصح بذاك. كانت الثقة برأيه عميقة حاسمة، نابعة من إيماننا العميق بتجرّده ومحبّته وحرصه على خيرنا ومصلحتنا، فكان جوابه حدًّا قاطعًا يؤخذ به ولا يناقش. وكان آباؤنا ينطلقون للسعيّ على هديه قائلين: "على خيرة الله، والخير في ما اختاره الله."

من الحقائق الثابتة في تاريخ لبنان، ولدى جميع الباحثين والمؤرّخين، أنّ مناطق الشيعة في الجنوب والبقاع اللبنانيّين، كانت على مدى سنوات طويلة، من أكثر المناطق حرمانًا وإهمالاً من السلطة المركزيّة في العاصمة بيروت، على المستويات كافّة. صحيح أنّها لم تكن الوحيدة في امتلاك صفة الحرمان التي شاركها فيها العديد من القرى والبلدات اللبنانيّة الأخرى، لكنّها بالتأكيد بزّتها جميعًا في تحمّل وطأة الحرمان والظلم، فلا شوارع ولا طرقات ولا بنية تحتيّة، ولا ماء ولا كهرباء ولا مدارس ولا مستشفيات ولا مصحّات. كانت بلدات الجنوب اللبنانيّ تفتقر إلى الحدّ الأدنى من الحقوق التنمويّة الأساسيّة قياسًا ببقيّة المناطق. فالتنقّل كان يتمّ على ظهور الدواب، فلا طرقات معبّدة باستثناء الطريق المؤدّية إلى دارة البَيك. وكان على ابن الجنوب أن يقطع المسافات على الطرق الترابيّة الوعرة، كما كان عليه أن ينتقل إلى مركز المحافظة في صيدا أو إلى العاصمة بيروت طلبًا للاستشفاء أو الدراسة أو العمل، هذا إذا تمكّن من ذلك قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة على الطريق. ويبدو أنّ جبل عامل عندما ضُمّ إلى دولة لبنان الكبير، نسي أصحاب الشأن أن يدوّنوه في الأوراق الرسميّة، أو أن يضيفوه إلى الخارطة السياسيّة والاداريّة والاقتصاديّة للوطن.

كان الفقر القاسم المشترك لعائلات الجنوب، كما كان الجامع الأكبر لعائلاتنا وُلدنا في الفقر كما وُلد معظم أبناء قريتنا وسائر القرى التي تجاورنا. كان الفقر رفيقنا وصاحبنا. لم نستغرب وجودنا فيه، ولم تفاجئنا أجواؤه وطقوسه وعاداته . كان منّا وكنّا منه يعرفه أجدادنا وآباؤنا كما عرفناه نحن في سكناننا ولباسنا ومأكلنا وأعيادنا، أليفًا يساكننا بهدوء ويربّينا بحزم مع كلّ ما كان يفرضه علينا من شظف وقساوة.

تفتّحت عيوننا على الشحّ والقلّة والبساطة كلّ شيء كان شحيحًا نادرًا في بلدتنا. العمل شحيح والرزق شحيح والماء شحيح، حتّى هواء البيوت الصغيرة المتواضعة يصبح مقننًا وشحيحًا مع تكدّس أفراد العائلات في غرف ضيّقة تجمع الأبناء والآباء صفوفًا متراصّة كأكياس البطاطا وما زاد من طامة الحرمان وغياب التنمية في قرانا، إلى جانب الاهمال الرسميّ الحكوميّ، وتحكّم الطبقة السياسيّة في مقدّرات البلاد في أعقاب قيام دولة لبنان، أنّ قلّة من العائلات الاقطاعيّة، التي لم تختلف عن تركيبة الاقطاع السياسيّ المنتشر في كلّ لبنان آنذاك، وكان يطلق عليه "الاقطاعيّة السياسيّة"، تمكّنت من السيطرة على موارد المنطقة الزراعيّة والطبيعيّة؛ وفرضت نفوذها على الأرض واحتكرت خيراتها مستغلّة جهل الناس وفقرهم وعرق فلّاحيهم، فحرمتهم من المزايا التي كانت وقفًا على أولادها وأتباعها وأزلامها، ما ولّد لدى أكثر الشيعة اللبنانيّين شعورًا بالظلم من النظام السياسيّ الاجتماعيّ والاقتصاديّ الذي تشكّل إثر استقلال لبنان في العام 1943، الذي حابى الطوائف الأخرى على حسابهم، ولا سيّما الطائفة المارونيّة في المرتبة الأولى، والسنّيّة في المرتبة الثانية.

كان رجال الاقطاع الفئة المدلّلة لدى دولة الانتداب، فقطفوا ثمار تعاونهم مع المحتلّ الفرنسيّ وقبله مع الأتراك، وقبله مع الانكليز الذين سلّحوا فئه لتنتصر على أخرى في أحداث 1860، دون اعتبار لرابطة الدين، لأن المصالح السياسيّة والاقتصاديّة أهم وأعلى، والذي كافأهم بمنحهم صكوك ملكيّة الحجر والبشر، فعاش الناس كالعبيد، وتمّ التعامل معهم كأنّهم إضافات رقميّة تقوم على خدمة سادة القوم فالفساد بحاجة إلى خدم، والخدم أضيفوا وأعطوا البطاقات، وراحوا يزرعون التبغ ويبيعون الكلغ الواحد منه ليشتروا بثمنه علبة دخّان (سجائر) واحدة مصنوعة في "الريجي"، المملوكة في الظاهر للدولة لكنّ المستفيدين منها كُثر وكذلك وزّعت الأراضي على المحاسيب من كلّ الطوائف والأديان.

في الجنوب كان هناك تدريب يوميّ على العبوديّة، حيث كان الناس يتدرّبون على يد البيك الاقطاعيّ المالك للأرض، بشتّى الوسائل والأدوات، لينطلقوا بعد انتهاء التدريب ذليلين للخدمة ويما أنّ الخدم بحاجة إلى السكن، وبما أنّ البيوت الواسعة لا تتسع إلاّ لحاشية البيك وأعوانه، لذا سمح لهم أن يقيموا في الضواحي ويعودوا في اليوم التالي ليقدّموا للبيك أبسط الوظائف، لا أقول أحقر ولا أوضع المهن، لأنّه ليس هناك مهنة حقيرة ولكن أناسًا حقيرين وقد عبّر موسى الزين شرارة، شاعر بنت جبيل المبدع عن هذا الواقع الأليم بصورة شعريّة من أجمل بواكير شعره الاجتماعيّ الناقد الذي يفضح فيه شرور "الكبراء" ودورهم في القضاء على العلم والمعرفة، عندما قال في قصيدة العلم:

"عجبًا أرى أنواره قد أشرقت وهدى الأنام جميعهم بضيائه
إلاّ بني وطني إذا أغشاهم في نوره وثبوا إلى إطفائه!
والمطفئون له هم كبراؤنا يا ويح هذا الشّعب من كبرائه
أتراه يرجو الخير من زعمائه والشّرّ كلّ الشّرّ في زعمائه!؟"

لذا لم يكن غريبًا ولا مستهجنًا، وقد توفّرت جميع العناصر والعوامل السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، أن تستقطب الشيعةَ في الجنوب، كما كانت الحال في سائر المناطق المحرومة، طلائعُ الحركات والأحزاب اليساريّة والشيوعيّة والقوميّة التي كانت تطالب بتغيير النظام الاقتصاديّ والاجتماعيّ والسياسيّ، والتي وجدت أمامها أبوابًا وعقولاً مفتوحة ومستعدّةً لاستقبالها وتلقّفها والانطواء تحت شعاراتها ومبادئها، أملاً في الخلاص من كابوس القهر والجهل
والحرمان، لا سيّما بعد نكبة احتلال فلسطين وموجات التهجير المتعاقبة على مناطق الجنوب، وانقطاع الشريان الاقتصاديّ الرئيس الذي كان يغذّي المنطقة ويمدّها بأسباب الحياة، وبقاء الشرايين اللبنانيّة مسدودة في وجوه الجنوبيّين. ولا غرابة أمام هذا الواقع الأليم، أن تجد ثلّة كبيرةً من أبناء الجنوب في مراكز القيادات العليا في مختلف الأحزاب الوطنيّة والقوميّة وحركات التحرير الفلسطينيّة.

وما لبث دور الشيعة أن أخذ في البروز على يد الحركة النهضويّة التي قادها الإمام السيد موسى الصدر بعد عودته من إيران، في النصف الثاني من القرن الماضي، حيث دعا إلى توحيد الشيعة والنهوض بهم لأخذ دورهم الطبيعيّ في

الحياة السياسيّة والوطنيّة في لبنان . فأسّس المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى وهيّأ له كبار العلماء والمختصّين، وأصرّ على جعل مقرّه في منطقة الحازميّة المسيحيّة تكريسًا لمبدأ العيش الواحد المشترك كما أنشأ حركة المحرومين وأفواج المقاومة، ودعا إلى التعليم وإزالة الظلم اللاحق بالشيعة ومناطق الجنوب والبقاع. وكان من أقوى وأبرز المواقف التي اتّخذها، موقفه برفض الحرب اللبنانيّة الأهليّة التي اندلعت في السبعينيّات، حيث طالب بوقفها الفوريّ وشدّد على ضرورة التفاعل مع جميع مكوّنات المجتمع اللبنانيّ، ونادى بالمحافظة على الوجود المسيحيّ في لبنان، وقاد ثورة حقيقيّة لتأمين العدالة واشتهر بخطوته الفريدة الجريئة عندما لجأ في حزيران 1975، وإزاء استفحال القتال الطائفيّ السياسيّ في لبنان، إلى الاعتصام في مسجد الصفا في المدرسة العامليّة في بيروت، وأعلن صيامًا مفتوحًا حتّى يتوقّف صوت المدفع، والتحقت به شخصيّات أخرى من مختلف الطوائف تؤازره الاعتصام والصيام،
وخصوصًا من المسيحيّين المعتدلين، وناشد الجميع وقف القتال مذكّرًا بقول الإمام عليّ عليه السلام: "إذا ظهرت البدع فعلى العالِم أن يُظهر علمه". وقال في جمع المعتصمين: "رأيت أنّ الوطن بحاجة إلى شيء أقوى من السلاح وأكثر حرمة من الكلمة، إنّه الاعتصام، ولجأت إلى بيت الله أستمدّ منه القوّة والعون إلى أن تخرس أصوات المدافع. ويُجمع المحلّلون على أنّ حركة الإمام موسى الصدر شكّلت انعطافة تاريخيّة في حياة الطائفة الشيعيّة، إذ تمكّن من وضعها على الخارطة السياسيّة اللبنانيّة، وتحرير حضورها المخطوف على يد الاقطاعيّة السياسيّة التقليديّة.

ولأنّ الحرب لم تكن من صنع اللبنانيّين أنفسهم، ولكن نُفّذت بأيديهم بغباء وجهل لا مثيل لهما. وبما أنّ صانعي القرار الذين أشعلوا فتيل الحرب لم يريدوا

لها أن تتوقّف، لذا نهض السيّد موسى الصدر مواجهًا بصدره العاري عاصفة عاتية وإعصارًا جارفًا، فدفع الثمن تآمرًا أودى بحرّيّته أو بحياته (والله أعلم). لكنّ الراية رُفعت والطريق فُتحت والعيون رأت والآذان سمعت، وانطلقت القافلة، وأخذت الراية شخصيّة شيعيّة لا تريد العمل إلاّ لله، إنّه السيّد محمّد حسين فضل الله الذي كان مقيمًا في الضواحي الفقيرة من بيروت، يدرّس ويفتح العقول والأذهان، حتّى أنّ أكبر القادة اليوم في الطائفة الشيعيّة يقولون بفخر إنّهم كانوا تلاميذ السيّد فضل الله.

قام هذا العلاّمة المرجع الأمين، بما تعجز عنه دولة كاملة. حيث جمع عشرات الآلاف من الأطفال الأيتام والمحتاجين وآواهم وحضنهم، وانتشلهم من الطرقات والشوارع، وأمّن لهم الرعاية والتعليم والتربية، وأنقذهم من آفات الرذيلة والجريمة، فكان بذلك أوّل مساهم في بناء مجتمع السلام الذي يبدأ من سلام الفرد ويمتدّ ليعمّ الجميع.

في زياراتنا لأكثر بلاد العالم، رأينا أهتمام الدول في مساعدة الناس المعدمين والمهملين على قارعات الشوارع . أمّا عندنا، في لبنان، فإنّنا نتحدّث عن رجل واحد أخذ على عاتقه مع نخبة من الشباب، مسح الألم والخوف من على وجوه المحتاجين والفقراء والأيتام، فأنشأ لهم إمبراطوريّة بكامل مؤسّساتها وطواقمها ومرافقها، دون أن يطلب قيادة ولا زعامة ولا منّة من أحد، يوم تخلّت الدولة والزعماء والقادرون عن واجباتهم الوطنيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة تجاه هذه الفئة المظلومة من أبناء المجتمع.

وعلى الرّغم من حيا ة الضنك والغبن التي عاشها الشيعة اللبنانيّون، ومن شحّ الموارد وقلّتها، فإنّ الكرامة وعزّة النفس وقوّة الصبر والقناعة والتحمّل كانت

الأمر الوحيد الذي ظلّ ثابتًا ومتوفّرًا وفائضًا عند كلّ الناس. هذه القيم والمبادئ لم تكن شحيحة في بنت جبيل . كنّا نتغلّب على مصاعب العيش بالمحبّة التي تغمر بيوتنا، وبالتّعاون الذي كان يسود بين الجميع. فلم يشكُ أحد من جوع أو ظمأ، فاللقمة المتوفّرة في بيت واحد كانت تكفي لإطعام عدّة بيوت برضى وكفاية وهناء، وجرعة الماء المتفجرّة من النبع في كلّ حيّ من أحياء البلدة، كانت كافية لتسقي الحيّ بأكمله، ولم يكن هذا النبع مملوكًا لأحد لأنّه رزق الله عزّ وجلّ ويجب أن يتوزّع على عباد الله، حتّى ولو منّ الله على أحدهم ببئر تفور في أرضه، فسرعان ما كان يجعلها في تصرّف الجميع رغبة في كسب الأجر في الدنيا والآخرة.

من أبرز عادات التكافل والتضامن في قريتنا ، ما كان يعرف بـ (العونة)، أي المساعدة التي يقدّمها الجميع لبعضهم، فالنساء يتنادين لمشاركة جاراتهنّ في مواسم "المونة" لجمع الغلّة وعصر البندورة وصناعة المربّيات، وسلق القمح وحمله على الأسطح وتجفيفه ليصبح صالحًا للطحن، ومن ثمّ طحنه ليصبح صالحًا للخبز اللذيذ الذي يخرج من بين أيادي الوالدات ساخنًا، فنتجمّع – نحن الصغار – حول المواقد لنأكل منه بنهم وشهيّة مجبولة بالمحبّة التي التصقت بالرغيف من أكفّ الأمّهات ونستمتع بنكهة النسمات الجنوبيّة التي تهبّ مع طلوع الشمس.

هذا الواقع المعيشيّ الذي كان يبدو صعبًا ومرهقًا ، لم يورثنا الذلّ ولا الحقد ولا البغضاء، ولم يحطّم كبرياءنا وطموحنا، ولم يجعل منّا أجيالاً يائسة مستكينة متشائمة، بل زادنا تعاضدًا وتماسكًا أسريًا واجتماعيًا شديدين، ومنحنا قوّة وصلابة وعنفوانًا، وولّد فينا دافعًا للرفض والانتقاض والتغيير علّمنا الصبر

والتحمّل والمواجهة والتحدّي، وشدّ عزمنا وعزيمتنا في المواجهة ومتابعة الطريق للبحث عن الأفضل، متسلّحين بإيماننا بالله تعالى ورضاه ورضى الوالدين، وبعلمنا وبالقيم والمثل الأخلاقيّة التي نشأنا عليها، التي رسّخت في نفوسنا الاعتزاز بانتمائنا لمجتمعنا وطائفتنا ووطننا الذي حملناه في قلوبنا، وما تخلّينا يومًا عن اعلاء شأنه واشهار تعلّقنا به ومحبّتنا له أينما كنّا، على الرغم من تخلّي الدولة عنّا ودفعنا تحت وطأة القهر والظلم والعذاب إلى مغادرة الأرض والأهل والأحبّة، والهجرة إلى بلاد نستطيع فيها تحقيق ما حرمنا منه في وطننا الأمّ.

-5-

مواسم الهجرة من الوطن

عندما تأتي مواسم الهجرة تستعدّ الطيور كبيرها وصغيرها... وعندما يضيق فضاء الوطن بطيوره ويحاصرها بالجوع والعطش، وعندما يضيق صدر الغرفة بأجسام أبنائها المتكدّسين والموزّعين في الأركان والزوايا، وعندما يصبح الرزق همًا يوميًا يقضّ مضاجع الآباء ويخطف الابتسامة من شفاه الصغار، وعندما توصد نوافذ الأمل بأقفال الظلم والقهر وتسدّ في عيون الأجيال سبل التعليم والعمل والعيش بكرامة وكفاية، وعندما يسيطر الغبن والمحاباة والتسلّط، تكون ساعة الرحيل قد أزفت، ويصبح البحث عن اختراق الحواجز أمرًا مطلوبًا.

الكلّ أقارب، ولكن عندما يصبح القليل عسيرًا، وتحول العاطفة والروابط الأسريّة المتينة دون أن تأكل قبل أن يأكل أخوك وجارك وابن عمّك، عندها يصبح ترك العائلة، والحبيبة التي نادرًا ما كانت تسمح الظروف برؤيتها، والأرض التي إحتضنتك، واجبًا، كما يصبح السفر والضرب في دنيا الله الواسعة ملزمًا. (فإسعوا في مناكبها وكلوا من رزقه)، على ما جاء في كتاب الله العزيز.

ويكون عندها على أكبر الأبناء أو أكبرهما معًا أن يحلّقا في سماء أخرى وينتقلا إلى أرض جديدة، إفساحًا بالمجال لأخوتهما ولبقية أفراد الأسرة بإيجاد ركن يتسع لهم، وللّقمة أن تأخذ طريقها إلى فم منتظر، والسماح للهمّ أن يتقلّص وللعذاب أن يفتر وللأمل أن يبصّ في البيوت وفي نفوس المعذّبين، فتقرع أجراس المغادرة، وتصبح القلوب والعيون معلّقة بين الرصيف والرصيف.

لم يكن يكفي أهل الجنوب، والشيعة تحديدًا، ظلم الدولة وجور النظام الطائفيّ العفن، وما عانوه من جرّاء تركيبة صيغة الاستقلال، من إجحاف وإهمال وتقصير في حقّ القرى الجنوبيّة وأهلها، وحرمانهم من أبسط مستلزمات البقاء والاستمرار، والشعور بإنّهم ينتمون إلى وطن يظلّهم ويحميهم، ودولة ترعى شؤونهم وتسأل عن إحتياجاتهم وتؤمّن لهم ما تفرضه أصول وقواعد الأنظمة السياسيّة والمواثيق الاجتماعيّة، من أجل الاستقرار في أرضهم والتشبّث بها والاعتزاز بحمل شرف المواطنيّة.

ولم يكفهم ما عانوه من عوز وفقر يشابه حياة الناس في القرون البدائيّة الغابرة، وكأنّهم جماعة مسلوخة من كوكب آخر، لا ترتبط بالدولة اللبنانية ولا هم من مسؤوليّتها وواجباتها وهمومها، فجعلت منهم مواطنين من الدرجة الأخيرة في سلّم التصنيف الطوائفيّ والمناطقيّ الجائر، وأخصّتهم بالجمرات الكاوية في الوقت الذي أغدقت على المحظيّين من إخوانهم في الأسرة الوطنيّة التمرات العسليّة، وأوصدت في وجوههم أبواب الوظائف والمراكز والمناصب التي إحتكرها أبناء السادة والأشراف. وعاملتهم وكأنّهم طارئون ولاجئون في وطن بذلوا في سبيله كلّ غال ونفيس، وأرض جبلوا ترابها بدمائهم وعرقهم وإخلاصهم. وتركتهم أخيرًا عراة لا حول لهم ولا قوّة في وجه العواصف العاتية التي تهبّ من كلّ حدب وصوب.

"ما حيلة العبد والأقدار جارية — عليه في كلّ حال أيّها الرائي

ألقاه في اليمّ مكتوفًا وقال له — إيّاك إيّاك أن تبتلّ بالماء."

وإذهب أيّها الشيعيّ إلى قدرك "أنت وربّك فقاتلا".

لم يكفهم كلّ هذا القهر والتهميش والعناء الذي امتدّ لسنوات طويلة ولاحق أجيالاً من الأجداد والآباء، حتّى جاءتهم ثالثة الأثافي المتمثّلة بمصيبة الاحتلال لجارتهم ورئتهم ومصدر رزقهم فلسطين، فكان إلى جانب الكارثة الاقتصاديّة التي حلّت بهم بسبب إغلاق منافذ العمل والتجارة نحو فلسطين، كارثة اجتماعيّة أخرى ظهرت مع قوافل المهجّرين واللاجئين الفلسطينيّين الفارّين من وجه الموت إلى مناطقهم وتوزّعهم في مختلف القرى والبلدات، وكارثة أمنيّة خطيرة بسبب الاعتداءات العسكريّة التي بدأت تطال مناطقهم ومنازلهم بحجّة إيواء الفلسطينيّين ومساعدتهم والتعاطف معهم، ما خلق أوضاعًا سياسيّة وأمنيّة واقتصاديّة معقّدة في كلّ الجنوب وبوّابات العبور بين لبنان وفلسطين المحتلّة، ألزمت الدولة اللبنانيّة بشروط واتفاقات ومعاهدات جديدة بناء على الواقع المفروض برعاية دوليّة عامّة، كان من أخطر نتائجها نزوح عدد كبير من الجنوبيّين باتجاه الشمال والعاصمة بيروت خصوصًا، بحثًا عن ملجأ آمن ومورد للرزق يكفل حياتهم وحياة صغارهم ونسائهم وعجائزهم. وكانت هذه بداية الموجات العاتية التي سوف تتصاعد هجرة وهربًا من الهزّات الارتداديّة الخطيرة التي أعقبت زلزال الاحتلال والتي شملت كلّ مناطق الجنوب دون استثناء، كما شكّلت أوّل آثار المأساة في حياة وتاريخ معاناة الجنوبيّين، لا سيّما وأنّ الكثيرين من هؤلاء النازحين إلى العاصمة أو إلى مناطق أخرى من لبنان، إضطرّوا، تحت وطأة العوز والظروف القاسية، أن يقوموا بالأعمال الوضيعة (مع ايماني وقناعتي بأنه لا يوجد عمل حقير بل إنسان حقير)، التي لا يُقبل عليها، بل يأنف منها أبناء الطبقات المحظيّة الأخرى.

واستمرّ الوضع الأمنيّ والسياسيّ بالتأزّم يومًا بعد يوم، وبدأت مفاعيل واقع الاحتلال، في العالم العربيّ كما في لبنان، تنتج شبكة خطيرة من الظواهر والحالات، ليس في الجنوب اللبنانيّ ومن تبقّى فيه من أبنائه الشيعة فحسب، بل على الصعيد الوطنيّ والاقليميّ والعربيّ كلّه، فعانى لبنان من حرب داخليّة على قاعدة الانقسام بين الخطّين العروبيّ والانفصاليّ عام 1958، وتوالت بعدها سلسلة الكوارث والهزائم والتراجعات العربيّة في مسألة القضيّة الفلسطينيّة التي تعتبر قضيّة العرب المركزيّة الأولى، والتي أدت إلى خلافات جذريّة بين الأنظمة بعضها مع البعض الآخر، وبينها وبين المنظّمات الفلسطينيّة المسلّحة وحركات المقاومة، إبتداء من هزيمة 1967 واستكمال السيطرة الاسرائيليّة على أراض عربيّة جديدة، ومرورًا بتوقيع اتفاقيّة القاهرة الشهيرة بعد أزمة حكم طويلة كادت تطيح بالدولة والكيان، وإلزام لبنان بموجب هذه الاتفاقيّة بالسماح لفصائل المقاومة الفلسطينيّة ومن ضمتّه من عناصر الأحزاب الأخرى، بالتمركز في مناطق جنوبيّة عرفت بـ"فتح لاند"، والقيام بعمليّات فدائيّة ضدّ العدوّ الاسرئيليّ انطلاقًا من القواعد العسكريّة التي أقامتها هذه الفصائل في مختلف مناطق الجنوب المحاذية والمطلّة على شمالي فلسطين المحتلّة، دون أيّ اعتبار لحياة الأهالي وسلامتهم، ودون إقامة التجهيزات والمنشآت الضروريّة لمثل هذه الظروف، وتوفير الوسائل والمعدّات اللازمه لحمايه المدنيين. كنّا نجهل حينها أبسط الأفكار عن الدفاع المدنيّ أو الاسعافات الأوليّة، ولم يكن لدينا ملاجىء شرعيّة ومحصّنة للاحتماء بها، ولا سيّارات إسعاف ولا مستوصفات ولا مستشفيات. كنّا عراة بين نارين، متروكين لمصائرنا ورحمة الله بنا.

ولا بدّ أن أسجّل هنا، وقائع أفظع مأساة ألمّت بعائلتنا وبي أنا شخصيًا، سنه 1970 حيث كان بيتنا من أوائل البيوت في لبنان التي دفعت الثمن غاليًا جدًّا

بسبب هذه العمليّات، عندما سقط شقيقي منيب، رحمة الله عليه، إبن الثانية عشر ربيعًا، شهيدًا أثناء القصف الاسرائيليّ الذي طال بنت جبيل ردًا على قصف صاروخيّ فلسطينيّ انطلق من مناطقنا، بعد أن أصيب بشظيّة من شظايا القصف. مما اضطرّني انا الذي أكبره باربعة اعوام فقط، أن أحمله فوق كتفيّ والدماء تنهمر منه، وأركض به إلى ساحه البلده لأعثر على سيّارة تنقلنا إلى تبنين حيث المستشفى الوحيد في المنطقه. وما أن وصلت مغسولاً بدماء أخي والرعب يجتاحني ويهدّ قواي، حتّى صعقت بما لا طاقة لفتى مثلي على مواجهته وتحمّله، إذ أعلمني الأطباء بفراق أخي للحياة متأثرًا بجراحه ونزفه.

حملت فجيعتي وعدت أبحث من جديد على سيّارة تعيدني والجسد الطاهر الى البلده لمواراته في الثرى بذهول وحزن وانكسار، ولتطبع في ذاكرتي صورًا مرعبة وقاتلة ما زالت ماثلة أمام عينيّ.

وما لبثت مثل هذه الكوارث والمصائب أن راحت تتكرّر وتتصاعد يومًا بعد يوم، مع تصاعد العمليّات والردود عليها، حتّى عمّت مع الأسف والألم، أغلب قرانا وعائلاتنا، فسقط مئات الأبرياء الآمنين ضحايا، ودمّرت المنازل وأحرقت المزارع والمحاصيل، وخيّم الموت والخراب.

إنّ المجتمعات المتقدّمة التي تحترم أبناءها، تحذّر الأهل عند عرض مشاهد دمويّة أو مؤثّرة، أو أفلام تتضمّن مناظر تؤذي عيون الأطفال ونفوسهم، كما تمنع الأطفال أنفسهم، دون سنّ الرشد، من حضور أفلام العنف والجرائم خوفًا على مشاعرهم وأحاسيسهم وسلامتهم النفسيّة والعقليّة. أمّا في بلادنا فإنّنا نعرض أمام أطفالنا وشبابنا مشاهد حيّة لأشلاء إخوانهم وآبائهم وأمهاتهم، ونشركهم أبطالاً في مسلسلات الحرب والرعب والموت.

ثمّ أقبلت الحرب الأهليّة اللبنانيّة التي اشتعلت بفتيل القضيّة نفسها، واستمرّت أكثر من خمسة عشر عامًا (1975 – 1990) وأكلت بنيرانها مئات الآلاف من الضحايا ودمّرت الوطن كلّه، ثمّ اجتياح 1982 أو ما يعرف بغزو لبنان الذي امتدت آثاره الكارثية حتّى نيسان عام 2000 عندما تمّ تحرير الأرض وإرغام جيش الاحتلال على الانسحاب القسريّ من جنوب لبنان وانتهاء بحرب تموز 2006 التي شنّتها إسرائيل على لبنان بهدف ضرب البنية التحتيّة والقضاء على سلاح المقاومة الاسلاميّة وتدمير قواعدها العسكريّة في منطقة الجنوب والضاحية وغيرها، وإيقاع أكبر الخسائر بالطائفه الشيعيّه الحاضنة للمقاومة.

جميع هذه الأحداث والمحن الجسام، التي عمّت لبنان والوطن العربيّ، كان للجنوبيّ الشيعيّ النصيب الأكبر منها، فاكتوى بلهيبها وتلقّى صدماتها وآثارها وخسائرها الفادحة ضحايا في أهله، ودمارًا في منازله، وحرقًا لرزقه ومحاصيله، وخرابًا لشبكة مواصلاته النادرة والبسيطة التي تربطه بأنحاء الوطن، وتهجيرًا للقسم الآخر من أبنائه الذين صمدوا وجاهدوا تحت أصعب الظروف وأحلكها وأشدّها وحشيّة ورعبًا، فلم يجدوا بعد ذلك بدًّا من المغادرة نحو الداخل والخارج، ففرغت الأرض والبيوت، وامتلأت الضاحية الجنوبيّة لبيروت وتوسّعت حدودها بالجنوبيّين والبقاعيّين، كما امتلأ العالم كلّه، في إفريقيا وأوروبا وأميركا خصوصًا، بأعداد هائلة من الشيعة اللبنانيّين.

وعندما أقول الشيعة تحديدًا، فلأن الاجحاف الذي أصاب الشيعة في الجنوب أصاب إخوانهم في مختلف مناطق البقاع وصولاً إلى أعالي الهرمل بشكل أشدّ قساوة وظلمًا، ما دفعهم إلى زراعة الممنوعات، لتأمين أرزاقهم ومنع غائلة

الجوع عن أولادهم. بعد أن أخلّت الدولة بوعودها المتكرّرة بالتعويض على المزارعين وتشجيعهم ومساعدتهم في اعتماد المزروعات البديلة كمصدر من مصادر الحياة والعيش بكرامة. وراح هؤلاء يناطحون الصخر ويحصدون الوعود الكاذبة دون أيّة حماية لإنتاجهم الزراعيّ الذي كان مصيره في أغلب الأحيان كسادًا أو طعامًا للحيوانات. ولم يكن أمامهم إلاّ تطبيق مبدأ "الضرورات تبيح المحظورات" والعودة إلى اعتماد الزراعة الممنوعة. فنتج عن ذلك القليل من العوائد الماليّة والكثير من المآسي الاجتماعيّة والعائليّة، حيث تحوّل خيرة رجال المنطقة وأبناء الطائفة وشبابها، إلى فارّين من وجه العدالة ومطلوبين من سلطات الدولة ومطاردين (طُفّارًا) في الكهوف ورؤوس الجبال وأعماق الأودية. ومن سخرية الأقدار، أنّه وبعد انتهاء الحرب اللبنانيّة التي حصدت مئات الآلاف من الأرواح والجرحى، فقد تمّ إصدار عفو عام عن المجرمين الذين قاموا بجرائم ضدّ الإنسانيّة وعن قطّاع الطرق الذين ذبحوا الأبرياء على مفارق الشوارع تبعًا لهويّاتهم ومذاهبهم، وما فتئوا حتّى اليوم يقطعون الطرق ويهيمنون على كلّ شاردة وواردة فيها، ومع ذلك فإنّ الدولة التي يتحكّم بها خمسماية رجل ويسيطرون عليها ويقولون فيها للشيء كنّ فيكون، لم تطرح يومًا حلاً لهؤلاء الفارّين الذين بقوا بعيدين عن نعمة العفو. وحتّى بعد أغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري، وعلى الرّغم من صدور عفو عن بعض المساجين، إلاّ أنّ أحدًا لم يفتح قضية عشرات الآلاف من الشيعة المطاردين، الذي يقضون حياتهم بعيدين عن أسرهم وحياتهم الاجتماعيّة الطبيعيّة.

ومع أنّي أدين زراعة المخدّرات وأعرف أنّها آفة الآفات، ولا بدّ من معاقبة المرتكبين لهذا العمل، ولكن في دولة القانون وليس في دولة المحسوبيّات.

فالقاتلون ومجرمو الحرب من كلّ الطوائف تراهم طلقاء يحتلون أرفع المناصب ويديرون أكبر المؤسّسات والشركات، بينما هناك ستّون من كلّ مئة نزيل من نزلاء السجون، موقوفون بدون محاكمة. إنها مهزلة؟... فأين العدالة وحقوق الإنسان؟ في الوقت الذي نعمل فيه جاهدين لإخراج عدّة أشخاص من سجون العدوّ، مع كامل الاحترام والتقدير لهم، فإنّنا نترك آلاف المطلوبين المطاردين، كما نترك المئات إن لم نقل الآلاف في غياهب سجون الوطن، دون أن نحلّ أو نثير قضيتهم، إنها حقًا كارثةً!...

وهنا لا بدّ أن أذكر أنّ حركة الإمام العلاّمة موسى الصدر التي قادها لاستنهاض الشيعة واستعادة ثقتهم بوجودهم ودورهم وحثّهم على التعليم والانخراط في مؤسّسات الدولة والحياة السياسيّة اللبنانيّة، وعمله على إنشاء أفواج المقاومة وتدريبها وتسليحها لكي تتمكّن من الوقوف في وجه العدوّ وحماية الناس والأرض، كان لهذه الحركة أثر فاعل وجوهريّ في تبديل الواقع الشيعيّ في لبنان وإعادة تثبيته على خارطة الوطن السياسيّة والاجتماعيّة. وقد واجه بسبب حركته حربًا شعواء من اقطاعيّي الطائفة المدعومين من حاشيه كبيرة ممّا يسمى رجال الدين. ولو عدنا الى أرشيف الصحف في السبعينيّات للمسنا ما تحمّل هذا الرجل الكبير الذي ألهم من خلفه، لاستكمال الجهود والمسيرة في خطّة رعاية شؤون الطائفة وقيادتها دينيًا وسياسيًا، من أمثال العلاّمة المرجع الإمام محمّد حسين فضل الله أطال الله بعمره، والإمام المرحوم محمّد مهدي شمس الدين، نائب رئيس المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى السابق في لبنان، الذي عرف باعتداله ونزعته العروبيّة العميقة وانفتاحه على مختلف الطوائف والأديان، والذي سهر وعمل على تحفيز الشيعة في انتهاج سبيل الانفتاح والاندماج الايجابيّ الفعّال في جميع الأوطان التي يسكنونها،

فتحدّث إليهم في وصاياه قائلاً: "أوصي الشيعة في كلّ مجتمع من مجتمعاتهم، وفي كلّ قوم من أقوامهم، وفي كلّ دولة من دولهم، ألاّ يفكّروا بالحسّ السياسيّ المذهبيّ أبدًا، وألاّ يبنوا علاقاتهم مع أقوامهم ومع مجتمعاتهم على أساس التمايز الطائفيّ، وعلى أساس الحقوق السياسيّة والمذهبيّة". ويعلن الإمام المرحوم رأيه بكلّ وضوح بشأن حركات الاحتجاج الشيعيّة المحضة، فيقول: "لا أوافق ولا أرجّح أن تقوم حركات إحتجاجيّة شيعيّة محضة، وأكرّر وصيّتي للشيعة ألاّ ينشئوا أيّة مواجهة أمنيّة سياسيّة مع أيّ نظام من الأنظمة." كما يؤكّد الشيخ أنّ على الشيعة اللبنانيّين أن يندمجوا في محيطهم الاسلاميّ اللبنانيّ اندماجًا كاملاً، وألاّ يقوموا بأيّة خطوة تمايزهم عن غيرهم من إخوانهم المسلمين اللبنانيّين، وفي نفس الوقت يرى أنّ هذا الاندماج لا يكون على قاعدة طائفيّة مذهبيّة، وإنّما يكون منسجمًا مع الاندماج العام في الوطن، مع الشعب اللبنانيّ كلّه، وعلى قواعد الثوابت الميثاقيّة للشعب اللبنانيّ التي تؤكّد بالدرجة الأولى على أنّ المسيحيّة في لبنان جزء مقوّم كالاسلاميّة في لبنان، وأنّ لبنان لا يقوم إلاّ بالتكامل، وإلاّ بالعيش الواحد، وليس العيش المشترك فقط. ثمّ يتحدّث الشيخ الإمام محمّد مهدي شمس الدين في وصاياه عن الجامعة الإسلاميّة في لبنان، ويحذّر الشيعة من مقولة الأقليّة، فهو يرى أنّه لا توجد أقلّيات مسلمة، ولا توجد أقلّيات مسيحيّة، وإنّما توجد أكثريّتان كبيرتان: إحداهما أكثريّة كبيرة هي الأكثريّة العربيّة التي تضمّ مسلمين وغير مسلمين، والأخرى هي الأكثريّة الأكبر وهي الأكثريّة المسلمة التي تضمّ عربًا وغير عرب، والشيعة مندمجون في هاتين الأكثريّتين، وهم تارة من الأكثريّة العربيّة، وتارة جزء من الأكثريّة الاسلاميّة، وكلّ شيء دون هذا فهو مشروع فتنة، وفخ لاستخدام الشيعة في مصالح غربيّة أجنبيّة مخالفة لمصالحهم هم كشيعة.

كما لا يمكننا في هذا المجال إلاّ أن نسجّل باعتزاز الدور الكبير للرئيس نبيه برّي الذي تولّى زمام المسؤوليّة بكلّ جدارة وقاد سفينة الطائفة في أصعب الظروف وأحلكها، فكان بحقّ سياسيًا بارعًا من الطراز الأوّل، أثبت بحكمته وحنكته وبُعد نظره، في كلّ مرحلة من المراحل السياسيّة الصعبة، والمنعطفات الخطيرة التي مرّ بها الوطن والطائفة الشيعيّة، أنّه صمّام الأمان، ورجل المرحلة، وجسر التواصل بين مختلف أطراف النزاع، كما أنّ مواقفه واعتداله جعلا منه الرجل الضرورة للإنقاذ، وإطفائيّ الحرائق التي لا تكاد تخمد في مكان حتّى تتقّد في مكان آخر. وإذا عُرف معاوية بن أبي سفيان في التاريخ، بأنّه كان أب الدبلوماسيّة، عندما قال: "لو أنّ بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت..."، فإنّ "نبيه" الشيعة، وقبل اكتشاف أنّ أصلب الدروع المضادّة للرصاص وأغلاها ثمنًا تلك المصنوعة من خيوط العنكبوت، التي حمت رسول الله وصاحبه في الغار، كان درع لبنان وحصنه، حيث مدّ شباك علاقاته العنكبوتيّة التي حاكها بحكمه وتأنّ، فكانت لخدمة الوطن. وفي عام 2006 كانت الأنظار تتوجّه له إذ كان الصوت اللبنانيّ والشيعيّ الوحيد الذي علا فوق صوت المعركة. وهكذا فقد كان الرئيس برّي مثالاً في صلابة الدبلوماسيّ ودهاء الحكيم وصبر الحليم وجَلَدِ الخبير وإدراك كلّ ما كان يجري حوله في الشرق والغرب، ممّا ساهم بشكل كبير في نزع فتيل القنابل التي كانت تهدّد وحدة الطائفة ومصيرها ومصير الوطن.

على الرّغم من أثر هذه الحركات والدعوات، إلاّ أنّ الكارثة التي وقعت بالشيعة بحجمها وظروفها وأسبابها الداخليّة والخارجيّة، لم تكن ازالة آثارها ونتائجها ممكنة بين ليلة وضحاها، كما لم يكن أمر معالجتها بسيطاً نظرًا لامتداداتها التاريخيّة الواسعة، أضف إلى ذلك أنّ القدر الذي خيّم على الشيعة اللبنانيّين

في موقعهم الجغرافيّ والتاريخيّ، جعل منهم هدفًا اسرائيليًا دائمًا، في الوطن وفي المغتربات، لا تقلّ خطورته عن استهداف الفلسطينيّين أنفسهم، إن لم تكن تجاوزته في كثير من الأحيان والأحداث.

هكذا كانت حياتنا وحياة أهلنا في الجنوب اللبنانيّ، وتلك كانت صورة مختصرة لما وقع علينا من مآس وضنى وقهر. صورة قاتمة سوداء يلفّها الظلام من جميع جوانبها ويحيط بها القلق والخوف، ويغيب عنها الأمل في المستقبل تحت ركام الأبنية المتساقطة، ويموت الحلم وتنطفئ الابتسامة، ولا يبقى من ذكريات عمرنا إلاّ شواهد الرايات السوداء المرفوعة فوق البيوت وقبور الأحبّة.

على الرّغم من كلّ ذلك، لم نهدأ ولم نخضع ولم نستكن، فايماننا بالله كان كبيرًا وكبيرًا جدًا حيث يستعصي على الانكسار مهما قست الأيّام والظروف، وايماننا الراسخ بأنّنا أحفاد ثورة الحسين المعذّب المظلوم كان كفيلاً بمدّنا بالقوّة والصبر والثبات كلّما شعرنا بالضعف واليأس. فإلى جانب الجهاد بالنفس كان الجهاد في سبيل حياة كريمة، وكان هناك فئة أخرى تسلّحت بحب الأرض والأهل، وعضّت على جراحها وأحزانها، حيث كان أهلها يوصلون الليل بالنهار، يكدحون في سبيل لقمة العيش، فانطلقت تجاهد وتغامر وتعارك في عالم الاغتراب، متحمّلة صابرة باذلة العرق والدم، واصلة الليل بالنهار، في عالم غريب مجهول، من أجل تحصيل العلم والرزق وتحسين أوضاعها الاقتصاديّة وتوظيفها لخدمة الأهل في الوطن، في محاولة للتخفيف من وطأة ظروفهم الاجتماعيّة القاسية، ودعم صمودهم ومساعدتهم في تأمين حاجاتهم الحياتيّة والمعيشيّة.

وما زلت أذكر تلك الساعات الحارقة التي كنت أقضيها أمام شاشة التلفاز، بعد أن دخل علينا هذا الجهاز الجهنميّ كما كنّا نطلق عليه في ذلك الزمان، وأنا أتأملّ آثار الكوارث التي تسقط فوق رؤوسنا ومشاهد الدماء والأشلاء لأهلنا وأطفالنا جرّاء القتال والحروب والغارات، وأقارن بينها وبين حياة الناس على الضفّة الأخرى من العالم، وكيف يعيشون ويتعلّمون ويعملون، وكيف يلبسون وأين يسكنون وينامون، وكيف يقضون أيامهم وأوقاتهم، فتتخلخل الأنوار أمام عينيّ، ويفور الغضب في صدري، وتجيش الأحلام في مخيّلتي، فأهبّ واقفًا مستعدًا وكأنّ الحلم أصبح حقيقة، وهدير الطائرة يضجّ في أذنيّ وهي تنتظرني على باب البيت لاصطحابي والاقلاع بي إلى عالم آخر.

كان يحمل إلينا هذا الجهاز العجيب، بالصوت والصورة، مآسي الحرب العبثيّة وأخبار الذين خرجوا من بيوتهم ولم يعودوا إليها بعد أن اختفوا على الحواجز التي تقطّع أوصال الوطن وأبنائه الذين لا ذنب لهم سوى تلك الهويّة المشؤومة التي ولدوا بها. كما كان ينقلنا في غمضة عين وبإدارة مفتاح صغير، إلى دنيا جديدة وآفاق غريبة يوم كانت قرانا محاصرة بالتخلّف ومقطوعة عن جوارها وعاصمتها، وزوّدنا بالأخبار والأحداث الجارية من حولنا عندما كانت أخبار القرى المجاورة وأخبار بيروت وما يجري في وطننا والخارج، تحتاج إلى أسابيع حتّى يتاح لها الدخول إلى ديارنا. كان هذا الجهاز بحقّ، نافذتنا الواسعة التي أطللنا منها إلى ما وراء الحدود، وساهم في مدّنا بالمعارف والمعلومات، ولعب دورًا هامًا في تكوين رؤية جديدة لدينا وخلق روح التغيير في نفوسنا.

كما أسجّل بكلّ الاعتزاز الدور الهام الذي قام به الإمام موسى الصدر وانتشار أفكاره ودعواته بين صفوف الجميع، والشباب بشكل خاص، ما ولّد لدينا شعورًا

عظيمًا باسترداد الكرامة المهدورة والتخلّص من عقد النقص التي تحكّمت بنا على مدى سنوات، فكان زمن الإمام هو زمن العزّ لشيعة لبنان.

وتلازمًا مع عناصر وأدوات التغيير هذه، فقد انتشرت وذاعت في مختلف قرى الجنوب الأفكار التحرريّة والتقدميّة التي حملتها الأحزاب وغزت عقولنا وقلوبنا، فوجدنا فيها سبل الخلاص والفكاك من قيود الاقطاعيّة والطائفيّة والهيمنة السياسيّة التي كانت سببًا في ظلمنا وتأخرّنا وفقرنا.

كانت الثورة هي العنوان الرئيس في كلّ أحوالنا، الثورة على الواقع السياسيّ القائم، والثورة على زعماء الاقطاع والتحكّم، والثورة على الجهل والظلم والتخلّف. وقد استفادت الطائفة من تعدّد الأفكار والأحزاب والحركات، والتحق أغلب أبنائها بحركات التحرير الفلسطينيّة والعالميّة، حيث شهدنا وجود أنصار بيننا للجيش الحمر اليابانيّ وللصين وللروس الشيوعيّين، وانعكست آثار ذلك على أبناء المزارعين الذين استفادوا من المنح الدراسيّة وذهبوا إلى الخارج لمتابعة دراساتهم العليا وإكمال تخصصاتهم في شتّى مجالات العلوم والآداب، كما اكتسبوا إتقان اللغات الأجنبيّة للدول المختلفة التي استقبلتهم، حتّى غدت منطقه الجنوب، بفضل هذه الكوكبة من المتعلّمين المتنوّرين، وأثناء زيارتهم أو بعد عودتهم، معجمًا للكثير من اللغات تسمعها في البيوت وفي الساحات وفي الأندية ومراكز التجمّع، ما خلق تيّارًا ثقافيًا حيويًا في المنطقة كلّها. وبهذا حصل الجنوب من هذه الأحزاب التقدميّة والاشتراكيّة وحتّى من الأحزاب اليمينيّة على زاد علميّ وثقافيّ واسع لم يكن ميسّرًا قبل ذلك، فأثبتت الطائفة الشيعيّة بذلك، أنّها طائفة عابرة للطوائف والأحزاب والدول، وأنّها طائفة غنيّة ومعطاءة وقادرة على التفاعل والتجاوب، كما أكّدت بنجاحات أبنائها وبروزهم

وتضحياتهم، أنّها ليست جزءًا من لبنان فحسب، بل هي جزء أساسيّ من كلّ جزء في الوطن، وأنّها مكوّن رئيس للبلد لا يمكن تجاوزه أو الاستغناء عنه بعد اليوم.

ولا تظنّن أيّها القارئ العزيز، أنّ عناء الشيعة، بفعل هذه التحوّلات والفرص، قد بدأ بالأفول والانحسار، وخصوصًا بعد تكاثر أعداد المغتربين، وبلوغهم أقصى غاياتهم في العلم والغنى والمناصب، إذ كان بانتظار الأهل الصامدين الصابرين في لبنان، وأبنائهم الضاربين في أنحاء الدنيا، عذابات من نوع آخر، ومعاناة من صنف جديد، سوف أعرضها في التالي من الفصول، وأبيّن من خلالها لعنة العذاب التي تلاحق الشيعة اللبنانيّين سواء كانوا في أوطانهم أو في المغتربات، سواء كانوا تحت الاحتلال أو بعد التحرير، سواء كانوا تحت نير الفقر والجهل أو في مرابع الغنى ونور العلم.

-6-

إلى رومانيا...الخطوة الأولى نحو البعاد

بسم الله وعلى بركة الله، وعلى خيرة الله

كلمات ردّدتها آلاف المرّات وأنا أقلّب المواقف قبل اتّخاذ قراري بترك الوطن والانضمام إلى قوافل المهاجرين من الشباب الذين فقدوا الحيلة في تغيير الظروف وتحقيق الأحلام بمستقبل أفضل وأكثر اشراقًا وعدالة، في بلاد ذهب فيها العقل بإجازة طويلة وسيطر الجهل والحقد والموت على كلّ مفاصل الحياة، وبات الأمل فيها غائرًا في أعماق الأرض، وأصبح بقاء الفرد مكسبًا للمجانين الذين احتلّوا زوايا الوطن يعيثون فيها فسادًا، يقتلون من يشاؤون ويعفون عمّن يشاؤون، مرّة باسم الوطن وأخرى باسم الدين وثالثة باسم الطائفة ودائمًا بهدف السلب والنهب والتشبيح.

وقصّتي الشخصيّة مع جهاد الاغتراب، لا تكاد تختلف عن قصص الآلاف بل الملايين من الشباب الذين خاضوا هذه التجربة بكلّ مرارتها وحلاوتها، بعد أن دفع بهم العناء الطويل في الوطن لنقل معركتهم إلى ساحات أخرى، وتبديل أسلحة المواجهة وتغيير خطط الكفاح، للقضاء على الأسباب الرئيسة التي كانت وراء عذاباتهم وعذابات أهلهم، وعلى رأسها الجهل والفقر، في بلاد كان الانتقال فيها من الجنوب إلى العاصمة بيروت يعني للكثيرين الانتقال الأخير من الخوف إلى الموت، حيث إنّ السيّارات المفخّخه والحواجز الطيّارة التي تحصد الأبرياء، كانت متربّصة عند مفارق الطرق، كما كان يعني الانقطاع عن العائله لانعدام توفّر البريد والهاتف وأحيانًا المال اللازم لذلك.

غادرت بلدي عام 1980، ولم أكن أملك شيئًا في لبنان، سوى إيماني بفرج الله وطموحي الذي لا يحدّ والذي كان يأبى عليّ أن أعيش في الوديان عيشة الذليل، ويدفع بي دومًا لصعود الجبال وركوب الخطر. مستلهمًا قول الشاعر العربيّ الكبير "أبو الطيّب المتنبّي":

"إذا غامرت في شرف مروم　　فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير　　كطعم الموت في أمر عظيم."

غادرت وطني مكرهًا بسبب حروب الآخرين على أرضنا، ولم أقتنع بما كان يحصل ويدور آنذاك من حروب بين الأخوة الأشقّاء الأشقياء. فقد كنت مؤمنًا برسالة الكبار والأنقياء والمصلحين، كانت صرخات الإمام الصدر، ونداءات الامام شمس الدين، ودعوات العلاّمة السيد محمّد حسين فضل الله، وغيرهم ممن قادوا تيّار الوعي واليقظة والنهوض بالطائفة الشيعيّة، والقائمة على الصفح والتسامح والاعتدال والتكافل، قد أخذت تؤتي أكلها بيننا، وتولّد فينا شعورًا رافضًا للعنف والاعتداء ونزعة التحكّم والتسلّط على أرواح الآخرين وأرزاقهم. فكانت مواقفي ومواقف الكثيرين من أمثالي الشباب، تشكّل تيّارًا معاكسًا لما كان يدور على أرض الوطن ومن مختلف الأحزاب والجهات والمنظّمات، وترفع صوتها وسط ضجيج المدافع وقرقعة السلاح وأنين الموجوعين، علّها تجد أذنًا صاغية واحدة. لكن مع الأسف الشديد، كانت كلّ هذه الصرخات تذهب هباء في حفلة جنون وحشيّ دمويّ هائل، لم يُترك مكان فيها إلاّ للموتورين وناقلي الموت والدمار إلى كلّ مناطق الوطن المفجوع.

رفضت الدخول في حلبة الصراع العبثيّ، لأنّي كنت مؤمنًا بعمق، أنّ تحقيق العدالة وبناء المجتمعات والقضاء على آفات الجهل والفقر والتخلّف، يجب أن

يتمّ بالعقل والعلم والحوار والتفاهم، إنسجامًا مع مبادئ الأديان السمويّة جميعها التي تحضّ على السلام والوئام والتعاون، وتنبذ التقاتل والتخاصم والحقد والكراهية. فالعنف لا يولّد إلاّ مزيدًا من العنف، والدم يستسقي الدم. ولو طبّقنا مبدأ العين مقابل العين لأصبحنا بلدًا للعميان.

كنت أؤمن تمامًا أنّ ثورة الإمام الحسين عليه أفضل السلام، الكربلائيّة، والتي قادها ضدّ الظلم والحرمان والقهر، جعلت منه أكبر المظلومين في التاريخ، لأنّه رفض أن يهدر دماء المسلمين وفضّل أن يكون الضحيّة على أن يصبح الجلاّد والجزّار والظالم. وهل هناك أروع وأعظم من ثورة الحسين ومدرسته في حقن الدماء، وتكريم النفس التي حرّم الله قتلها إلاّ بالحقّ؟! وهل هناك أكثر طهرًا وشموخًا وكبرياء من موقف الإمام الحسن عليه السلام من تحكيم العقل واعتماد الهدنة ضنًّا بأرواح العباد، في وقت فلت فيه زمام العقل والمنطق؟!...

رفضت البقاء في مثل هذه الأجواء الموتورة والمشحونة بالبغضاء والحقد الأسود، لأنّني كنت أدرك مسؤوليّتي في تغيير واقع أهلي، وكنت واثقًا بأنّني لن أخيّب ظنّهم وأملهم بي.

ورفضت لأنّني كنت أربأ بنفسي أن أحمل السلاح أو أن أرفعه في وجه إخوان لي يقاسمونني العيش والحياة على أرض واحدة.

معركتي لم تكن مع هؤلاء بل كانت مع عدوّ واحد هو الفقر، وسلاحي كان من نوع آخر هو العلم والمعرفة. كنت مقتنعًا أنّ النجاح، لا يمكن أن يتحقّق إلاّ في أرض صالحة وبيئة نظيفة، وأنّ البقاء بين نيران الحرب الأهليّة والتهديدات

الاسرائيليّة اليوميّة لا يورث إلاّ الموت والفشل والمزيد من الفقر والقهر. فشققت طريقي خطوة خطوة، أرسمها بإرادتي وقناعتي وحرّيتي، أنا من حدّد محطّاتها بآمالي وأحلامي، وأنا من ثبّت اتجاهاتها وتفرّعاتها برؤيتي القريبة والبعيدة، ولم أرض أبدًا أن أسير على طريق مفتوح خطّها آخرون، واعتمدوها بناء على ظروفهم وقناعاتهم أو بصورة عشوائيّة، لأنّني لم أكن أعلم إلى أين تؤدّي، وإلى أين تقودني وتحطّ بي الرحال. فأنا لم أقرّر ترك الوطن بدافع الخروج العشوائيّ المرهون إلى الظروف والأحوال، بل عزمت وبادرت بعد دراسة وتخطيط وتفكير، وتوكّلت على ربّ العالمين، وانطلقت.

ودّعنا انا وأخي الأهل والأصدقاء، وكانت أختي قد سبقتنا قبل خمس سنوات، وفي القلوب غصّات حارقة، وفي العيون دموع من جمرات، ولم يكن يخفّف من لوعة هذا الموقف العصيب، إلاّ ذلك الشعور بالاطمئنان الذي كان يخالج الأهل، لأنّ الله منّ عليهم بفرصة ذهبيّة لإبعاد ابنائهم عن أتّون الحرب وقذاراتها وجرائمها، وذلك الأمل الذي يشعّ في نفسي بأن أكسب معركتي وأحقّق النجاح الذي أصبو إليه لأخلّصهم هم أيضًا من هذا الواقع المرير. فارتفعت الأيدي تلوّح بالمناديل الحزينة ولسان الحال يردّد مع الشاعر الرئيس "محمود سامي البارودي":

"فكم مهجة من زفرة الوجد في لظىً وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن

وما كنت جرّبت النوى قبل هذه فلمّا دهتني كدت أقضي من الحزن."

إلى رومانيا في أوروبا، كانت محطّتي الأولى. وصلت بثياب قليلة ودريهمات قليلة وخبرة قليلة وألم كبير كبير. إعتمدت على الله وعلى ما كان يمدّني به

والدي رحمه الله الذي كان بدوره يتحمّل أعباء عائلة تركت البلدة لتنتقل من حاريص إلى داريا ثمّ إلى الضاحيّة الجنوبيّة في بيروت، بسبب الأحداث الجارية في المنطقة.

لا أستطيع ما حييت أن أنسى تلك اللحظات الحائرة والممزوجة بالحزن والأسى والخوف، وبالفرح والأمل والأمان، حين وصولي إلى الجانب الآخر من الدنيا. خيّل إليّ في تلك الأثناء وكأنّني أوّل مغامر يخرج من رحم الأرض الذي يألفه ويعرفه ويطمئنّ إليه، ليسقط على وجه كوكب آخر مليء بالأسرار والمفاوز والألغاز. يا الله، تساءلت مرارًا وأنا أكحّل عينيّ، للمرة الأولى في حياتي، بمشاهد الناس والطبيعة والطرقات والخضرة والجمال وعبق التاريخ الصاعد من الساحات والأبنية والقصور، كيف كان شعور روّاد الفضاء وهم يضعون أقدامهم في تلك اللحظة التاريخيّة على سطح القمر؟!... وتزاحمت الأسئلة في رأسي، وكرّت سبَحة الصور المتلاحقة عن وطني وأهلي وبلادي المحروقة والمدمّرة والمذبوحة بألف سكّين وسكّين، النائمة في جفن الرعب والهلع والموت، والساقطة في أيدي العفاريت ومصّاصي الدماء، بينما الناس هنا ينعمون بالأمن والسكينة، بالماء والكهرباء والمدارس والجامعات والطرقات العريضة المعبّدة، ينامون على وسائد الأمل ويستيقظون على ابتسامات الفرح والسعادة.

مرّت الأيام ثقيلة بطيئة مليئة بالشوق والحنين في بادئ الامر، ثمّ بدأت تبرد حدّتها شيئًا فشيئًا بعد انغماسي في مشاغلي الدراسيّة. كان عليّ أن أنكبّ على تعلّم اللغة الرومانيّة وإتقانها حتّى أتمكّن من متابعة دروسي وأتعامل مع مجتمعي الجديد الذي أقيم فيه، وأدبّر شؤوني الحياتيّة وأحلّ المشكلات التي

تعترضني في التعامل مع الجهات الأكاديميّة والرسميّة، إضافة إلى التكيّف اللازم مع أهل البلد وأصدقاء الدراسة. أمّا أكثر ما كان يؤرّقني فهي عمليّة الاندماج في مجتمع يختلف تمامًا، في نظامه السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، وفي عقليّته وأسلوب تفكيره ونظرته إلى الآخر، كما في عاداته وتقاليده. وكثيرًا ما وقفت معجبًا أمام التغيّرات الطارئة على هذا الشعب والعبر التي استفاد منها، والتي طبعت علاقات الناس ببعضهم وبالنظام، بعد خروجه من حروب طاحنة ودخوله ضمن إيديولوجيّة اشتراكيّة عالميّة، في الوقت الذي كانت فيه بلادنا تخوض تجربة قتاليّة جديدة بين أهلها وطوائفها، دون أن تستخلص عبرة واحدة من كلّ ما جرى من أحداث سابقة.

ومع كلّ هذه المشاغل، لم أنقطع يومًا واحدًا عن متابعة الأخبار في وطني لبنان، والاطمئنان على الأهل والعائلة، وخصوصًا بعد أن اشتدّ أوار الحرب الأهليّة الدائرة هناك، وتفاقمت الاعتداءات الاسرائيليّة إلى حدّ اجتياح واحتلال الجنوب والبقاع والوصول إلى العاصمة بيروت. وكثيرًا ما كنت مع بعض الأصدقاء نسرع إلى قطع مسافات بعيدة من أجل أن نلتقي أحد القادمين الجدد من لبنان، علّنا نطفئ حرقتنا برائحة البلاد ونستمع منه إلى أخبار الأهل.

أتيح لي وأنا على مقاعد الجامعة، أن أتعرّف على بعض اللبنانيّين والعرب الذين قدموا إلى رومانيا لأهداف دراسيّة أو غير دراسيّة، وربطت بيننا علاقات صداقة وودّ خففت من وطأة الغربة على نفوسنا، كما ساعدت لقاءاتنا المتكرّرة على التداول في شؤون الوطن وشجونه.

وسمحت إقامتي في هذا البلد الطيّب بأهله وكرمهم ودماثة أخلاقهم، والأصيل في احتضانه للغرباء الوافدين إليه من أمثالنا، بإقامة علاقات حميمة عميقة مع

أساتذتنا وزملائنا في الدراسة وكثير من الشخصيّات التي كان لها موقعها في مختلف المجالات، ما أشعرنا بأنّنا أصبحنا من أبناء رومانيا، نعيش في بلد يحترمنا ويحمينا ويوفّر لنا التعليم دون تمييز. وقد توصّل العلماء الى تعريف الذكاء بأنّه القدرة على التكّيف والتعامل مع كل الظروف.

لم يسألنا أحد عن ديننا وعن معتقداتنا وأفكارنا، ولم يكن إنتماؤنا الدينيّ أبدًا مدخلاً لاقامة علاقة أو رفضها. كنّا نشعر بحريّة تامّة تحت سقف القوانين المطبقّة على الجميع دون استثناء ولا محاباة. ولكن بلى، وللحقيقة كان جواز سفرنا اللبنانيّ، في تلك الأثناء تهمة جاهزة لحامله. فالأنباء التي تنقلها وسائل الاعلام اليوميّة في العالم كلّه، وصور المعارك والمجازر التي يرتكبها اللبنانيّون بحقّ بعضهم، ومشاهد القتال العنيف من شارع إلى شارع، والدمار والخراب اللذين يعميان الأبصار ويدميان القلوب، والسلطة غير الشرعيّة في زمن الحرب التي هيمنت على مطار بيروت الدوليّ وعلى مختلف منافذ الحدود البرّيّة والبحريّة، وتصوير لبنان بأنّه بلد منتج ومصدّر للجريمة والمخدّرات، كلّ ذلك كان يثير استنكار الناس والحكومات واشمئزازهم واستغرابهم، وكثيرًا ما كانوا يسألوننا ويتساءلون بحضورنا عن هذه الممارسات الوحشيّة التي يقوم بها شعب لبنان وزعماؤه وسياسيّوه. فلهذا أصبح جواز سفرنا اللبنانيّ موضع شكّ وريبة لدى الدوائر الرسميّة ومنافذ الحدود. فما أن يعرف أحدهم أنّك لبنانيّ حتّى يبادر فورًا إلى تشديد اجراءات الاستجواب والتفتيش والتدقيق وحتّى التحقيق لساعات قبل السماح لك بالعبور. وأصبح اللبنانيّ الطامح في السفر أو مغادرة لبنان، أمام مشكلة كبيرة في الحصول على تأشيرة دخول إلى إحدى الدول الأوروبيّة أو الأميركيّة. كما أنّ الجواز اللبنانيّ كان يعني آنذاك اللجوء في هذه الدول كما يعني البقاء في إفريقيا مثلاً. وهنا لا بدّ أن نذكر الفضل

لبعض وجهاء الجالية اللبنانيّة الذين مدّوا علاقات شخصيّة مع الجهات المختصّة في مختلف البلاد الافريقيّة التي تكاثر فيها اللبنانيّون، واستطاعوا من خلال هذه العلاقات، التي لا تعلم الدولة اللبنانيّة عنها شيئًا، أن يساعدوا أبناء الجالية في الوصول إلى مجاهل إفريقيا وأن ينطلقوا ويكملوا السلسلة التي طالت وأصبحت تضمّ كلّ مناطق وقرى ودساكر لبنان.

لم أدع أيّ شيء في رومانيا يؤثّر على هدفي الرئيس الذي رسمته لحظة خروجي من لبنان، ولم أترك ثانية دون أن أستفيد منها في دراستي أو اطّلاعي أو بناء حياتي الاجتماعيّة من جديد. وقد اكتشفت في رومانيا وبتأثير احتكاكي بمختلف الفئات، مدى حاجتي، بل حاجة جميع الشباب في بلادنا العربيّة عمومًا، إلى دورات تدريبيّة عمليّة مستمرّة، في مخالطة الشعوب والتعرّف على لغتها وثقافتها وعاداتها، والدخول عن قرب إلى عالمها وأسلوب حياتها ومبادئ تربيتها، كي نكتسب الكثير ممّا نفتقده في بلادنا من معان وقيم ومثل، تعوّدنا أن ننادي بها ليل نهار، ونرفعها شعارات ودعوات دينيّة واجتماعيّة وأخلاقيّة، لكنّها مع الأسف الشديد بقيت بعيدة جدًّا عن واقع أعمالنا وتصرّفاتنا وعلاقاتنا وممارساتنا العامّة. فالصدق عند هذه الشعوب هو الصدق الحقيقيّ الذي خنقناه نحن من كثرة ادّعائنا بامتلاكه كذبًا في أقوالنا وأفعالنا، والوفاء عندهم والحريّة، والاخلاص في العمل واحترام الآخر بحضوره الانسانيّ ورأيه وتفكيره ومعتقده، والصراحة التامّة دون رياء ولا خجل ولا تصنّع، كلّ هذه الخصال الرفيعة التي نتهمّ الشعوب الغربيّة بفقدانها ونتباهى باحتكارها، هي بالحقيقة من طبائع هذه الشعوب، إكتسبتها بالتربية والمدارس والشارع والعمل، وجعلتني أراجع نفسي طويلاً في إطلاق الأحكام المؤطّرة سابقًا على الآخرين. ولا أذهب بما أقول إلى حدّ الزعم أنّ الجنّة الموعودة هي عند الغربيّين، أو أنّ المدينة الفاضلة هي من

صنعهم وإنتاجهم، فعندهم من المثالب والأخطاء والظواهر والمآسي الاجتماعيّة الكثير الكثير، ولكنّني أردت أن أسلّط الضوء على قيمة الانسان الخاصّة في هذه البلاد، وآليّة النظام العام المطبّق من أجل احترام هذه القيمة وتأمين حقوقها بعدل ومساواة. وهذا ما لمسته، ليس من خلال اقامتي الدراسيّة في رومانيا فقط، بل من تجربتي الواسعة والممتدة إلى قارّات العالم الأخرى، والتي استغرقت أكثر من ربع قرن من حياتي. وحبذا يتوقّف المنظّرون عندنا والمتسلّقون على حبال الشأن العام، والقابضون على زمام السلطة، والدعاة الصارخون في بيوت الله، عن كيل اللعنات وتوجيه الاتّهامات إلى هذه الشعوب، بحجج لم تعد خافية على أحد، والتمييز بين الأنظمة السياسيّة ومصالح الدول الكبرى وبين شعوبها وأفرادها.

إنّ عشرين سنة من الديموقراطيّة أعطت أكلها في تلك البلاد، وانتقل الشعب الرومانيّ من مرحلة خانقة إلى أجواء الحرّيّة الرحبة، وظهرت الأحزاب التي راحت تتداول السلطة بأمان وسلام، وأصبحت رومانيا جزءًا من الاتحاد الأوروبيّ، في الوقت الذي عدنا فيه نحن إلى شعوب وقبائل نتناحر ونتقاتل ليكون أكرمنا في هذا الوطن أقوانا وأكثرنا وحشيّة وجاهليّة وطغيانًا.

عكفت بجديّة ومثابرة على إنجاز المهمّة التي وضعتها نصب عينيّ، يحدوني دافع ذاتيّ أتحدّى به نفسي وأثبت إرادتي وقدرتي على تحقيق النجاح والتغيير، وعامل أسريّ اجتماعيّ، أؤكد فيه لأهلي بأنّني كنت عند موضع ثقتهم بي وعند معقد آمالهم ومحطّ فخرهم واعتزازهم، وأشقّ بذلك طريقًا لبقيّة إخواني كي ينالوا هم أيضًا الفرصة التي أتيحت لي ويستفيدوا من تجربتي، ولكن هذه المرّة بمساهمتي ومساعدتي المتوجّبة عليّ كما تلقّيتها أنا من أسرتي. فأكملت بتوفيق

من الله وبفضل رضاه ودعاء الوالدين، تعليمي بتفوق مشرّف وتخرّجت طبيبًا كما كنت أحلم وكما كان يطمح أبواي ليعلنوا أمام القريب والبعيد، أنّ أبناء الطبقة المحرومة، لا يقلّون ذكاءً وقدرة عن الآخرين، وأنّ بامكانهم تحقيق المعجزات، بفضل المثابرة والصبر، على الرغم من إنعدام الامكانات وإقفال الأبواب في وجوههم.

كانت التجربة التي خضتها في رومانيا، مغامرة غنيّة بالخبرة والمعرفة، مليئة بالأحداث والمفاجآت التي غيّرت مسار حياتي وحياة إخوتي وعائلتي، وأحدثت نقلة نوعيّة في مصيرنا، أخذتنا جميعًا من ضفة الخوف والبؤس إلى ضفاف عامرة بنعم الله عزّ وجلّ وبالنجاح والتألّق في مختلف المستويات. وسوف يتمّ إستثمارها بعد ذلك، بعلاقات تجاريّة هامّة فتحت أمامي أبوابًا ما كنت أحلم بها في حياتي.

إلى إفريقيا...المحطة الثانية

من العاصمة الرومانيّة بوخارست، أطلق قطار الغربة صفّارته وانطلق بي بعد أن حجزت لنفسي مقعدًا دائمًا فيه، أتنقّل وأجول في جميع الاتّجاهات، بعيدًا عن مسقط رأسي في لبنان الذي كان ينزف ويئنّ ويتآكل في جحيم الحروب الداخليّة والخارجيّة، ويرمي بشبابه وأهله، من جميع الطوائف والتيّارات والأطراف السياسيّة إلى ما وراء الحدود. حتّى تحوّل هذا الوطن الصغير، الذي قيل عنه إنّه درّة الشرق وسويسرا الشرق ونعمة السماء بموقعه ومناخه وجمالاته ونبوغ بنيه، إلى ميادين قتال وساحات مجازر، وموئل لكلّ السفّاحين وتجّار الحروب في العالم، ومسكن للغربان والجثث، بعد أن قتل مئات الآلاف من سكانه وشرّد وهاجر أضعاف أضعاف الموتى، وأوشك أن يصبح لعنة العرب ولعنة العالم. ألم ينبّه الإمام الكبير المغيّب موسى الصدر أهل لبنان وزعماءه مرّات ومرّات كي يحافظوا على وطنهم "قبل أن يجدوه في مزبلة التاريخ"؟

ما كان أحوجنا، في تلك السنوات العجاف التي غاب فيها العقل والضمير وتحكّمت الغرائز والنزوات والأطماع، فغيّبت معها أجمل أيام العمر، إلى قامات كبار من أمثال القائد الصدر، ليقبض بيديه على الجمر فيطفئه، وينفخ من قلبه على الحقد فينزعه، ويصرخ من محبته وتسامحه فيقطع الأيدي الآثمة. ما أروعه حين قال: "ليس في العالم شعب صغير وشعب كبير، بل شعب يريد الحياة وشعب لا يريدها"، ويبدو أنّ من عملوا على قتلنا وتشريدنا وتهجيرنا، إنّما كانوا من فصيلة هؤلاء الذين كرهوا الحياة التي وهبها العليّ القدير،

فأعدموها وحرموا الطيّبين الآمنين منها، وجعلوا الوطن صغيرًا حقًا بجرائمهم التي تفوق الأوصاف.

توقّف بي القطار هذه المرّة في إفريقيا، نعم في القارّة العجوز السوداء، قارة الشقاء والبؤس والمرض، لأستأنف جولتي الجهاديّة الثانية في الحياة، كما يؤثر عن رسولنا العربيّ الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، قوله بعد غزوة من غزواته: "عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ." وهو مجاهدة النفس وتهذيبها في العلم والعمل من أجل طاعة الله والشروع في البناء والتنمية وخدمة المجتمع. وللجهاد الأكبر في ما أذهب إليه، هو المفهوم الحقيقيّ للجهاد، والذي عن طريقه، بالرأي السديد والفكر المنفتح والمعرفة الواسعة والكلمة الطيّبة السواء والإخلاص في القول والعمل، يمكن أن نبعد شبح القتال وننزع فتيل الحروب والنزاعات المسلّحة، ونبدأ بناء الذات وتأهيل المجتمع والتأسيس للمستقبل.

إفريقيا الشقاء والظلم والضنى. إفريقيا القهوه التي نستمتع باحتسائها كلّ صباح، ونكرّم بها ضيوفنا، ونجتمع حولها في جلسات المؤانسة، من غير أن نسأل يومًا عن كميّة الدموع والدماء المجبولة بكلّ حبّة من حبّاتها، وعن معاناة مئات الآلاف من أطفال إفريقيا الذين يساقون سوق العبيد لجمع حبيبات الشقاء، التي يباع الكيلوغرام الواحد منها بسعر أدنى من أرخص فنجان قهوه في العالم الحرّ.

إفريقيا التي تُستعمل أحدث التقنيات لسرقة خيراتها، حيث إنّه، وعلى بعد ثلاث ساعات من جوهانسبورغ، وتحديدًا على أطراف مدينة صن سيتي "مدينة الشمس"، تغيب الشمس كلّ صباح عن حياة سبعة وعشرين ألف معذّب،

يعملون على مساحه 22 كيلومترًا مربّعًا في التنقيب عن كلّ ما هو ثمين، تحت حراره لاذعة تشوي الوجوه والأجساد، عندما يصل المصعد على عمق 1000 متر تحت سطح الأرض، وهناك تبدأ رحله العذاب داخل كيلومترات من السراديب السوداء التى لا يتعدى إرتفاعها نصف المتر في أغلب الأحيان، يغيب فيها الأشقياء عن عالم الأحياء لثماني ساعات متواصلة دون توقف، لا يسمح لهم خلالها إلاّ بشرب الماء.

فهلاّ يعلم الذين يتزيّنون ويتبرّجون بالمجوهرات، ويكتنزون الذهب والماس والأحجار الكريمة، كم من الضحايا والمشوّهين والمعوّقين سقطوا ثمنًا لرفاهيّتهم؟ أم أنّ الإنسان يستمتع بشقاء أخيه الإنسان؟...

إفريقيا القارّة التي ما زالت منذ آلاف السنين، وأمام عيون العالم "الحرّ الحديث"، تعرض بمآسيها الانسانيّة ظلم الإنسان الأبيض المستبدّ المستعمر، الذي نهب خيرات البلاد واستعبد أهلها وحوّلهم بطغيانه ودسائسه إلى قطعان محنيّة الرؤوس أو ثيران تصارع بعضها بعضًا.

قد تجدون الفكرة غريبة لاختياري دولة إفريقيّة من دول العالم بعد الثالث.

إخترت إفريقيا، على الرّغم من كلّ ويلاتها ومصائبها، إبتداء بمناخها الاستوائيّ الصعب، ومرورًا بتخلّفها وفقرها وانعدام مقوّمات الحياة الأساسيّة فيها، وانتهاء بأمراضها المتفشيّة القاتلة، وأوضاعها السياسيّة المتردّية وغير المستقرّة، وهجمات أبنائها "الثوّار"، الذين يهبّون بين الفترة والأخرى، ليقوموا بأعمال السلب والنهب والقتل تحت شعارات وحجج ومسمّيات مختلفة.

قصص العذاب الافريقيّ لا تكاد تتوقّف عنها الألسنة والدموع، ولا تكاد تخلو منها صفحة واحدة من روزنامة الزمن اللبنانيّ في هذه القارّة الشقيّة. أيام إفريقيا مليئة بالألم والمرض والأسى، والعائلات اللبنانيّة الشيعيّة المنتشرة في أيّ دولة من دولها الساحليّة أو الداخليّة، ذاخرة ذاكرتها بالأحداث التي تفتّت الأكباد. فليس من عائلة هناك لم تدفع من أحد رجالها أو نسائها أو شبابها ثمنًا لهذه الغربة، كان ضحيّة مرض أو حادث عمل أو سرقة أو اعتداء. لا يظنّن من يسمع أخبار الغنى عند الاغتراب الافريقيّ، أنّ "الفرنك" كان يسقط في جيوبهم وهم نيام. كانت لقمتهم جميعًا مغمّسة بالدم، وكانت حياتهم محفوفة بشتّى أنواع المخاطر والمهالك، وكانت أيّامهم وأيّام أسرهم وأبنائهم محاطة بالخوف والرعب. وإذا كتب لبعضهم النجاح وبدأ بجني ثمار تعبه وضناه، فاجأته، وكثيرًا ما أصبحت هذه المفاجآت عادة لكثرة تكرارها سنة بعد أخرى، هجمات الثوّار والمتمرّدين والغاضبين، الذين يخرجون قبل طلائع الفجر، مدجّجين بأنواع الأسلحة والقنابل، يغيرون على المحالّ والبيوت والمؤسّسات، يعملون فيها نهباً وسلبًا وإحراقاً، يزرعون الخوف والرعب في الأجواء، على مدى أيام وأشهر، وينال منها اللبنانيّون بشكل خاصّ، نصيبهم الأوفر من الاعتداءات والخسائر في الأرواح والممتلكات. وبإمكان أيّ باحث أو محقّق أن يضع إصبعه على أيّ بلد في الخارطة الافريقيّة دون استثناء، ويراجع ما تحفظه الوثائق والكتب والمحفوظات، ليقع على أحداث ومآسٍ وكوارث تفوق بأحجامها وأرقامها كلّ المعقول. فما من بلد إفريقيّ، من غينيا إلى سيراليون إلى الغابون إلى نيجيريا إلى الكاميرون إلى الكونغو الى ساحل العاج، يخلو من قصص عذاب الشيعة اللبنانيّين وتعرّضهم للقتل والنهب والاعتداءات، وكأنهم مكسر العصا. لقد شكّلت الغربة والبعوض واللصوص ومحاربة الجالية لأسباب سياسيّة أو بهدف الابتزاز والاستهتار بالانجازات والغدر من خلال المشاريع

الوهميّة المتخفيّة بعباءة دينيّة، أفخاخًا أصابت في كثير من الأحيان مقتلاً من مغتربي إفريقيا، كما في كلّ مرّة تقوم فيها ثائرة المعارضين للحكم أو الخارجين عليه. وأصبحت حياة وأملاك وبيوت ومتاجر اللبنانيّين هدفًا دائمًا ومتكرّرًا كلّ بضع سنوات. ومن أحدث حلقات مسلسل استهداف اللبنانيين ما جرى مؤخّرًا، في الغابون، (آب 2009)، حيث هاجم المعارضون للانتخابات الرئاسيّة هناك، بيوت الجالية اللبنانيّة ومحلاّتهم ومؤسّساتهم، وأعملوا فيها الحرق والنهب والتحطيم، وروّعوا الأطفال والنساء، على مدى عدّة أيّام. وكذلك ما جرى في سيراليون حيث تعرّض بعض الشيعة إلى تهم المساءلة والابعاد بسبب إنتماءاتهم الحزبيّة وتأييدهم لـ"حزب " في لبنان وجمع التبرعات الماليّة له.

والأنكى من هذا كلّه، أنّ ما يسمّى بأجهزة الدولة اللبنانيّة ومؤسّساتها الرسميّة، على الرّغم من اعترافها الكامل بأنّ الاغتراب اللبنانيّ في إفريقيا كان له الدور الأبرز في إنماء لبنان تجاريًا وصناعيًا واجتماعيًا، إلاّ أنّها كانت تكتفي، أمام هذه الأحداث، بنشر البيانات المطمئنة عن أوضاع اللبنانيّين، وتحصي ضحاياهم، وتطلب من الدول الشقيقة والصديقة مساعدة اللبنانيّين للاجلاء مع رعاياها، أو بترك الأمر في عهدة المؤسّسات الجاليويّة في المناطق القريبة الأخرى لتدبّر أمر الأطفال والنساء والمسنيّن المحاصرين بالرعب والموت.

مع كلّ هذه المخاطر والمخاوف اخترت إفريقيا، ألم أحدّثك قبل ذلك بأنني أهوى تسلّق الجبال وارتقاء القمم وركوب الصعاب؟!...

والحقيقة، أنّني اعتبرت إفريقيا مختبري الأوّل في الحياة العمليّة، ومجالي المناسب لتحقيق طموحي في الكفاح والوقوف في وجه الظلم والفقر. هل كنت أنتقم من الماضي في ساحة أخرى لا تجري فيها الدماء ولا تهدم البيوت كما

يجري في وطني؟ وهل اخترت أن أحقّق النجاح في معركتي في أرض قاسية وبين شعب مسكين يستحقّ العون والجهد؟ ربّما كان ذلك صحيحًا، لكنّ الصحيح أيضًا، أنّني كنت على قناعة للقيام بهذا الواجب وإلقاء حجري في أرض تمكّن الكثيرون قبلي من تحقيق آمالهم وطموحاتهم فيها.

إفتتحت عيادة لطبّ الأسنان في العاصمة، وباشرت مهمّتي في وسط كان أكبر همّه أن يحظى بلقمة العيش التي تحفظ حياته، وليس في أن يهتمّ بصحّة أسنانه ولثته. شاهدت هناك العجب العجاب، وعاينت حالات مرضيّة لا يمكن أن تخطر على بال بشر. فمن أين تأتي صحّة الفم والمعدة والجسم لشعب يلتقط من الغذاء أقلّه كمًّا ونوعًا وجودة، ومن الماء الآسن ما لا يمكن أن تقدم عليه نفس سويّة، ومن النوم في أكواخ الصفيح المثقوب أو على قارعات الطرق تحت أشعة شمس لاهبة ما لا يطاق، ومن الضنى والشقاء في حمل الأثقال على رؤوس النساء وأطفالهنّ مكوّمين في صرّة خلف ظهورهن، وهنّ يصعدن وينزلن في أحياء المدينة يبعن بعض الخضار والفواكه والأسماك ما يهدّ ظهور الجمال. فلا الطعام متوفّر أو صحيّ، ولا الماء صالح للشرب والطهي والتطهير، ولا المساكن الانسانيّة موجودة، ولا المدارس ولا الكهرباء ولا الطرقات، ولا المستشفيات ولا الأطباء، وفوق هذا كلّه مجموعة من الأوبئة والأمراض المتفشيّة التي تحصد الآلاف من أرواح الكبار والصغار، من الملاريا المستوطنة إلى الإيدز المتنقّل، وبينهما آلاف العاهات والتشوّهات.

ولم يكن حال أفراد الجالية بأفضل من ذلك، فقد كانوا هم أيضًا مشغولين ببناء أنفسهم وتأسيس حياتهم في بلاد جديدة، ولا يكترثون كثيرًا لصحة أسنانهم، بانتظار أن يصفع الألم وجوههم فيأتون إلى الطبيب مرغمين.

كان عليّ إزاء هذا الواقع الأليم، أن أوزّع جهدي وخدماتي الطبيّة بين مهمات عدّة. بين صحيّ واجتماعيّ وتنمويّ، علّني أفلح في التخفيف من آلام الناس. وأشكر الله العليّ القدير الذي منحني قوّة التحمّل والصبر وأعانني في هذه المسؤوليّة الجسيمة، التي تكلّلت بنجاح كبير، إمتدّت لعدّة سنوات، شعرت خلالها بسعادة ما بعدها سعادة وقطفت فيها ثمارًا من محبّة الناس والمسؤولين ما لا يقدّر بثمن، كما تمكّنت بفضلها من تكوين علاقات متينة مع مختلف الجهات هيّأت لي بواكير الثروة التي ضاعفتها في ما بعد من خلال أعمالي التجاريّة والصناعيّة المتنوّعة.

وفي خضمّ هذه المعمعة الصعبة من الكفاح والجهاد، لم تغب صورة وطني يومًا عن بالي، وكثيرًا ما كنت ألمح وجوه أهلي وأبناء بلدي تتبدّى أمامي في ما كنت أقوم به من علاج وخدمات لأطفال وأمهات ورجال، عضّ عليهم الزمان، وكنت أرى ذلك واضحًا كلّ صباح جمعة على مدار السنة، حيث كنت أقدّم خدماتي مجّانًا لوجه الله، كما يعضّ على أهلنا في لبنان . وأكثر ما كان يقلقني تلك الأخبار الوافدة إلينا يومًا بعد يوم من قوافل المهاجرين إلى إفريقيا من أبناء الجنوب خصوصًا، الهاربين من أسنان الموت ورعب القصف الذي كانت وتيرته في تصاعد مخيف.

ولشدّ ما آلمني، في إفريقيا، بعض أولئك المعمّمين بعمامة الدين، أصحاب شركات التاكسي والعمارات والعقارات المسجّلة بأسماء إخوتهم وأصهرتهم، والذين كانوا يمدّدون يوم عاشوراء ولا يقتلون الإمام الحسين عليه السلام، حتى تمتلئ السلال بالأموال المستعملة في عيد الطائفة، والمنقولة بأسماء شخصيّات نيابة عن الخالق عزّ وجلّ. وأولئك الرائجين في جميع الأنحاء والاتّجاهات،

ينفخون في الناس ويزمجرون، داعين إيّاهم إلى الإيمان والعمل على مساعدة العائلات اللبنانيّة المنكوبة، فيجمعون الأموال والتبرّعات والعطايا من المحسنين المغتربين ويخطفونها إلى ديار أخرى يستثمرونها لحسابهم ومنافعهم. إلى جانب شلّة من المنتفعين من أوباش الحرب في لبنان، الذين قتلوا ونهبوا وعاثوا في الأرض فسادًا، وحين نضبت المصادر وانكشفت صغائر أعمالهم، حملوا قذاراتهم إلى بلاد الاغتراب ونقلوا مهمّتهم في التعامل والعمالة للمخابرات المختلفة في بلدهم إلى التعامل مع السلطات في الدول الإفريقيّة أو الأوروبيّة ضدّ أبناء بلدهم وطائفتهم، وراحوا يمارسون شتّى أنواع الابتزاز عليهم وخصوصًا الناجحين المعروفين، بغية تحصيل ما أمكن من الأموال والعطايا. وكثيرًا ما كنّا نلجأ إلى السلطات المحليّة للتخلّص من هؤلاء وطردهم خارج البلاد. وعلى الرّغم من محاولاتنا للحيلولة دون تحقيق غاياتهم الدنيئة إلاّ أنّهم سبّبوا الأذى للكثيرين وللوطن معًا.

بعد أن وفّقني الله بجمع ثروة مقبولة في إفريقيا، تمكّنني من الانطلاق في مشاريع إستثماريّة أخرى، وبعد أن أرهقتني المهام التي تحمّلتها هناك، وانتابني القلق على تعليم إبني واستقرار عائلتي، قرّرت المغادرة، والعودة إلى رومانيا مرّة أخرى، حيث أتممت هناك الكثير من المشروعات التجاريّة ، كما أقمت مجموعة من الأعمال الاستثماريّة أيضًا في إلمانيا وبعض الدول الأوروبيّة الأخرى، كما في كندا، حيث وبحمد الله ونعمه، جمعت ثروة طائلة وضعت قسمًا كبيرًا منها في خدمة المجتمع وأهلي. ولم ينقض العام الخامس عشر على هجرتي، أي في العام 1995، وكانت الحرب اللبنانيّة آنذاك قد وضعت أوزارها قبل خمس سنوات عندما تمّ التوقيع على وثيقة الطائف من قبل الفئات والأحزاب المتنازعة، حتّى كنت أحمل جنسيّة أوروبيّة وأخرى كنديّة حيث أستقرّ

مع عائلتي حتّى الآن، وأمتلك أربعة بيوت في أربع عواصم من العالم: في بيروت عاصمتي التي أعشق، وفي بون – إلمانيا، وفي بوخارست – رومانيا، وفي أوتاوا – كندا. وأحنّ باستمرار، وأسرتي وأهلي إلى كلّ بيت من هذه البيوت، التي تحتضن بين جدرانها كمًّا من الذكريات الحميمة واللقاءات الأسريّة والاجتماعيّة الغالية. فلذا ترانا نقتسم العام الواحد كالطيور المهاجرة، بين العواصم الأربع، نقضي في كلّ منها أشهرًا معدودات مع أحبابنا وأصدقائنا في لبنان والعالم.

وطوال هذه الرحلة المليئة بالأحداث، لم أتوان لحظة عن تقديم المساعدات الماليّة والعينيّة لمختلف الجمعيّات والمؤسّسات، ولم أنس من تركت ورائي، فمددت يد العون إلى مختلف الهيئات الخيريّة ودور الأيتام والمعوزين، وساهمت في تأسيس المراكز لأبناء طائفتي في الدول التي أقمت وعملت فيها، بهدف تأمين المكان المناسب لتلاقيهم وإحياء مناسباتهم وتمتين العلاقات في ما بينهم، كما ساهمت بشتّى الوسائل في مساعدة وإنهاض التجمّعات الجاليويّة في المهجر، وكنت سبّاقًا للمشاركة ودعم وتشجيع أغلب النشاطات والاحتفالات الوطنيّة والاجتماعيّة والدينيّة التي تحييها جالياتنا العربيّة، لما أرى فيها من أثر فاعل في ربط المهاجر بوطنه وعاداته وتقاليده. ولم تقف مساهماتي عند هذه الحدود، إذ لم أتأخّر مرّة عن القيام بواجبي في تقديم التبرّعات والمساعدات للجمعيّات الخيريّة والمراكز الأخرى دون تمييز بين دين أو عرق أو لون طالما أنّها في خدمة الانسان وتعزيز وجوده وكرامته.

أمّا على الصعيد الوطنيّ اللبنانيّ، فقد حرصت ما استطعت، في جميع الدول التي أقمت فيها، على إحياء المناسبات الوطنيّة الجليلة التي نعتزّ بها ونفخر،

وعلى رفع علم بلادي الواحد دون غيره من الأعلام في الآفاق وإطلاق نشيدنا الوطنيّ عندما كان العلم والنشيد موضعًا للنزاع على أرض الوطن. وحظيت والحمد لله بالكثير ممّا أفخر به من رسائل الشكر وكتب التكريم وشهادات التقدير من مختلف الجهات الدينيّة والدبلوماسيّة والحكوميّة. إضافة إلى تفاعلي العميق مع الحياة السياسيّة والبلديّة في الدول التي إستقبلتني وفتحت لي ولأسرتي ذراعيها بكلّ احترام ومحبّة، ومساهماتي البارزة وعلاقاتي الواسعة مع مختلف الطبقات والأحزاب السياسيّة والشخصيّات المسؤولة فيها، وإلى العديد من المقابلات واللقاءات والمقالات الصحافيّة التي عرضت فيها أفكاري ومسيرة نجاحي ومعاناتي الطويلة خلال ذلك.

ومع جميع هذه الانجازات التي حققتها بجهدي وعرقي وسهري، فإنّ ما كان يثير دهشتي واستغراب الكثيرين من أمثالي الناجحين البارزين في عالم الاغتراب، رؤية جماعة الانتهازيّين الوصوليّين والأزلام، وهم يقفزون فوق أكتافنا ورؤوسنا، ليحتلّوا المراكز باسم الله وباسم الأحزاب بكل جرأة وصفاقة، ويتصدّروا الساحات والصفوف، على غرار ما تعودوا عليه من نهش لحم اخوانهم في وطنهم. ولكن كان ذكر الله يكفينا ، ورجائنا له كان يحمينا ويحمي عائلاتنا ويعزّينا . أمّا الآخرون العاجزون عن البناء، المغطّون فشلهم وجهلهم بصراخهم وزعيقهم الفارغ كذبابة "لافونتين"، فحسبنا الله ونعم الوكيل منهم . ولا ضير أحيانًا من أن تبني لك قصرًا، تحوم حوله جُعَلٌ ، وتعشّش في بعض زواياه طيور صغيرة لتأخذه سكنًا دون علمك أو إذنك، تطرب لصوتها على رتابته حينًا ويزعجك أحيانًا ولِمَ لا؟! وهذه مشيئة الله في خلقه وسنّته في كونه. أنا في مكاني ثابت ومكين، أمين عليه قمين به، وهؤلاء أرتال تعجّ بهم الصفوف، وتتدافعهم الأرجل. هم قابعون حيث شاءت لهم الأقدار ومن ذا الذي

يصارع قدره! «يجمعون المال ويعيشون عيشه الجمال ، وأنا شاكر الإله على ما فاء به عليّ من نعمه، وأسبغ من كرمه وهذا وأيم الله قدري الذي خصّني به مقسّم الأرزاق فإن رأيت نصف الكأس المليء، وشخصت ببصري عن آخره الفارغ، فما ذنبي في من يراها نصف فارغة، ولا يرى ما يوجب الحمد والشكر بها ! وما أروع شاعرنا اللبنانيّ الخالد "بشارة الخوري (الأخطل الصغير)، حينما يوجز ذلك في قول بديع سبكه في بيتين في قصيدة رائعة له:

"فالصّوت موهبة السماء فطائر يشدو على غصن وآخر ينعب

يا هند إنّي كالهزار فإن يكن هو مذنب فأنا كذلك مذنب."

ولأنّ شاني وديدبي الآ ألعن الظلام، بل ربّما أسرّ به لأنّه يتيح لي أن أضيء شمعة تهزأ بديجوره، وتبدّد ظلامه كي يلتمس بنورها ضالّ الطريق، ويهتدي بفعلي إنسان تعثّرت خطاه ويرقب الفرَج بعد أن سدّت بوجهه الدروب والمسارات.

وهنا أهيب بإخوتي الناجحين الذين نقلهم الله من الظلمات الى النور ، والذين صعدوا سلّم المجد وسدّة الاحترام والتقدير ، كأشخاص فاعلين في دنيا الاغتراب، ولاقوا ما تلاقيه الشجرة المثمرة في بلاد الحرف ومهد الرسالات، وعانوا من الفاشلين والموتورين ان يسمعوا ما قاله الشاعر:

"وانّه المشير عليك فيّ بضِلّة فالحُرّ مُمتحن بأبناء الزّنى."

وهذا شاعرنا "البارودي" مرّة ثانية يهيب بنا ألاّ نعير بالاً لهؤلاء الذين يعاتبون المولى في ما قسم، ويذكّرنا بأنّهم أعداء ذوي الفضل والنعمة منذ الأزل:

"لا تقبلِي العذل في مثلي فكلّ فتًى   حرّ الشّمائل محسود على الفطنِ

والنّاس أعداء أهل الفضل مذ خلقوا   من عهد آدم سبّاقون في الإحَنِ."

أمّا فصل الخطاب، فلا أروع ممّا قاله "أبو الطيّب" في هذه الصدد:

"وما لكلام النّاس فيما يريبني   أصول ولا لقائليه أصولُ

سوى وجع الحسّاد داو فإنّه   إذا حلّ في قلب فليس يزولُ."

أو قول شاعر:

"ما يضير البحر أضحى زاخرا   إن رمى فيه سفيه بحجر."

وكنت قد دوّنت قصة حياتي بأسلوب أدبيّ، نشرتها في كتاب بعنوان (ظلال أفكاري) 2007، لكي تعطي الأمل للذين واجهتهم الصعاب، فظنّوا أنّ النجاح مستحيل في حياتهم، وعرضت لهم كيف يصبح المستحيل واقعًا ملموسًا بقوّة الله والتوكّل عليه، ودعوتهم ألاّ ينكصوا على أعقابهم وألاّ يتوقّفوا عن متابعة السير لأن السير يصنع الطريق، كما أكّدت فيه ما قاله الفيلسوف اليونانيّ سقراط وهو يستقبل حكم الموت عليه رافضًا أن يساوم على ما آمن به، قائلاً لهيئة المحكمة في أثينا: "إنّني لا أعرف أيّها السادة طعم الموت، ولعلّه شيء

جميل، ولكنّني واثق أنّ تركي رسالتي شيء قبيح. وأنا أفضّل ما يمكن أن يكون جميلاً على ما أنا واثق من أنّه قبيح."

لقد تعمّدت أن أذكر فصولاً من قصّتي الذاتيّة في هذا المقام، لأنّه كان لا بدّ أن أطرح قصّة واحدة على الأقل، أو قصصًا لبعض المغتربين اللاهثين وراء لقمة العيش الكريمة، فمنهم من نجح وأكمل طريقه، ومنهم من تعثّر وسقط ومنهم من لم يحالفه الحظّ والتوفيق، ولكن يبقى لدى الجميع عامل مشترك واحد يجتمعون حوله، وهو رفض الخنوع والخضوع للأمر الواقع، والتطلّع إلى مستقبل أفضل لهم ولعائلاتهم، وتجنّبهم أن يكونوا حطبًا للنار التي أشعلها الآخرون ووقع في لظاها الجهلة والموتورون، وأحيانًا المؤمنون بأفكارهم ليحفروا قبورهم التي تتجمع في تربتها لتشكّل هضبة مرتفعة يجلس عليها الزعيم الذي يحيط به أزلامه وأتباعه وأفراد حاشيته. أمّا عائلات الضحايا فتعيش في حسرة وأسى على لحظة جهل وتعصّب وعمى، وعلى واقع مرير وجرح غائر تعجز الأيّام عن مداواته وإزالة ندوبه.

لقد دوّنت قصتي ليعرف القارىء أنّ كاتب هذا الكتاب قد امتدّت هجرته من الشرق الأوسط إلى رومانيا للدراسة، ثمّ إلى إفريقيا للعمل كطبيب، وبعدها إلى رومانيا مرّة أخرى للتجارة والصناعة، ثمّ إلى ألمانيا لتوسيع شبكة العلاقات التجاريّة والارتباط بعقود التصدير إلى دول الخليج، ومنها إلى أميركا الشماليّة لاستقرار الأهل والعائلة، وأقام وعمل في أربع قارّات، ولديه أصدقاء من الطائفة الكريمة من مختلف أنحاء العالم، شاركهم الأفراح والأتراح واستمع إلى ما يعانون من مشاكل وما يواجهون من صعوبات وما يراودهم من أحلام وآمال، فحاول التقاط أبرز صورهم وأكثرها تعبيرًا وكشفاً لواقع الاغتراب بوجهيه

الأبيض والأسود، ونقل ما يرزحون تحته من مسؤوليّات ومواجهات، وما اعترضهم في طريق نجاحهم من تحدّيات، ووضعها تحت الضوء في هذه الصفحات، علّها تكون مثالاً ودليلاً وعبرة لمن يعيش على أمل الحصول على فرصة للخروج من الوطن، كما للمتربّعين على عروش السلطة الذين يقذفون المغتربين بتصريحاتهم الناريّة واتّهاماتهم الجوفاء، من غير أن يدركوا حرفًا واحدًا من كتاب الهجرة والاغتراب المفعم بالغصّات واللوعات وحرقات القلوب.

فضلاً عمّا كوّنته من معطيات ومعلومات ووقائع، خلال زيارتي إلى الوطن عام 2009، بعد غياب تسعة وعشرين عامًا في دنيا الاغتراب، وأثناء إعدادي لكتابي هذا، حيث التقيت عددًا من الأفراد والعائلات الذين تحمّلوا مشقّة الاغتراب وعادوا لأسباب قاهرة، إمّا لأن بناتهم كبرن ويريدون لهنّ أن يكنّ في بيئة أمهاتهم وأجدادهم، أو لأسباب مرضيّة بعد أن دفعوا أثمان اغترابهم صحة وعافية، إلى جانب من التقيتهنّ من النساء اللواتي خضن تجربه الاغتراب وحيدات وحقّقن مستويات عالية في عالم السياحة والفنادق في بعض دول الخليج، من غير أن يتمكّنّ من إيجاد فرصة مناسبة في بلدهنّ الذي يعتبر من أشهر الدول سياحة في المنطقة.

إنّها المعاناه، للمغادرين كما للعائدين، الذين وضعوا أحلامهم وأموالهم في الوطن آملين أن يحصلوا على الراحة والاطمئنان وهدوء البال في يوم من الأيام، وكذلك الذين ابتعدو وقطعوا الأمل وأرادوا أن يبدأوا حياة جديده في عالم جديد. ولكن أين نحن من راحه البال، والأهل يعيشون المعاناه ونحن نعيش الكوابيس؟! حتّى أصبح جرس الهاتف في بيوتنا وكأنّه جرس الانذار يرنّ في قلوبنا ويثير لدينا للرعب والهلع مخافة أن يحمل لنا أخبارًا سيئة قبل الحسنة،

كما أنّ المشاكل والابتزاز والتحريض وبناء الأمبراطوريّات وتسابق الانتهازيّين لاحتلال الصفوف الأماميّة، لم يترك فسحة لأمل يتفتّح ويزهر في نفوسنا.

ولولا حرصي وتشبثي بسمعة طائفتي الكريمة والحفاظ عليها، ولولا مناعتي الدينيّة والأخلاقيّة التي تحرّم عليّ نشر غسيلنا الوسخ وروائحه الكريهة أمام الناس، لأقدمت على جعل هذه الصفحات فضيحة بالأسماء والبراهين والأدلّة، تتضمن كلّ الموبقات التي إرتكبتها هذه الفئة الضالّة من الناس، (في أربع قارّات حيث أعمل وأسكن)، التي لم تتورّع عن المتاجرة بمبادئها وكرامة طائفتها من أجل مكاسب دنيويّة زائلة. لكنّ كرامة وفكر أهل البيت وسيرة الأئمّة الأطهار ومسيرتهم الشريفة ستبقى لنا حرزًا أمينًا يقينا عثرات الدنيا وذلاّتها، ومنهجًا نلتزمه ولا نحيد عنه، لا تأخذنا بالله لومة لائم ولا تقصير مقصّر ولا كذب مكذّب "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ" صدق الله العليّ العظيم.

-8-

وطن الحَيرة وشعب الله المحتار

درج الباحثون والمحلّلون الذين تناولوا موضوع هجرة اللبنانيّين وانتشارهم في أرجاء المعمورة منذ مئات السنين، على وصف هذه الظاهرة الملفتة بأنّها طبيعة في النفس ورثها اللبنانيّ عن أجداده عربًا وفينيقيّين الذين كانوا توّاقين باستمرار إلى كسر الأسوار والتحليق خارج الفضاء المحدود واكتشاف الآفاق الجديدة ربّما كان طموح اللبنانيّين أوسع من مساحة وطنهم التي ضاقت بتطلّعاتهم وأحلامهم التي تتعدّى الحدود، فراحوا يغامرون ويرافقون القوافل العابرة للمحيطات دون أن يحدّدوا لترحالهم جهةً أو مستقرًّا.

لكنّ هذه الظاهرة المسجلّة للشعب اللبنانيّ بالذات، لا تنطبق في أغلب الأحيان على أولئك الذي أرغموا على الهجرة وأجبروا تحت وقع الظلم والإجحاف والفقر، أو بفعل آلة الموت الحاصدة للأرواح وفقدان الأمن والاستقرار. وهذا ما يجسّد فعلاً الواقع المرير الذي أحاق بشيعة الجنوب اللبنانيّ بالذات حيث أصبح التهجير والتشرّد والاغتراب من صميم معجمهم، يلتصق بحياتهم اليوميّة كأنّه القدر المرسوم على جباههم منذ الولادة.

فقد عانى الشيعة في لبنان، وأهل الجنوب بالذات، ردحًا طويلاً من حياتهم وهم يخضعون لحالات الترحال والطرد القسريّ تمتدّ من أيّام الحملة العسكريّة الفرنسيّة عام 1920 وعُرفت بحملة "نيجر"، واستمرّت مع الاحتلال الإسرائيليّ لقرى لبنان الحدوديّة (القرى السبع) تزامنًا مع سقوط فلسطين عام 1948،

حتّى بلغت ذروتها مع بداية السبعينيّات تحت وطأة القصف الإسرائيليّ واشتداد أوار الحرب الأهليّة اللبنانيّة.

لم يكن نزوح الشيعة الجنوبيّين نزهة سياحيّة أو رغبة شخصيّة بدافع نزعة الاغتراب، بل كان بدافع الخوف من الحروب والأحداث الأمنيّة، والخوف من الغد وعلى مصير الأبناء، والخوف من الفقر، والخوف من القهر. فهم من أكثر الناس تشبّثًا بأرضهم وتاريخهم، ومن أكثرهم محافظة على عاداتهم وتراثهم وتقاليدهم. فالمكان والزمان عزيزان عليهما وهما جزء أصيل من كينونتهم وحضورهم النفسيّ والماديّ، على الرّغم من كلّ الظلم الرسميّ والاقطاعيّ الواقع عليهم، وأكثر من ذلك، فقد كان امتداد البعد الجغرافيّ لديهم يصل بهم إلى عمق فلسطين وسورية وشرقيّ الأردن، تجارة وتعاملاً ومصاهرة، ولا حاجة لديهم للبحث عن دولة أو عن أفق آخر يشبع رغباتهم المكسورة. والدليل الساطع على ذلك أنّ هجرات الجنوبيّين الشيعة اقتصرت إلى ما قبل احتلال فلسطين، على الاتّجاه نحو الجليل الأعلى ثمّ إلى الداخل العامليّ المجاور ومنها إلى حوران في سورية. ولم تبدأ الهجرة لديهم شمالاً نحو عاصمة بلادهم بيروت وضواحيها، أو إلى ما وراء البحار، إلاّ مع بداية السبعينيّات حين أقفلت في وجوههم كلّ المنافذ القريبة، وانفجر الرعب وتكثّفت عمليّات القصف والاجتياح لقراهم وكلّ الوطن، فراحت قوافلهم تشدّ الرحال إلى إفريقيا وأوروبا وأميركا وكندا وأستراليا، حيث نشأت في كلّ مدينة من هذه القارات التي قصدوها بلدة جنوبيّة تضمّ مجتمعًا شيعيًا مماثلاً لما كان عليه في الوطن الأمّ، وأصبح للجنوب الشيعيّ اللبنانيّ امتدادات عالميّة واسعة.

إنّه قدر الجنوب في لبنان، كما إنّه قدر الجنوب في أغلب مناطق الكرة الأرضيّة، حيث يمثّل هذا القاطع المنخفض من الدنيا خزّان الفقر والتخلّف والعوز، أمام القاطع الشماليّ الأعلى الذي يرتع بغناه وتقدّمه ورفاهيته . وإذا صنّف الكبار المهيمنون على مصائر الناس وحياتهم، العالم إلى شمال وجنوب، الأوّل زاه متألّق والآخر قاتم سقيم، فقد فاتهم أن يذكروا أنّ هذا الجانب الشقيّ هو مهبط الأنبياء والرسل والمصلحين الذين حملوا الرسالات لخير الإنسانيّة جمعاء، كما غاب عنهم أنّ هذا الجنوب المسكين لم يكن يومًا سببًا في مآسي الدنيا وحروبها وويلاتها، بل كان مطمعًا للدول المستعمرة التي حوّلت أرضه مقابر وشعوبه عبيدًا يبنون ويفلحون بدمائهم ويطمرون جثثًا تحت أنقاض المناجم ومجاهل الأدغال.

تجسّد مأساة الجنوبيّين الشيعة في لبنان، في معاناتهم الطويلة تآزر التاريخ والجغرافيا معًا للانتقام من هذا الشعب الطيّب . فإذا كان الجنوب يعني الفقر، فإنّ جنوب الإنسان قدماه، وقد كان الجنوبيّون في التاريخ الحديث، القواعد الأساسيّة التي يرتكز عليها جسم الوطن وينهض بقوّة وعزم، على الرّغم من فقدان التوازن والتناغم بين عمل الرأس وحركة الأقدام وعندما شلّت الأرجل تحت وقع الإهمال والحيف والضربات، كاد الوطن ينهار على رؤوس الجميع.

أمّا في التاريخ، فمنذ نشأة الحركة الرافضة للظلم على الأرض من النبع الأصيل محمّد النبيّ الأميّ وآل بيته الصفوة الأخيارعليهم جميعًا أطهر السلام، تحت شعار: "حلال محمّد وآل بيته، حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام حتّى يوم القيامة"، فقد أمسى ذلك نهجًا تربويًّا أخلاقيًّا رفيعًا يزرع في النفوس قلاع المناعة لاتّباع الحقّ وهجر الباطل، ورفض الظلم ومناصرة العدل، لمناهضة

التسلّط وتأييد الرحمة والتسامح، بالممارسة الفعليّة التطبيقيّة في كلّ زمان ومكان. إنّه الجوهر الذي قام عليه تاريخ الشيعة وارتفع صرحه، ليس بالتوقّف عند حدود المظاهر الخارجيّة، وما كان يلبس جنود محمّد عليه الصلاة والسلام ولا بشكل اللحيّة وقياس العمامة والعباءة، إنّما بما كانوا قدوة في فعله من مآثر وفضائل وتحكّم بالنفس الأمّارة بالسوء، والتزامًا بما نقل عن الإمام عليّ عليه السلام، الخليفة الإسلاميّ الرابع، وعن أبنائه وأحفاده الطاهرين من بعده.

وعندما يتناقض المظهر مع الجوهر، ويتعارض القول مع الفعل، والتطبيق مع العقيدة، التي تفرغ من محتواها لتغدو قشورًا تستر حقائق مزيّفة ووجوهًا مقنّعة ونفوسًا حصّنها جشعها واستغلالها من نفاذ تعاليم الدين إلى دواخلها، تُمسي والحال ذاك مثار استهجان من العامّة، و هزءًا من النخبة التي ترى البون شاسعًا بين النقيضين والمتعارضين، فتبري ساعتئذ بتورية يدركها مَن قيلت فيه، ولا يجهلها من يسمعها ليردّدها متندّرًا أو متعمّدًا لعدم استطاعته، أو هكذا يخيّل له مجابهة ممتهني حرفة الدين والقابضين على زمامه، ولسان حاله يقول:

"أعزني طَرف زرقاء اليمامه   لأبصر ما ورا تلك العمامه."

أمّا الشاعر سابق زمانه "موسى الزين شرارة"، فقد برع أيّما براعة عندما اكتشف مبكّرًا تحايل أمثال هؤلاء وحذّر من استغلال بعض رجال الدين الذين يدّعون العفّة والطهارة والصفاء بينما هم يغرقون في ارتكاب المعاصي والمحرّمات:

"أمكبِرًا حجم العمامة لا تخلْ أنّ العمامة لم تزل تُغريني!

سُمْن العمامة غير مجد إن يكن قلب الفتى بالدين غير سَمين

إن كان في كبر العمامة ديننا فلنسجدنّ لعزّة اليقطين."

وبسبب تعلّق الشيعة عبر التاريخ بهذه الفضائل والقيم والمثل، وبناء على الفتاوى الموجّهة لهم التي حرّمت عليهم "لبس الميري" أي الانخراط في سلك الدولة والعمل بدوائرها وقبض مداخيلها، فقد تأخّر الشيعة عن الحضور في جسم الشأن العام الرسميّ وأصبحوا "مفعولاً بهم" بدلاً من أن يكونوا فاعلين أسوة بالأطراف والطوائف الأخرى، دون أن يتقدّم أحد ممّن أصدروا الفتاوى بالاعتذار عمّا أصاب طائفته من جرّائها، وما تعرّض له أبناؤها من ضروب التنكيل والاضطهاد والتعذيب، وإبعادهم عن مراكز الحكم ومناصبه، ممّا ألجأهم إلى اعتماد التقيّة في حياتهم وفي المجتمعات التي خضعوا لها، دون أن تلين لهم قناة أو يتراجعوا عن نهج آل البيت وصبرهم ومكابدتهم . ولم تكن التقيّة ضربًا من الكذب أو المراوغة أو المخادعة، إنّما كانت أسلوب حياة يُعتبر قمّة الحنكة السياسيّة وذروة المنطق، ولا يقوم على نكران التوبة والتوجيه، لكن على رسوخ الإيمان والعقيدة في الصدور وعلى اعتماد البعد الأخلاقيّ وليس الطائفيّ في بناء العلاقات بالآخرين على قاعدة تقارب الأخلاق وحسن المعاملة، وعلى مبدأ أنّ البشر سواسية، وكلّ إنسان إنّما هو أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق.

لم يتبدّل مسار التاريخ وظلمه للشيعة في العصور الحديثة، فقد تراكمت النكبات عليهم بمختلف وجوهها، حتّى أنّ فلسطين، قضيّة العالم العربيّ أجمع،

تحوّلت إلى قضيّة "شيعيّة" خاصّة بهم . فكما التصقت فلسطين بأرضهم وسهولهم وحياتهم العامّة، فقد التحمت مصيبتها وآلام شعبها بحياتهم، وتشابك العدوان على فلسطين منذ 1948 وحتّى أيّامنا هذه، على مناطقهم وقراهم وبيوتهم، كما تطابقت وقائع المقاومة والتحدّي والأسر والاستشهاد بين الشعبين إلى حدّ التماهي التامّ، فلا يكاد يذكر خبر يتعلّق بالقضيّة الفلسطينيّة حربًا أو سلامًا، دون أن يُذكر معه ركن من أركان الجنوب، لا بل أنّ الحروب والاعتداءات التي تعرّض لها الجنوب ولبنان عمومًا من القوّات الإسرائيليّة تفوق في نتائجها الدمويّة والمأسويّة ما شهدته كلّ دول الطوق مجتمعة فهل نحن من طائفة لم تقرأ أنّ القضيّة الفلسطينيّة كتلة ملتهبة أحرقت الأرض والإنسان، تقاذفها العرب من دولة إلى دولة خوفًا من نيرانها وتفجيراتها، حتّى الشقيقة سورية، دولة الرفض والممانعة، كانت شاهدة على ترحيل القضيّة برجالها وعتادها من لبنان عام 1983، وكان أولى بها أن تستقبلهم في ربوعها وهي المحاذية للبنان والملتصقة به، غير أنّها ولأسباب تكعي العاقل وتحيّر المتعقّل آثرت إبعادهم إلى تونس . وقد أثبتت الايّام صحّة وحكمة هذا القرار، حيث لا يمكن لأيّة دولة منفردة، مهما كانت قدراتها، أن تتحمل أعباء هذه القضيّة. فليت زعماؤنا يقتدون بهذه الحكمة، بعد أن التقطنا نحن هذه الكرة الملتهبة وحضنّاها فأحرقتنا وأحرقت إنجازاتنا بلا جزاء ولا شكور!

تلك هي حقيقة العناء الشديد والطويل الذي كابده الشيعة قبل أن يضطروا إلى التوزّع خارج وطنهم بحثًا عن الخلاص . فقد غادروا مكرهين من شدّة ما عانوه من الحرب والفقر وفقدان الأمل بالعيش الكريم فلم يترك أحدهم وطنه وفي جيبه ما يسدّ به الرمق، بل تاهوا في بلاد الله ساعين في مناكبها طالبين الرزق من الرزّاق الكريم، موجّهين وجوههم للذي فطر السماوات والأرض، طالبين منه

أن يشملهم بنعمة الصبر والقوّة ومع هذا فإنّ ألسنة النيران لاحقتهم عالقةً بأذيال أثوابهم أنّى ارتحلوا وأينما حلّوا فما شهدوه في بلادهم من مظالم وأهوال، وما ذاقته الأمّهات من حرقة أكبادهنّ على فراق أبنائهنّ، وما ذرفته العيون من دموع حارقة تنسكب على وجنات المودّعين، لم يكن كافيًا للتطهّر من كابوس القدر ، فتوالت المعاناة فصولاً في المغتربات حتّى صحّ فينا القول "إنّ وطننا وطن الحيرة، وإنّنا شعب الله المحتار." فمَن بقي في الوطن، يحاول الخروج من سعيره بأيّ ثمن، والمغترب المسلوخ عن أسرته وأرضه يتشبّث بالعودة ويتوق إليها مهما كانت الصعاب . ألم أقل سابقًا إنّنا من طائفة صغيرة تقيم في جبل عامل منذ مئات السنين، أقليّة في المنطقة، حاربت وواجهت على مختلف الجبهات من أجل هدف واحد هو البقاء مع التراب بكرامة وإباء؟

ألم أذكر أنّنا من طائفة مسكونة بالخوف؟ أجل الخوف كان خبزنا اليوميّ الذي نعيش عليه. الخوف يعشّش في داخلنا ويطوّقنا بكلّ وحوشه نشأنا في غابة من الخوف كثيفة، نخاف من أزمنتنا الغابرة والحاضرة والمستقبليّة . نتأمّل الحاضر فنتحسّر على الماضي وأيّامه قائلين : "سقا الله أيّام زمان !" وما أن تحضرنا مشاهد الماضي حتّى نهبّ ضارعين متوسّلين برجاء "يتذكّر ما يتّعاد". نخاف من الآخر قريبًا كان أو غريبًا، الأمّ تخاف على أبنائها، والناس تخاف من السادة ومن القادة ومن الدولة، والدولة تخاف من الشعب كي لا يأخذها على حين غرّة، الطائفة تخاف من طائفة أخرى، والصور الدامية السوداء محفورة في عمق الذاكرة تغلّفنا بالحزن وتزرع فينا الخوف كلّما حاولنا أن ننسى أو نتناسى. إنّني لأعجب أحيانًا من تلك الحكمة اللاصقة في أذهاننا منذ الطفولة، التي كان المدرّس يزخرف بحروفها كلّ صباح السبّورة السوداء، وتصفع عيوننا في صدارة البيوت والدكاكين، وهي : "رأس الحكمة مخافة الله".

حتّى الحكمةَ يا ربّي لا تخلو من الخوف؟ ألم يعلّمونا أنّ من يعبد الله خوفًا، فتلك عبادة العبيد، وأنّ من يعبد الله إيمانًا ومحبة واحتسابًا فتلك عبادة الأحرار؟ لماذا يخيفوننا منك يا ربّ العالمين وأنت الغفّار الرحمن الرحيم الكريم المتعالي؟ نحن نعلم أنّ مخافة الله واجبة عند المعصية، لكنّ محبّةَ الله داعية إلى تحسين المسلك والسلوك، فنحمي المجتمع من الأشرار والأذيّة والكذب والطمع، فيزول الخوف من نفوسنا.

هذا الإحساس المتوارث بالخوف، المتناسل فينا جيلاً بعد جيل، هو الذي دفعنا إلى الهجرة، وهو هو أيضًا الذي حثّنا على إرسال الأموال لبناء المنازل في بلادنا ونحن على مسافة آلاف الأميال عنها، وهو الذي قضى على استقرارنا وأماننا فلا نعرف الراحة حيث نكون، ولا يمكننا أن نفرح حتّى بما رزقنا الله.

لقد أرادوا أن يكون الخوف رفيقنا إلى آخر أرجاء الدنيا، فكان فعلاً "جواز سفرنا" وأكثر. دخل في لحومنا منذ بداية الهجرة، وراح يوسوس وينخر، فخفنا ونحن فقراء، وخفنا ونحن أغنياء، وخفنا قبل الزواج، وخفنا بعدما أنجبنا البنين والبنات. خفنا على أهلنا وأحبّتنا المساكين المتروكين في فمّ الهمّ والغمّ والكرب. خفنا من الفشل ومن النجاح، خفنا على أسمائنا، ومن تعاملنا مع الآخرين، خفنا أن نخطىء وخفنا أن ندفع ثمن أخطاء الآخرين.

وإذا عرفنا أنّ الخوف والضغط النفسيّ في الإنسان هما وراء أخبث الأمراض وأخطرها، فلا غرو أن جزمت أنّنا شعب مريض بامتياز، وشعب محتار بامتياز، لأنّنا في حَيرة من أمرنا، ألبنانيّون حقًا نحن أم غير لبنانيّين! وتعترينا حيرة فيما إذا كانت الدولة التي نحمل هويّتها ونوليها الحبّ والتفاني من طرف واحد، وندافع عن أرضها ونقدّم لها الغالي والنفيس للحفاظ على كرامتنا! ونحار

ونحن نتساءل هل أنّ القائد الذي يقود هو الأفهم والأذكى والأجدر لكي يؤتمن على المطالبة بحقوق المواطنين والمحافظة عليها؟ وكيف لنا أن نقضي على حيرتنا ، بينما نعيش نحن اللبنانيين، ومنذ عشرات السنين، مهرولين خلف زعمائنا وقوّادنا الذين يقبضون على زمام السلطة والقيادة، ويُستنسخون ويتعاقبون ويتوارثون المنصب والموقع ، من غير أن نلمس أثرًا لوجودهم وسلطانهم في أيّ مشروع تنمويّ يمكن أن يخفّف عن جنوبنا وعائلاتنا الحرمان والقهر والتخلّف، أسوة بالمناطق اللبنانيّة الأخرى، اللهمّ إلاّ ما كان يصبّ في منفعة صاحب الجلالة وبطانته والمنتفعين حوله، وكلّ ذلك من أجل أن يبقى الحرمان "قميص عثمان" بيد الزعماء يستحلبون به الأموال العامّة والخاصّة من جهة، ولكي يبقى الناس على حاجتهم وعوزهم وجهلهم يلهثون على أبواب هؤلاء الزعماء ويركعون أمامهم ويدعون لهم من فوق المنابر.

ولله درّ الشاعر العامليّ الكبير "موسى الزين شرارة"، مرّة أخرى حين أعلنها ثورة في وجه هؤلاء الطغاة والمستبدّين ودعا الى يقظة الناس وتحريرهم من طغيانهم الفرعونيّ فقال:

"كونوا فراعنة شداذا واحكموا ... وتحكّموا وتسلّطوا كطغاة

سأظلّ أصرخ ما حييت بسمعهم ... حتّى تفتّق سمعهم صرخاتي

وأمزّق الجلباب عن إجرامكم ... وأزيح سحب الوهم والغيمات."

-9-

مؤامرة المخيّمات... وكذبة التوطين!

لم يعد سرًّا ولا اكتشافًا ذريًّا كما يقال، أن نؤكّد أنّ لعبة الأحجام والأعداد السكّانيّة للطوائف اللبنانيّة، وقوّة تأثيرها وأدوارها في الحياة السياسيّة اللبنانيّة، تشكّل عاملاً أساسيًا في بنية النظام وتركيبته وأشكال التمثيل فيه وفي عمليّة صنع القرار، منذ ما قبل اعلان دولة لبنان الكبير عام 1920 وحتّى يومنا هذا.

من المعروف أنّ لبنان هو أشبه ما يكون بغابة من وحوش الطوائف، تضمّ في أحشائها ثماني عشرة طائفة مسيحيّة وإسلاميّة، وكلّ منها تقف بالمرصاد، وتتحيّن الفرص السياسيّة والأمنيّة، الداخليّة والخارجيّة، لامتلاك عناصر القوّة والهيمنة عدديًّا أو عسكريًّا، للانقضاض على الأخرى وسلب حقوقها والغائها إذا تسنى لها ذلك، معتمدة بذلك على كلّ ما يتاح لها من وسائل وتحالفات شرعيّة أو غير شرعيّة.

وقد استخدم هذا البعد الطائفيّ في كلّ مرحلة من مراحل الأزمات والحروب اللبنانيّة التي تكاد تطبع تاريخ هذا البلد الأعجوبة.

فمنذ النكبة الفلسطينيّة عام 1948 وتهجير الكمّ الهائل من الفلسطينيّين إلى دول الجوار، كان هناك مؤامرة واضحة على لبنان، لا أدري لماذا لم يتحدّث عنها أحد ولم يتنبّه لها أحد.

عندما وصل اللاجئون الفلسطينيّون إلى لبنان كان عددهم لا يتجاوز أربعين ألف نسمة، وهؤلاء بمجموعهم لا يشكّلون سكان قرية صغيرة. ولكن ما تمّ أثناء النكبة وبعدها، وفي ظلّ أقوى عهود المارونيّة السياسيّة في الحكم، والطريقة التي تمّ بها توزيع الفلسطينيّين في لبنان، ما يثير الريبة والشكوك، للأسباب التالية:

أولاً: تشير الاحصاءات والدراسات إلى أنّ هناك أكثر من خمسة عشر ألف فلسطينيّ من طائفه معيّنه تم تجنيسهم خلال الفترة التي تلت الهجرة سنة 1948، وألحقوا بعائلات لبنانيّة، ليكوّنوا أثقالاً في ميزان القوى وجيشًا احتياطيًّا للاستعانة به ضد الطوائف الأخرى. ومن مهازل القدر أن تسمع في هذه الأيّام أكثر الناس اعتراضًا على توطين الفلسطينيين في لبنان، أولئك الذين كانوا أول من مارس عمليّات التوطين والتجنيس الواسعة للفلسطينيّين. كما أنّ هناك فضائح أخرى أكبر وأخطر، ستصدر قريبًا في كتاب، كما نمي إليّ، يتضمّن عمليّات تجنيس واسعه حصلت منذ عام 1980 الى يومنا هذا، لا لأيّ غرض قوميّ أو وطنيّ كما يدّعون، بل بهدف تأمين المخزون البشريّ الاحتياطيّ اللازم للعبة الطائفيّة. وهذه كانت أول خيوط المؤامرة على لبنان وعلى فلسطين معًا، حيث استُخدم الفلسطينيّون بيضة قبّان في التوازنات الطائفيّة لأغراض سياسيّة، وتمّ تحقيق هدف إسرائيل بتفريغ الأرض من سكّانها وعدم السماح بعودة اللاجئين إليها، وترك بقيّة اللاجئين الفلسطينيّين في مخيّماتهم قنابل موقوتة للاستخدام عندما تدعو الحاجة، وخصوصًا في المناطق الاسلاميّة والشيعيّة بالذات، حيث تتمركز أكثر هذه المخيّمات، ومشاريع مجازر، واحدة بعد الأخرى، تتكفّل بإبادتهم وتهجيرهم، على أيدي جميع الأطراف التي استخدمتهم أو التي غضّت الطرف عن تجاوزاتهم

وتسليحهم وتمدّد قوّتهم، حيث ما زالت ماثلة أمام أعيننا، مجازر مخيم تلّ الزعتر، وصبرا وشاتيلا، وما عرف بحرب المخيّمات عام 1985.

ثانيًا: إنّ خيط المؤامرة الآخر هو تجنيس الآلاف من أعراق أخرى، في عمليّات متكرّرة ومتواصلة، ومنحهم الامتيازات التي كان يحرم منها اللبنانيّ المسلم والشيعيّ خصوصًا، حيث تجد الآن أنّ لهذه الفئات نوّابًا ووزراء ومدراء في الجمهوريّة. فلماذا لا ينطبق على الفلسطينيّ ما ينطبق على غيره، غير تمرير كذبة كبيرة أطلقها أصحاب المصالح والنوايا الاستئثاريّة بالوطن، ولحق بهم من تقاطعت مصالحهم مع هذه الكذبة المفضوحة؟ وإلاّ، فكيف نفسّر تجنيس البعض متناسين مبادئ وشعارات حقّ العودة والاحتفاظ بالهويّة والمحافظة على الأرض؟ وهذا ما يفضح كذب ونوايا من يحاضر مع كلّ صيحة ديك بمخاطر التوطين على الفلسطينيّين والقضيّة الفلسطينيّة، في الوقت الذي بقي فيه شيعة ما يسمّى بالقرى السبع محرومين من الجنسيّة اللبنانيّة حتّى وقت قريب.

ثالثًا: دعونا نلقي نظرة سريعة على خارطة توزيع المخيّمات الفلسطينيّة في لبنان، لنكتشف سريعًا العجب العجاب في حياكة المؤامرة على الشعبين والدولتين معًا. إنّ أراضي المخيّمات الفلسطينيّة هي أراض للدولة اللبنانيّة قدمتها من أجل إيواء النازحين، وقد اختيرت مواقعها بدهاء وخبث كبيرين، بحيث تكوّن سياجًا ملتهبًا يحاصر المدن الكبرى في لبنان على طول الساحل وفي عمق الأراضي اللبنانيّة.

- في مدينة صور هناك ثلاثة مخيّمات هي البصّ وبرج الشماليّ والرشيديّة، حيث إنّه عليك كلّما أردت أن تدخل إلى مدينة صور وسائر مدن وقرى الجنوب اللبنانيّ، أن تلقي التحيّة على إخواننا اللاجئين.

- في صيدا وعند مدخل بلاد جبل عامل، هناك مخيّما عين الحلوة والميّة وميّة، يربضان على خنّاق المدينة. وعلى الداخل الى جبل عامل، تاركًا وراءه مدينه صيدا، أن يخفّف السير على طريق وسعت من بيروت إلى صيدا ثم ضاقت في هذه النقطة، لتشاهد على يسارك موقعًا للجيش اللبنانيّ ينبئك بدخول الجنوب، ويرشد إلى مدخل المخيم. وقد لفت نظري أنّ المخيّمات منتشره في أجمل المناطق على شاطىء المتوسط.

- في بيروت تواجهك على بعد مئات الأمتار من المطار الدوليّ مخيّمات برج البراجنة وصبرا وشاتيلا ومار الياس.

- وفي ما كان يعرف بالمنطقة الشرقيّة من بيروت أثناء الحرب اللبنانيّة هناك مخيم ضبية، وهو المخيم الوحيد المتبقّي في الضواحي المسيحيّة، وهو يضمّ اللاجئين القادمين من قرى الجليل في شمال فلسطين معظمهم من المسيحيّين الكاثوليك. فضلاً عمّا كان يعرف بمخيم تلّ الزعتر، وما أدراك ما المجازر والأهوال التي شهدها هذا المخيم إبّان الحرب الأهليّة في لبنان عام 1976، بعد أن حوصر ودكّ ودمّر حتّى سوّي بالأرض مع الآلاف من سكّانه.

- في طرابلس مخيّما نهر البارد والبدّاوي.

- أمّا في البقاع فهناك مخيّم ويفل أو الجليل على مشارف مدينة بعلبك.

- إضافة إلى هذه المخيّمات الشرعيّة التي تعترف بها الدولة اللبنانية والأونروا، هناك العشرات من التجمّعات السكانيّة الفلسطينيّة غير المعترف بها والمنتشرة في مجمل الأراضي اللبنانيّة، مثل شبريحا والبرغليّة والقاسميّة وعدلون والغازيّة والناعمة وسعدنايل وتعلبايا وغيرها.

هل تلاحظون زنّار النار الذي يطوّق الجمهوريّة ومناطقها وطوائفها؟ دون اعتراض من أيّة جهة رسميّة أو شعبيّة، على توزيع هذه المخيّمات التي ستبقى حقول ألغام موقوتة داخل الوطن، لأنّ الظلم الذي لحق وما يزال يلحق بهم كشعب، والذلّ الذي يعيشونه داخل مخيّماتهم، والامعان الرسميّ في حرمانهم من أبسط حقوقهم الانسانيّة في السكن والعمل والطبابة والتعليم والضمان، منذ ما يزيد على نصف قرن من الزمان، كلّ ذلك كفيل بأن يحوّل هذه المخيّمات إلى بؤر متفجّرة مشحونة بالحقد والغضب والكراهيّة، يتحكّم في توقيت انفجارها المتربصون بهذا الوطن وباللبنانيّين الذين تحيط بهم كتلة النار الملتهبة.

-ثبت خلال السنوات التي مهدّت للحرب الأهليّة في لبنان عام 1975، والسنوات التي تلتها قبل إخراج منظمة التحرير من لبنان، في أعقاب الاجتياح الاسرائيليّ الكبير (1982)، أنّ المخيّمات الفلسطينيّة، تحوّلت تحت حجج وذرائع أمنيّة وتحريريّة، إلى ترسانات من الأسلحة الثقيلة والخفيفة، فاقت بكثير مخازن الدولة نفسها، وتحوّل جيش التحرير الفلسطينيّ ومنظمة التحرير الفلسطينيّة إلى فرق "للكفاح"، سيطرت على لبنان وبيروت خصوصًا، وأقامت لها دولة "الفاكهاني الفلسطينيّة"، وراحت تفرض هيمنتها وتدخّلها في شؤون الناس والعباد، وكلّ ذلك على مرأى ومسمع ومشاركة وتشجيع وتأييد من الطبقة السياسيّة الحاكمة، التي كانت تعدّ للحظة المناسبة، لخلق سيناريو

الحرب وأدواتها. ترى ألم يعلم من كان على سدّة الحكم، ومن كانت في وجهه عيون وآذان، ومن يغار على مصلحة الكيان والدستور والجمهوريّة، أنّ بواخر وشاحنات الأسلحة كانت تدخل في وضح النهار وتوزّع على المخيّمات وعلى الأحزاب والقوى السياسيّة؟

ألم يتساءل أحد من جهابذة السياسة والتنظير وابتداع الأفكار والخطط، لماذا كان يُسهّل هروب اللبنانيّين من منافذ بيروت والمناطق أثناء الحرب المشتعلة على كلّ الجبهات، مستعملين كل الأساليب الشرعيّة وغير الشرعيّة، دون اعتراض من أحد، في الوقت الذي كانت فيه السلطات اللبنانيّة تشدّد وتحاصر وتمنع من يحاول من الفلسطينيّين الخروج من الوطن؟ أم أنّهم أبقوهم ليتكاثروا ويكونوا عباد الله الصالحين الذين سيرثون الأرض وما عليها بعد خروج آخر لبنانيّ عندما يفقد الامل؟ أم أنّهم رصيد محفوظ ليوم مشهود، يوم تبدأ المساومة ودفع الأثمان المستحقّة في بازار التوطين؟!...

لا أدري كم من الناس يقدّرون الخسائر الباهظة التي تكبّدناها في موضوع قضيّة فلسطين، والتي ينتظر أن نتكبّدها في المستقبل. وإذا كانت القيادة الشيعيّة قد رفعت في هذه الأيام، شعار الموت لأميركا والموت لإسرائيل، ووضعت نفسها في مواجهة مباشرة مع العالم، في الوقت الذي تخلّى فيه الجزء الأكبر من العالمين الاسلاميّ والعربيّ عن أيّة مواجهة ونادى بالحل السلميّ ودعا إلى المفاوضات وأطلق مبادرات السلام على مستوى جامعة الدول العربيّة، وتبنّاها ورفع العتب عنه وجلس ينتظر، فإنّه يتّضح حينئذ حجم الكارثة التي تتلطّى وراء أبواب الجنوب اللبنانيّ وكلّ لبنان. وإذا كان انطلاق المقاومة

لتحرير الأرض قد تمّ من لبنان ومن بيروت تحديدًا، فإنّ هناك من أصرّ على إطلاق مبادرة السلام والتخلّى عن القضيّة برمّتها من بيروت نفسها.

لا أهدف في ما أقول، إلى إرتكاب فعل الخيانة الوطنيّة الكبرى لا سمح الله، في التحريض أو الدعوة للتوطين، الذي يخالف مضمون الدستور والتوافق اللبنانيّين كما تعلمون!... وينزع حقّ العودة من الفلسطينيين، كما لا أريد أن اتعرّض لأيّة فئة أخرى من الفئات التي حظيت ببركة الجنسيّة اللبنانيّة. بل كلّ ما أردت تسليط الضوء عليه هو النفاق السياسيّ وخبث رجال السياسة والمحاضرين بالعفّة الوطنيّة والقوميّة وهم يغرقون بالاثم والخطيئة والغدر، كما أردت أن أطرح أسئلتي عن طبيعة المؤامرة التي ما زالت تبثّ سمومها وتضيّق خناقها على أهلنا ووطننا المعلّق على الجلجلة، وأن أطلق صرخة انسانيّة وأخلاقيّة ووجدانيّة من أجل شعب مظلوم هجّر من أرضه ولجأ إلى أخوة له في الجوار والإنسانيّة، طلباً للعيش الكريم ريثما تنتهي مأساته المعقّدة، فإذا به يواجه أقسى حالات الظلم والقهر والذلّ، ويجد نفسه سلعة رابحة في صفقات الدول الصديقة والعدوّة.

-10-

**المآسي المكتومة في ملحمة الإغتراب*

أعرض في هذا الفصل جولة دامية مأسويّة من ملحمة الاغتراب لم أشأ أن أترك حبلها على غاربها، لما فيها من آلام وضحايا، لكي تتكامل أجزاء الصورة الحقيقيّة عمّا ارتكبه النظام اللبنانيّ وسياسيّوه وأحزابه وميليشيّاته وما يزالون بحقّ أبناء الوطن، منذ بداية السبعينيّات من القرن الماضي، عندما تُركت الأرض والناس بين أنياب الوحش الكاسر ونيرانه، وشهرت الأحزاب السياسيّة والطائفيّة والمذهبيّة سلاحها في وجه الآمنين، وارتكبت أفظع المجازر وأقبحها في تاريخ الإنسانيّة بحقّ أبنائها، مرّة بذريعة حماية القضيّة الفلسطينيّة، وتارة بالحفاظ على حقوق الطائفة، وثالثة لصيانة الدستور وكيان الوطن، في الوقت الذي لم يبقَ فيه قضيّة ولا وطن ولا دستور ولا أحد من دُعاة القوميّة والوطنيّة. فخضع الجميع إلى أبشع استبدادين معروفين في التاريخ، الاستبداد السياسيّ والاستبداد الدينيّ، وتحوّلت مدن وقرى وأحياء ما يُعرف بالجمهوريّة اللبنانيّة إلى هياكل كانتونيّة، تعشّش فيها الغربان وتحكمها ذئاب الغاب وتسيطر عليها غرائز العفاريت وتسكنها جثث القتلى وأشلاؤهم، وأصبح مَن كُـتبت له الحياة من الناس، إمّا معتوهًا أو معوّقًا أو مشرّدًا في الوطن او في ديار الله.

ويسردي تفاصيل هذه الصورة السوداء من صور عذاب المغتربين، أودّ بها تذكير تلك الطبقة من تجّار الحروب والمتسلّطين على مقدّرات الوطن والدولة والمنتفعين من دماء الضحايا ومآسيهم ، الذين يرتعون، كما في مجمل تاريخ الجمهوريّة، هم وأزلامهم، في قلاعهم الحصينة ومناصبهم وأمبرطوريّاتهم الماليّة وثرواتهم المهرّبة داخل الحدود وخارجها، يكيلون التهم جزافًا للمغتربين الذين

نكّلوا بهم في الوطن و "طفّشوهم" عراة هائمين على وجوههم، ويتّهمونهم بـ"الهروب" إلى الخارج والتخلّي عن واجباتهم الوطنيّة، و"التفرّج" على انهيارات وطنهم بـ "الناضور"، وجمع الأموال "المرشوشة والمبعثرة " على الطرقات في بلاد الاغتراب، أريد أن أذكّر كلّ هؤلاء وغيرهم، أنّهم كانوا وما يزالون وراء كلّ قصّة عذاب وقهر ومعاناة عاشها المغتربون بعيدًا عن أرضهم وأوطانهم، وأنّ النجاحات الكبيرة والرائعة التي حقّقها بعض هؤلاء المغتربين في ميادين شتّى، هي ملك للمغتربين فقط، لجهدهم وعرقهم وعذاباتهم وسهرهم ومآسيهم وغصّاتهم، كما سوف تبقى، على الرّغم من كلّ الظلم والافتراء والدسائس، ملكًا لأهلهم الذين ما تخلّوا عنهم لحظة واحدة، وملكًا لأرضهم التي ولدوا وترعرعوا فيها. لن أستفيض طويلاً في هذا الجانب الأساس من معاناة المغتربين، فهو يستحقّ فصلاً خاصًّا قائمًا بذاته، سآتي عليه لاحقًا.

هذه اللوحة الدامية تضمّ في حناياها مجموعة من شباب الوطن الذين زُجّ بهم في أتون الحرمان والظلم والحرب الأهليّة في لبنان، ووجدوا أنفسهم بين ليلة وضحاها إمّا أكباشًا محروقة وإمّا متورّطين، ففقدوا آمالهم وأحلامهم بمستقبل كانوا يتطلّعون إليه بنفوس ملؤها الإيمان والعزم والهمّة، ولم يعد أمامهم إلاّ "الهروب". أجل! الهروب من الجحيم ومن القتل العبثيّ ومن الهواء السياسيّ الآسن والطائفيّ الفاسد المقيت الملوّث بشتّى أنواع الجراثيم القاتلة. الهروب من مواضع الإثم والعدوان ومن أرض غدت مسرحًا لصراع الديوك وثيران النفوذ من القوى الداخليّة والخارجيّة. "هربوا" حتّى لا تتلطّخ أيديهم بدماء إخوانهم في البيت الواحد والعائلة الواحدة، وشركائهم في الوطن والتاريخ والماضي والحاضر والمستقبل. إنّه الهروب من وجه الخطيئة الكبرى . إنّه إنقاذ النفس من التهلكة التي حرّم الله علينا أن نلقيهم إليها إنّه الوجه المضيء من وجوه التقوى التي

حضّنا ديننا الحنيف عليها والتي تأمرنا بالابتعاد عن مواضع الفساد تأكيدًا لقول الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة، عندما سئل عن التقوى فقال "**التَّقْوى هِيَ أَلاَّ يَفْقِدَكَ اللهُ حَيْثُ أَمَرَكَ وَأَلاَّ يَجِدَكَ حَيْثُ نَهَاكَ**" جميع الرسل والأنبياء والمصلحين والدعاة تركوا أوطانهم وأهلهم، وهاجروا بأمر الله وإذنه، يوم عمّ الفساد والظلم، وطغى الكفر وشاعت المحرّمات والفسق والرذائل، ولجأوا إلى ديار أخرى يتابعون فيها رسالتهم ويرفعون كلمة الله وينتصرون للحقّ والعدالة وكرامة الإنسان. إنّه هروب العقلاء الأنقياء من سكاكين السفّاحين كي لا يكونوا ضحايا أو جزّارين.

وسط حمّى القتال، ومن بين أقواس الدائرة التي أحاطتهم بالموت، تمكّن عشرات الآلاف من الشباب، ومن شيعة الجنوب تحديدًا من إحداث خرق في الجدار الناريّ، وذلك بالفرار عن طريق تجّار تهريب البشر، أو بالحصول على تأشيرات دخول مزوّرة إلى بعض دول أوروبا الغربيّة خاصّة بوساطة عصابات منظّمة لتهريب المهاجرين، دفعوا من أجلها كلّ غال ونفيس، وغامروا بآخر قرش كان في جيوبهم وجيوب أهلهم، حتّى أنّ كثيرين أقدموا على بيع خيمة العمر ومأوى العائلة، أو قطعة أرض يمتلكونها، أو خضعوا لأطماع المرابين والسماسرة من أجل تأمين المبلغ المطلوب ثمنًا لهذه التأشيرة. ويُذكر في هذا الجانب أنّ تلك العصابات المختصّة بالتهريب قد بلغت أرباحها – حسب التقارير الدوليّة المهتمّة بهذا المجال – مليارات الدولارات سنويًّا، كان مصدرها هؤلاء المعذّبون المشرّدون في لبنان والعالم بفعل العنف والاضطهاد والحروب. ويجدر بي التذكير أيضًا أنّ أعداد اللبنانيّين الذين هاجروا بطرق غير شرعيّة خلال سنوات الحرب الأهليّة والاعتداءات الإسرائيليّة المتكرّرة، إلى مختلف

الدول الأوروبيّة وأميركا الشماليّة فقط، قد بلغت عشرات الآلاف، حسب أحد التقارير.

تمكّن هؤلاء المساكـين من مغادرة حدود الوطن المحترق بهذه الطرق غير القانونيّة، وهم لا يلوون على شيء لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون، ولا أيّ مصير ينتظرهم، ولا ماذا سيفعلون، ولا أين وكيف سيعيشون، ولا أيّة لغة يتكلّمون. إنّها المغامرة الحقيقيّة المحفوفة بكلّ أنواع المخاطر والمشاكل والصعوبات. كان هؤلاء المساكين المقهورون، يعرفون شيئًا واحدًا فقط هو أنّهم أصبحوا خارج بركان الجنون، وكلّ ما قد يتعرّضون له بعد ذلك لا يمكن أن يكون أفظع وأشدّ رعبًا ممّا عاشوه وعانوه في الوطن.

كان الحصول على تأشيرة لدخول إحدى دول أوروبا الشرقيّة آنذاك أبسط كثيرًا من دول أوروبا الغربيّة، فلذا شكّلت دول الأولى ممرًّا ومعبرًا للتسرّب إلى الثانية بطرق غير شرعيّة. وهناك المئات من العائلات التي غُرّر بها، وعندما وصلت إلى أوروبا الشرقيّة تركها السماسرة تواجه مصيرها المجهول، وهربوا بالأموال التي تقاضوها منها على أساس إدخالهم إلى دول أوروبا الغربيّة وكم من الناس تركوا في غابات موحشة، أو في الجبال أو الأودية المجهولة، كان السماسرة الآثمون النصّابون، قد وضعوا فيها أسماء لدول أوروبيّة غربيّة لخداع الناس وتضليلهم، ليجد الهارب من هؤلاء المساكين نفسه بين أيدي السلطات الشرقيّة التي تعتقله وتودعه السجن.

أمّا مَن تمكّنوا من العبور إلى منافذ حدود الدول التي يقصدونها، فقد مزّقوا جوازات سفرهم ونثروا أجزاءها في فضاء الدنيا أو أطعموها للنيران، بغية تفادي ترحيلهم، وكأنّهم بذلك يقطعون آخر حبال السرّة التي كانت تربطهم بماضيهم

قبل لحظة وصولهم، فلا الأرض أرضهم، ولا الأسماء أسماؤهم. إنّهم مخلوقات بلا ماض ولا ذاكرة ولا هويّة، وقد انفجرت فيهم غيمة سارحة وأسقطتهم فوق أرض غريبة عجيبة يطلبون فيها حقّ الحياة الآمنة، وحقّ الوجود الإنسانيّ، وحقّ الإقامة القسريّة المسماة دبلوماسيًا "حقّ اللجوء" القائم على "حظر الطرد أو الردّ". هكذا لقّنوا الدرس قبل أن يقذفوا بهم إلى المجهول، وحفّظوهم عن ظهر قلب مضمون المادّة 33 من "اتّفاقيّة اللاجئين" لعام 1951، التي تنصّ على أنّه "لا يجوز لأيّة دولة متعاقدة أن تطرد لاجئًا أو تردّه بأيّة صورة من الصور إلى حدود الأقاليم التي تكون حياته أو حرّيّته مهدّدتين منها بسبب عرقه أو دينه أو جنسيّته أو انتمائه إلى فئة اجتماعيّة معيّنة أو بسبب آرائه السياسيّة."

من هنا تبدأ الحكاية الطويلة الطويلة، الذاخرة بالأحداث والمواجهات والعذاب، لكنّها تحمل الأمان النفسيّ والجسديّ على الأقلّ.

إستناداً إلى هذه القوانين الدوليّة التي ترعى هذا الجانب الإنسانيّ وتقيّدًا بها أثناء الحوادث والكوارث والحروب، أقامت دول اللجوء، وأوروبا بشكل خاصّ، مجمّعات ومخيّمات موقّتة لإيواء هؤلاء اللاجئين، وأبقتهم على أراضيها، ومنحتهم قسائم للحصول على الطعام تمهيدًا للتحقيق معهم والتحقّق من دعواهم، لإصدار شهادات قيد لهم، بعد أن أقدم الكثيرون منهم على تغيير أسمائهم ودياناتهم وأماكن إقامتهم، ريثما تتمّ دراسة أوضاعهم والموافقة على طلب لجوئهم أو رفضه.

لا أريد أن أحدّثك عمّا تعرّض له هؤلاء المشرّدون من ظروف معيشيّة وصحيّة واجتماعيّة بالغة الصعوبة في وقت انتظار الفرج، فلا هم يعرفون لغة البلاد

التي قدموا إليها، ولا هم يتمتّعون بحقّ الإقامة الشرعيّة التي تخوّلهم العمل القانونيّ أو قيادة سيّارة أو استئجار منزل يأويهم، أو الحصول على الرعاية الصحيّة والاجتماعيّة المتاحة بالمجان لسكّان البلاد، وقد تعرّض الكثيرون منهم للعنف والاضطهاد في مراحل عديدة من وجودهم غير القانونيّ، لكنّهما بالتأكيد وفي جميع الحالات، لم يبلغا جزءًا بسيطًا مما كانوا يتعرّضون له في أوطانهم.

كان هؤلاء الشباب تحت ظروف إنسانيّة شاقّة، يقتاتون بما تيسّر لهم، ويعيشون منزوين عاطلين معزولين، كأنّهم وباء يتجنّبه المحيطون بهم من كلّ جانب. وكثيرًا ما وقع بعضهم، نتيجة الشعور بالإهانة والذلّ والضغط النفسيّ فريسة للمرض والعلل، أو ضحايا الاقتران بفتيات امتهنّ حرفة الإيقاع بأمثالهم المحتاجين، فمارسن عليهم أبشع أنواع الابتزاز الماليّ والنفسيّ، للقبول بالزواج من إحداهنّ طمعًا في تسريع الحصول على الإقامة الدائمة القانونيّة والتمتّع بمزايا المواطن. ولا تسل عن المآسي الشخصيّة والعائليّة والاجتماعيّة التي سقط بسببها بعضهم ودفنوا في بلاد الغربة دون أن يعلم عنهم ذووهم أيّ شيء، ولا عن الجرائم التي ارتكبت من جرّاء هذه الظاهرة الغريبة عن العادات والتقاليد والمفاهيم لهؤلاء الشباب، القادمين من بلاد محرومة، يشكّل الجنس لديها عنصرًا أساسًا من عناصر الشرف والكرامة والرجولة، وترتكب من أجله وبسببه مآسٍ وكوارث تعرف بـ "جرائم الشرف" وكرامة العائلات وسمعتها، واللاجئين إلى بلاد أغلب مواطنيها من العلمانيّين الذين لا تعنيهم طبيعة العلاقة بين حرّيّاتهم الشخصيّة والعامّة وبين تعاليم الأديان والشرائع. وقد تجلّت هذه المآسي بشكل واضح عند إنجاب الأطفال ووقوع النزاعات بين الطرفين بشأنهم.

كما أنّ بعضهم اضطرّ للتحايل على الأنظمة والقوانين، فراح يعمل بالخفاء عن أعين رجال الشرطة، في مجالات تصعب مراقبتها كالزراعة ومقاولات البناء وشراء وبيع السيّارات المستعمله وبعض الأعمال البسيطه، لضمان دخل يعينه على تلبية حاجاته المعيشيّة، فوقع أيضًا ضحيّة استغلال أصحاب العمل الجشعين الذين مارسوا عليهم أقسى الشروط وبخسوهم أجورهم وحرموهم من الحقوق المتوجّبة لهم، إضافة إلى هاجس الخوف الذي كان يقضّ مضاجعهم ليل نهار، خوفًا من الوقوع في أيدي الشرطة والتعرّض للعقوبات.

كانت تجربة اللجوء التي خاضها الشباب الشيعة في هذه البلاد من أقسى التجارب وأشدّها إيلامًا، ومع هذا فقد تحمّلوها بصبرٍ وأناة ومجالدة بانتظار لحظات الفرج التي طالت سنوات وسنوات.

اللهمّ أرنا الحقّ حقًّا وألهمنا اتّباعه، واتّباع الحق يوجب أن أسجّل للدول الأوروبيّة التي تختلف عنّا دينًا ومعتقدًا وعاداتٍ، إنسانيّتها التي عاملت بها المهاجرين غير القانونيّين، إذ كانت السلطات والناس أكثر عطفًا ونبلاً معهم من زعمائهم المجرمين في الوطن الذين تخلّوا عنهم وكانوا سبب مآسيهم بعد أن بذلوا لهم الغالي لتكريس زعاماتهم هم وعائلاتهم وأزلامهم فاقدي العقل والإنسانيّة.

ومن هذا المنطلق والمنطق أشعر بأنّ للأوروبيّين دينًا علينا، حيث إنّ معظم العائلات التي أنعم الله عليها بشكل أو بآخر، كانت معدمة لا تملك من متاع الدنيا شيئًا، وكانت هاربة من الجحيم عندما وجدت اليد الممدودة إليها والعطف الذي فقدته بين إخوانها العرب الذين يشاطرونهم اللغة والدين والعادات والتقاليد والتراث والماضي والحاضر . ولا أعرف ماذا يمكن أن يكون عليه مصير من

يتجراء ويدخل إلى دولة عربيّة إسلاميّة بطريقة غير شرعيّة كما فعل في دول أوروبا؟!...

كان أحدهم إذا مُنح حقّ الإقامة الدائمة (التي كان المهاجرون يسمّونها الاقامة المفتوحة)، يشعر كأنّه وُلد من جديد على هذه الأرض. ولا يمكن تصوّر مدى السعادة التي تنتابه وكأنّ أبواب السماء قد انشقّت وأمطرته بالنعم والخيرات، بل كأنّ الدنيا فتحت له قلبها بعد طول عناء، وأبواب الأمل الموصدة قد شرّعت في وجهه، لينفض عنه كتل الغبار التي تكدّست فوق كاهليه، وينطلق في مرحلة جديدة ويعيش حياته بصورة إنسانيّة طبيعيّة كالآخرين.

ومن أقسى حالات التمزّق النفسيّ واختلال موازين الشعور وتنازعها ما بين التعلّق بالوطن واللهفة للعودة إلى أحضانه، حيال ما يعانيه هؤلاء الشباب من ذلّ وعذاب وشقاء في بلاد غريبة، وما بين الرعب الذي بات يمثّله هذا التعلّق وهذه اللهفة في وجدانهم وضمائرهم لحظة استعادتهم الأحداث الجسام التي دفعت بهم إلى هذه التجربة المرّة والمؤلمة لقد عاشوا حالة استلاب وانكسار كاملين، بحيث كان الواحد منهم، على الرّغم من كلّ ما أصابه من جراح نفسيّة ومعنويّة من جرّاء هذه المغامرة، يتمنّى في أعماق ذاته أن تستمرّ الأوضاع السيّئة في وطنه، وأن يتواصل القتال والخراب، خوفًا من الزامه بالعودة عند انتهاء هذه الأحداث، كما تنصّ عليه القوانين المرعيّة بخصوص اللاجئين، ويفقد بذلك حقّ البقاء في هذه البلاد.

هل يدرك تجّار الحرب ماذا فعلوا بهؤلاء الضحايا؟ هل يعرف زعماء الدين السياسيّون، وزعماء السياسة الطائفيّون، في أيّ مستنقع من الأمراض النفسيّة والعقليّة والجسديّة قذفوا بأبنائهم وإخوانهم، الذين كانوا يدعون الله لاستمرار

عجلة الموت التي تحيط بوطنهم وأهلهم وأسرهم، كي لا يجبروا على العودة إلى جهنّمهم الأرضيّة؟ هل جرّب أحدهم هذا الصراع النفسيّ القاتل، وهذا الشعور الجنونيّ الغريب؟ ترى، هل هناك أبشع من هذه الصورة المطبوعة في الأذهان عن وطن تحوّل إلى وحش كاسر يلتهم لحم أبنائه ويتلهّى بعظامهم موتى وهم أحياء كذلك؟

هل يمكن لأحدهم أن يتخيّل تفاصيل هذه الملحمة الدامية؟ هل يمكن لأحد أن يتصوّر مدى الحرقة واللوعة التي عاشها أهل هؤلاء، وهم يعرفون أو لا يعرفون، ماذا حلّ بفلذات أكبادهم ومعقد آمالهم ورجاء مستقبلهم؟ هل يمكن للمنظّرين والنافخين في النار وأسياد الساحات وتجّار الموت، أن يفهموا لماذا تجشّم هؤلاء الشباب كلّ هذه الصعاب وركبوا مراكب الخطر، ومن دفعهم إلى ذلك بعد أن كانوا آمنين مطمئنّين في بيوتهم ووطنهم وفي أحضان عائلاتهم، يرسمون لغد مليء بالأحلام والأمنيات؟ وهل يحقّ لمن أحرق بيديه الأخضر واليابس في أرجاء الوطن من أجل أطماعه وغاياته ورغبات مموّليه أن يعيّر الأبرياء الفارّين من أتون النار؟ وليس عبثاً أن حذّر الشاعر الناس من تتبّع خطى الذئاب واللحاق بركاب الفاسدين في الأرض، ويدعوهم إلى الابتعاد عن إغواءاتهم وتدليساتهم السامّة، فقال:

"ومن يكن الغراب له دليلاً يمرّ به على جيف الكلاب."

لقد تسنّى لي خلال رحلتي الاغترابيّة، أن ألتقي العديد من هؤلاء المعذّبين، وأن أتابع الكثير من أخبارهم ومشاكلهم وقد لمست وشهدت بعض ما يعانون، فكان يُدمي القلب ويجرحه، ويثقل على نفس العدوّ قبل الصديق، ويدعو إلى الأسى والأسف. وبفضل الله وتوفيقه، مددت يد العون للبعض، خاصّة في

رومانيا وعملت ما استطعت لتسهيل أمورهم ورفع الظلم عنهم ومساعدتهم في معالجة أوضاعهم، كما فعل الكثيرون من أبناء الجالية اللبنانيّة الأفاضل، في وقت غابت فيه وزارات الدولة اللبنانيّة ودوائرها ومحتلّو الكراسي فيها عن السمع، وكأنّ هذه الشريحة من الناس لا تعنيهم ولا تنتمي إليهم ولا هي من عداد القطيع الذي يرعونه ويحكمون باسمه ومن أجله!

على الرّغم من هذه الصور القاتمة المحزنة، فقد استطاع عدد كبير من اللاجئين من أبناء الجنوب المعذّب، أن يعضّوا على الجراح وأن يدفنوا مأساتهم بين الأضلاع، وأن يتجاوزوا كلّ هذه العوائق، ويشقّوا طريقهم بعرقهم وسهرهم، فنجحوا في الحصول على الإقامة القانونيّة في مختلف البلاد الأوروبيّة وغيرها، كما حصلوا على جنسيّة تلك البلاد دون أن يطلب منهم أحد أن يغيّروا دينهم، كما لم يضع عليهم أحد شروطًا في ممارسة عباداتهم، وقد كانوا أكثر حرّيّة وكرامة واحترامًا منهم في الوطن.

لم يمضِ طويل وقت، وبعد استتباب أمورهم وتسوية أوضاعهم في البلدان المضيفة، تمكّن نفر منهم التعويض عن عذاباتهم، فدرسوا وتعلّموا وجاهدوا وأسّسوا المصانع وفتحوا المؤسّسات، وشرّفوا أهلهم ووطنهم وأعادوا صورة لبنان إلى حقيقتها لدى مختلف الدول والهيئات، وقدّموا بلدًا غنيًا بالشرفاء من أبنائه، قادرًا على انجاب العظماء، وليس بلدًا حكرًا على زعماء الطوائف وأزلامهم ومن لطّخ سمعته بالطين وأوحال الطائفيّة والسياسة.

أضف إلى ذلك أنّ هؤلاء المجاهدين الكبار، ما أن استقرّت أوضاعهم القانونيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، حتّى سارعوا، بكلّ ما أوتوا من عزم وقوّة، إلى بذل ما يملكون من أجل عائلاتهم الملتاعة عليهم في الوطن، فراحوا يرسلون لهم

الأموال والمساعدات للتخفيف عن معاناتهم المعيشيّة، وأعادوا بناء ما تهدّم وما دُمّر من بيوتهم ومؤسّساتهم، وكافحوا من أجل تأمين فرص إخراج إخوانهم وإبعادهم عن أجواء التقاتل والبغضاء والعداء، واستقدامهم بصورة قانونيّة إليهم وإلحاقهم بالمدارس والجامعات، كما حملوا آباءهم وأمّهاتهم إليهم، ليعيشوا بينهم مكرّمين آمنين، يتنسّمون أريج الحرّيّة والعدالة، ويتذوّقون طعم الكرامة الإنسانيّة، وينسون مرارة الفراق وقساوة الأيّام السوداء التي مرّت عليهم . فكان هؤلاء المبعدون قسرًا وظلمًا وعدوانًا، مثالاً في الوفاء والبرّ بالوالدين وبالوطن، وعبرة ومثالاً لمن يشاء المماثلة بين من عمل على بناء الوطن وأمن أهله واستقرارهم وبين من يعمل على تدميره والغاء مؤسّساته وتقطيع أوصاله وتفريغه من خيرة شبابه وعماد قيامه، ويقضي على مُثُل التآخي وقيمه والتفاهم بين أبنائه.

أمّا الوفاء الأوفى، والقول الأتقى والذكر الأنقى في هذا المجال، فأخصّ به للحقيقة وللتاريخ تحيّة إكبار للشعب الالماني خاصّة والشعوب الأوروبيّة عامّة، حيث تسنّى لي مصادفة من خلال ممارسة أعمالي التجاريّة هناك، أن أرى بأمّ العين نظرًا إلى قربي من موقع الحدث، المعاملة الإنسانيّة الرفيعة والعطف الكبير من السكّان المدنيّين الألمان على المهاجرين من مختلف أنحاء العالم، ومنهم شيعتنا الذين أصبح بعضهم من كبار التجّار هناك، كما أنّ أولادهم دخلوا المدارس ومنهم من وصل إلى مستويات علميّة مشرّفة، ولكن بقيت النكبة تلاحقهم لأنّهم، كما ذكرنا، "شعب الله المحتار" فتراهم محتارين في حبّ الوطن لا يعرفون أنفسهم ألمان هم أم لبنانيّون؟ فمنهم من حبّذ العودة للبنان وهو مسلّح بالجنسيّة الألمانيّة والأوروبيّة، فخسر أولاده سنة دراسيّة لعدم

معرفتهم اللغة العربيّة، ثمّ فاجأته الأحداث والمعارك مرّة أخرى، فاضطرّ للعودة ثانية إلى ألمانيا ليخسر الأولاد سنة دراسيّة جديدة.

إنّ الشباب "المبعدين" عن أوطانهم، والذين اختاروا الهجرة كي لا يبقوا تحت رحمة الظلم والحرمان والقهر، غادروا مظلومين فقراء معدومين، لكنّهم حملوا وطنهم في جوارحهم، فحافظوا على تواصلهم معه في أحلك الظروف، وفي جميع المناسبات، ومهما نأت بهم المسافات، وعادوا إليه ميسورين ناجحين رافعي الرؤوس، وساهموا أثناء غيابهم وبعد عودتهم الدائمة والموقّتة بتحسين وتنمية أوضاع مناطقهم، ودفع عجلة اقتصادهم الوطنيّ، وفتح العديد من المشاريع الخيريّة والمؤسّسات التي كفلت العمل لمئات الشباب المتعلّمين، وضمنت الاستقرار الاجتماعيّ لعائلاتهم، كي لا يدفعهم العوز إلى أبواب السفارات وترك الأرض. لكنّ الذين أبعدوا هؤلاء الشباب، وكانوا سببًا في كلّ ما أصابهم وما ذاقوه وأهلهم من مرّ العذاب، فقد تسلّطوا على رقاب الناس وخيرات الوطن، فاغتنوا على حساب عرق الفقراء وجهلهم، وشيّدوا القصور بأموال السطو والرشوة والاحتيال، وافتعلوا الحروب وخاضوا المعارك بأرواح الشباب الأبرياء المضلّلين. حتّى اذا ما هبّت الريح لتكشف عنهم ورقة التوت التي تخفي عوراتهم تلاشى صراخهم وضجيجهم ثم وجدناهم وقد أصبحوا في مراكز القيادة الرسميّة ليقف الناس لهم إجلالا وتقديرًا، وأصبح صوتهم من على المنابر يحدث في الآذان وقرًا وفي النفوس غورًا. وتناسوا ما كانوا يعيبونه على المغتربين الشرفاء من تركهم "الجهاد الأكبر" من أجل حياة أفضل وأشرف.

ورحم الله شاعرًا إذ يقول:

"فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء."

ورحم الله "سعيد تقيّ الدين" إذ قال: "أفصح ما تكون القحباء عندما تحاضر بالعفاف."

-11-

الهجرة إلى بلاد العرب

يخيّل لنا دائمًا، ونحن نطرق موضوع هجرة الشيعة بحلوها ومرّها، أنّ معاناتها هي وقف على الدول الغربيّة والافريقيّة ليس إلاّ، ولا تنسحب على البلاد العربيّة الأخرى، وذلك نظرًا إلى الصعوبات التي يتكبّدها المهاجر في سبيل الحصول على الموافقة على طلبه، ثمّ في الانتقال إلى بلاد غريبة في لغتها وعاداتها وأنظمتها وعقائدها الدينيّة، وأيضًا بسبب المسافات البعيدة التي تفصل بينها وبين وطنها الأمّ، وتسبّب الانقطاع عن زيارة الأهل وتحول دون تحقيقها بشكل دوريّ وفي ظروف طارئة ومناسبات عزيزة، نظرًا إلى تكاليف السفر وأعبائه، ولا سيّما لدى أصحاب العائلات.

قد تكون هذه النظرة منطقيّة للوهلة الأولى. لكنّها في الحقيقة غير صحيحة في أغلب الأحيان، وبالنسبة إلى الشيعة. تحديدًا.

مفهوم الهجرة إلى أيّ بلد عربيّ لا تنطبق عليه أصول الهجرة وقواعدها بالمعنى الاغترابيّ الذي اعتاده الناس تاريخيًا في لبنان. لأنّ مفهوم الهجرة كما هو مطبوع في الذاكرة والأذهان، يعني ترك البلد والانتقال إلى بلد آخر غريب في الغالب الأعمّ، والاستقرار فيه مع العائلة بكلّ حقوق المواطنيّة وامتيازاتها، العمل والسكن والتملّك والرعاية الصحيّة والاجتماعيّة وغيرها، ما عدا ممارسة الحقّ الانتخابي طبعًا، لحظة الوصول مهاجرًا إلى البلد ثمّ بعد انقضاء مدّة زمنيّة محدّدة يتمّ الحصول على الجنسيّة تبعًا لقوانين وإجراءات واضحة ودقيقة، وتكتمل بها جميع الحقوق السياسيّة والبلديّة، ليصبح هذا البلد المُختار الوطن

الثاني مع لبنان   هذا الأمر يكاد ينطبق على جميع البلاد التي تستقبل المهاجرين وتضع ذلك ضمن خططها واستراتيجيّاتها المستقبليّة .باستثناء الدول العربيّة.

الانتقال إلى بلد عربيّ، وما نقصده هنا، الدول مستقطبة المختصّين في مجالاتهم ورجال الأعمال والأيدي العاملة "الأجنبيّة" بسبب أوضاعها الاقتصاديّة المتقدّمة، أي دول الخليج العربيّة، فهي لا تنطبق عليها أساسًا معطيات الهجرة ومفاهيمها التي تمّ ذكرها تلخيصًا، لأسباب عدّة أهمّها:

أوّلاً: هذه الدول ليست من الدول المحتاجة إلى مهاجرين لسدّ احتياجاتها البشريّة من السكّان، كما هي الحال لدى الدول الأخرى   ولا تخطّط لذلك في أيّ من برامجها أو خططها أو سياساتها المستقبليّة . صحيح أنّها محتاجة إلى مؤهّلات واختصاصات وعمّال ولكنّها ليست بحاجة إلى مهاجرين بالمعنى المُتعارف عليه.

ثانيًا: نظرًا إلى هذا الواقع، فإنّ هذه الدول لا تمنح الجنسيّة لأيّ مقيم أجنبيّ، مهما طالت مدّة إقامته، حتّى ولو كان مولودًا فيها، إلاّ في نطاق ضيّق ومحدود واستثنائيّ.

ثالثًا: من يريد القدوم للعمل أو للزيارة في هذه البلاد يحتاج إلى ما يعرف بـ "عدم الممانعة" أو "بطاقة الزيارة"، أي أن يتمّ طلبه بصورة رسميّة من شخص أو شركة أو جهة تكون له كفيلاً مسؤولاً عنه.

رابعًا: يحظى المقيم بما يعرف بـ "الإقامة المحدّدة" بمدّة زمنيّة لا يمكن تجاوزها ويجب تجديدها فور انتهاء مدّة صلاحيّتها.

خامسًا: يحظى المقيم بالرعاية الصحيّة ضمن رسوم ماليّة معيّنة.

سادسًا: لا يتمتّع المقيم بحقّ تعليم أبنائه في المدارس الرسميّة، ولا بالتملّك، ولا بامتيازات المواطنيّة الاجتماعيّة أو السياسيّة، كما لا يحقّ له إنشاء أيّة مؤسّسة تجاريّة إلاّ بوجود كفيل وطنيّ.

سابعًا: لا يحقّ للمقيم أن يمنح كفالته لأبنائه "إلتحاق بعائل"، بعد تجاوز أحدهم الثامنة عشرة.

لهذه الأسباب ولغيرها بالطبع لا ينطبق مفهوم الهجرة الفعليّة على مثل هذه البلاد، ويمكن أن تكون مقصدًا، وهي كذلك فعلاً، للعديد من الطاقات الشبابيّة وأصحاب المؤهّلات العلميّة والمهنيّة، الذين يريدون التوجّه إليها بدافع العمل وتحسين أوضاعهم الاقتصاديّة واكتساب الخبرة، والتأسيس للمستقبل هي إذًا، مشروع عمل وليست مشروع هجرة، حيث هناك الكثيرون ممن يعملون في إحدى هذه الدول يطلبون الهجرة إلى دولة غربيّة أخرى رغبة في الشعور بالاستقرار الاجتماعيّ والتمتّع بحقوق المواطنيّة والجنسيّة والمزايا الأخرى. علمًا أنّ دول الخليج العربيّة بعامّة، قد حضنت مئات الآلاف من العائلات العربيّة من مختلف الأقطار، واستقرّت بها وعملت وكسبت وحقّقت مواقع وثروات كبيرة، وخصوصًا من الفلسطينيين الذين قصدوها بعد النكبة وبعد حرب حزيران 1967، حيث شغلوا العديد من المناصب في مختلف المجالات الرسميّة

والخاصّة، وساهموا إلى جانب اخوانهم العرب مساهمة واضحة في نهضة هذه الدول وتقدّمها.

على الرغم من أنّ المواطن العربيّ المسلم، المقيم في إحدى هذه الدول، يشعر بالارتياح كونه في بلد عربيّ مسلم، يتكلّم اللغة نفسها ويدين بالعقيدة نفسها، ويمارس الكثير من العادات والتقاليد والمفاهيم التي تتشابه أو تتطابق مع ما نشأ عليه . وعلى الرغم من قرب المسافة من الوطن ممّا يتح زيارة الأهل والتواصل والمشاركة في المناسبات العائلـيّة والاجتماعيّة بيسر وسهولة، وبتكاليف بسيطة غير مرهقة وعلى الرّغم من الدخل الماديّ المعقول الذي يمكن أن يناله الفرد، ليعيش مع أسرته حياة كريمة راقية . إلاّ أنّ هاجس الاستقرار يبقى ملازمًا له ففي غياب الحقوق الشخصيّة الأوّليّة، فلا هو مطمئنّ على غده وغد أولاده، ولا على بقائه في عمله، فيظلّ قلقًا، وقد يجد نفسه فجأة فاقدًا عمله، وعليه إذ ذاك أن يغادر وعائلته البلاد ضمن مدّة محدّدة، الأمر الذي يولّد لديه شعورًا عامًا بعدم وجود رابط وثيق يربط البلد بالمقيم أو يربط هذا الأخير بالبلد الذي يعمل فيه.

أضف إلى ذلك أنّ شعورك، أنت العربيّ في بلد شقيق وتُعامل كأجنبيّ وربّما دون ذلك، يولّد لديك إحساسًا بالإهانة والتمييز والظلم، حيث إنّ الكثيرين من رعايا الدول الغربيّة يمكنهم ببساطة الدخول إلى أيّ بلد خليجيّ دون اذن أو تأشيرة دخول مسبقة، وهذا ما لا يتمتّع به المواطن العربيّ كما أنّ الأجنبيّ يحظى بمعاملة وتقدير ماديّين أفضل بكثير من نظيره العربيّ، الأمر الذي دفع بالكثيرين من المقيمين العرب، وبعد مضيّ عشرات السنوات على وجودهم، إلى الهجرة للحصول على جنسيّة أجنبيّة أخرى، والعودة ثانية للعمل في الدولة

الخليجيّة نفسها بمرتّب يوازي أضعاف ما كان يتقاضاه، وبمزايا وعطاءات أفضل، لكونه يحمل جنسيّة أجنبيّة.

وجود العربيّ في إحدى دول الخليج، لا يختلف عنه في أيّ بلد عربيّ آخر، حيث تنعدم الممارسة الديموقراطيّة ويتقلّص هامش الحرّيّات وتضيع مفاهيم حقوق الإنسان وحقوق المرأة. فالمقيم إذًا هو أمام صورة مستنسخة عن أوضاع بلاده، ولا يمثّل أكثر من فرد في معسكر عمل كبير وواسع، محظور عليه أن يمارس أو ينخرط في أيّ نشاط أو تجمّع خاصّ بالمواطنين.

هذا بالنسبة إلى العربيّ بشكل عامّ. أمّا بالنسبة إلى المسلم الشيعيّ فإنّ المعاناة مضاعفة ومعقّدة أكثر من غيره من المسلمين الآخرين، لأسباب داخليّة وخارجيّة.

من المعروف أنّ الشيعة يشكّلون أقلّيّة محدودة في دول الخليج العربيّة وسط غالبيّة سنيّة. وأنّ بعضهم يعود إلى أصول فارسيّة قدمت من إيران منذ زمن بعيد، نظرًا إلى القرب الجغرافيّ، وأقامت في إحدى هذه البلاد وحصلت على جنسيّتها واستقرّت فيها عبر أجيال طويلة.

من المعروف أيضًا أنّ حضور التيّار الدينيّ ودوره وتأثيره كبير وهامّ ومؤثّر في سياسة أغلب هذه الدول وأنظمتها لذلك، شعر الشيعة عمومًا ببعض الحرمان في ممارسة حقوقهم وتقلّدهم مناصب فيها، وخصوصًا في المراكز الحسّاسة والوزارات الفاعلة والرتب العسكريّة. كما واجهوا بعض القيود في إقامة شعائرهم الدينيّة، أو نشاطاتهم السياسيّة والاجتماعيّة.

كانت حدّة هذا الواقع عبر مراحل التاريخ، تتصاعد أو تنخفض تبعًا لسياسة الحاكم ومدى العلاقات التي تربطه بشخصيات الطائفة إلاّ أنّها أخذت طابعًا أكثر حدّة ومشوبًا بالحذر والريبة في أعقاب انتصار الثورة الاسلاميّة في إيران عام 1979، وتواتر الخطاب التصعيديّ لمبدأ "تصدير الثورة خارج الحدود، وتزايد النفوذ الإيرانيّ في لبنان والمنطقة عمومًا، ما أثار حفيظة الأنظمة الخليجيّة وحكّامها وأهلها، واعتبروا أنّ هذا الخطاب موجّه للمواطنين الشيعة في بلادهم لإثارة القلاقل السياسيّة والفتن الطائفيّة بذريعة الدعوات الاصلاحيّة والتحرّريّة، ما قد يعرّض أمن هذه البلاد وأنظمتها للخطر.

ازدادت وتيرة هذا التصاعد، أثناء الحرب اللبنانيّة الأهليَّة والحرب العراقيّة الإيرانيّة، حيث أصبحت العلاقة بين الشيعة والأنظمة الحاكمة تخضع لمعايير الأحداث الخارجيّة في مدّها وجزرها، لا سيّما بعد تمدّد نفوذ "حركة أمل" و "حزب الله" الشيعيّين في لبنان، وتصاعد تأثيرهما في مجرى الأحداث والمواقف السياسيّة اللبنانيّة والعربيّة.

بسبب هذه العوامل، واجه الشيعة المقيمون في دول مجلس التعاون الخليجيّ، أو الراغبون بالعمل فيه من البلاد الأخرى، تحفّظات واسعة وقيودًا حادةً في بعض الأحيان تبعًا لارتفاع وتيرة الأحداث الخارجيّة أو انخفاضها، فأصبح الشيعيّ، اللبنانيّ تحديدًا، الذي يرغب بالحضور إلى إحدى الدول الخليجيّة عرضة للتضييق والعوائق كما أصبح متّهمًا وموضع شبهة ومراقبة ومثار تساؤل.

كثيرًا ما واجه بعض الشيعة، بسبب انتماءاتهم السياسيّة أو تأييدهم العلنيّ للأحزاب الشيعيّة، أو بسبب الأحداث الأمنيّة التي كانت تدور في لبنان

والعراق، الضغوط التي وصلت إلى حدّ الغاء عقود عملهم وشطب إقاماتهم وطلب مغادرتهم البلاد، لدواع أمنيّة مواجهين بذلك خسارة أرزاقهم ومصدر معاشهم، وبلبلة في أوضاع أسرهم وأولادهم وحياتهم الاجتماعيّة.

وما أزال أذكر، وأنا منهمك في كتابة فصول هذا الكتاب في آب/يوليو 2009، الأخبار المتواترة من مصر عن إعتقال مجموعة من الأشخاص من بينهم احد الشيعة اللبنانيّين المنتمين إلى "حزب الله"، وتحويلهم إلى المحاكمات بتهمة الإعداد لـ "حوادث" أمنيّة وتعريض الأمن الوطنيّ للخطر، تأييدًا منهم لحركة "حماس" الفلسطينيّة، في أعقاب الاعتداءات الإسرائيليّة على غزّة (2008). وكذلك تعرّض بعض الشيعة اللبنانيّين في المغرب العربيّ، والمملكة العربيّة السعوديّة ودولة الإمارات العربيّة المتحدّة والأردن، إلى الاعتقال والإبعاد، بسبب دعوتهم إلى التشيّع أو بذريعة تقرّبهم من بعض فصائل المقاومة!

لا جرم أنّ معاناة الشيعة بين أهلهم وجيرانهم كانت أشدّ مضاضة وقساوة، فبالإضافة إلى ما تكبّدوه في لبنان من جور وتحكّم وفساد وظلم دفعهم إلى البحث عن مصدر للرزق خارج أوطانهم، بسبب النظام السياسيّ الطائفيّ وتحكّم الطبقة الحاكمة بحياتهم ومستقبلهم، وجدوا أنفسهم مجدّدًا تحت مطارق التمييز نفسها وتحت تأثير العوامل السياسيّة والأحداث الإقليميّة المحيطة بهم من كلّ جانب.

-12-

الهجره الى الله

لو توقّفت هذه المعاناة عند حدّ الأمور الدنيويّة الحياتيّة والسياسيّة لهان الأمر، ولكن أن تصل إلى أعتاب بيت الله الحرام وإلى ركن هام من أركان عقيدتنا وإسلامنا، ألا وهو الحجّ، فذاك دليل على جنوح المسألة لمواضع تدلّ على عمق الهوّة واتّساع الفرقة، وتنذر بمخاطر كبيرة على الإسلام والمسلمين، إذا لم يتمّ تداركها وتطويقها ومعالجتها قبل أن تستفحل وتستعصي على العلاج.

إنّ الشيعة الذين يمدّهم الله بعونه والقدرة على أداء فريضة الحجّ وزيارة البيت الحرام وقبر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، إتمامًا لأركان الإسلام الخمسة- {حَجُّ البَيْتِ لِمَنِ استَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيْلاً }، يعانون أثناء تأدية هذا الفرض الدينيّ في ديار المسلمين، وبين إخوانهم في الدين، نوعًا مؤلمًا من التمييز وممارسات التضييق والضغط، بما لا ينسجم مع تعاليم ديننا الحنيف وقدسيّة هذه الشعيرة السامية في نفوس المؤمنين.

تبدأ معاناة الشيعيّ منذ لحظة محاولته الحصول على التأشيرة الرسميّة لدخول أراضي المملكة العربيّة السعوديّة وزيارة الديار المقدّسة، وترافقه عند وصوله إلى جدّة حيث ينتظر المؤمنون المتعبون ساعات وساعات طويلة، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء في جوّ حارّ لا يطاق، حتّى تتوفّر وسيلة النقل إلى "الجحفة"، وهي من مواقيت الإحرام عند الشيعة وما أن تصل الحافلات المهترئة بسائقيها الغارقين بالفقر والحاجة والبلاء، حتّى تبدأ باستغفار ربّك من النكبة التي حلّت بالمسلمين.

تفتقر الجحفة إلى وجود حمّامات كافية ونظيفة لحاجات الحجيج للاغتسال قبل الإحرام، إلى جانب الإهمال وعدم العناية، حيث لا تجد مسمارًا في جدار تعلّق عليه منديلك حفاظًا على الطهارة التي هي بند أساس من مناسك الإحرام.

إنّه التمييز المذهبيّ ضدّ أبناء الشيعة المسلمين الذين يهاجرون إلى الله يطلبون رضاه وغفرانه، مهلّلين مردّدين مع الجميع : "لبّيك اللهمّ لبيّك "وكم كنت أشعر بالأسى الكبير وبالحزن وأنا بين يدي الله اتمّم فريضة الحج، ركن الإسلام الخامس. وحبّذا يعاملوننا كسوّاح على الأقلّ كما نعامل نحن السوّاح العرب في بلادنا بالاحترام والتقدير.

تتواصل المعاناة خلال القيام بمناسك الحجّ حيث يشكو الجميع من أمور النقل، إذ يضطرّ الناس إلى الانتظار أكثر من عشر ساعات لقطع كيلومترات قليلة من مكّة إلى عرفات وهذه معاناه جميع المسلمين القادمين لتلبيه فريضه الحج.

وهنا لا أريد أن أعفي بعض تجّار هذا الموسم الدينيّ المقدّس، من المعرّفين الذين يطوّلون لحاهم ومسابحهم وألسنتهم، ويعدون المؤمنين الطاهرين الذاهبين لأداء الفريضة بوعود لا يلبثون أن ينكثوا بها في مكّة رسول الله، ليكتمل المشهد وليرى المسلم أنّ الناكثين بعهودهم هم بعض من يدّعون التقوى، ويترنّمون ليل نهار بآيات الله الكريمة إنّه الجشع، إنّه البلاء، إنّه المخادعة، إنّه وجه من وجوه التأخّر والتخلّف واستغلال القيم والمبادئ والشعارات الاسلاميّة الدينيّة بهدف خداع الناس واستغفالهم وغشّهم ونشكر الله أنّه لا يسمح لغير المسلمين بالدخول إلى هذا المكان المقدّس، كي لا يقوموا بنقل ونشر ما يرون.

إنّي، وأنا المقيم في أوروبا منذ ثلاثين عامًا، وقد تعوّدت أن أذهب وعائلتي كلّ سنة لقضاء فصل الصيف في إحدى مناطق الاصطياف، لم أتعرّض مرة واحدة إلى أيّ نوع من ضروب الاحتيال والغشّ سواء في مكاتب السياحة والسفر أو في الفنادق أو في برنامج اشتركت به من قبل إحدى الجهات، ولا أذكر أنّني وجدت غير ما وُعدت إنّهم حقًّا الصادقون بعهودهم إذا عاهدوا، والصادقون في معاملاتهم وعلاقاتهم ووعودهم مع الآخرين فكم نحن بحاجة لمثل هذه النماذج لينظّموا لنا رحلات شعائرنا الدينيّة.

ثمّ تتوالى فصول المعاناة مع "المطوّعين" وطريقة تعاملهم مع الحجّاج ، يقابل ذلك دخول بعض الحجّاج محاطين بالحرس وبكلّ مظاهر الاجلال والأبّهة، أمام استهجان الآلاف المؤلّفة وتساؤلاتهم وكيف يكون التمايز حتّى في بيت الله الحرام حيث من المفترض أن يكون كلّ الناس فيه سواسية أمام ربّ العباد، يتجلّلون بثوب الإحرام الواحد، فلا فقير ولا غنيّ، ولا ملك ولا عبد، ولا رئيس ولا مرؤوس، و"**لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إلاَّ بِالتَقْوَى**."

وما أن تصل قوافل الحجّاج إلى المزدلفة بعد عناء طويل، حتّى تأخذهم الحيرة في إيجاد مكان ملائم لقضاء حاجاتهم، ويفاجأ الناس بأنّهم يجمعون الحجارة لرشق إبليس وهي مجبولة بالنجاسة والقذارة، فتعمّ الأمراض وتتفشّى الأوبئة بين الجميع. حتّى أصبح المرض أحد مناسك الحجّ غير المعلنة.

يتجلّى هذا التمييز لدى زيارة البقيع والدعاء وتأدية مناسك الطائفة تبعًا لما يؤمن الناس ويعتقدون. حيث يتعرّض لهم الموتورون بالاساءة، ويقطعون عليهم حبل عبادتهم لأنّهم لا يشاركونهم الرأي في ما يعتقدون، ويستخدمون معهم

العنف والتحقير، حتّى التوقيف في بعض الأحيان لمن يتجرّأ ويردّ عليهم، لأنّهم هم "أهل الإيمان"، والمسؤولون عن مصائر البشر وأقدارهم!

غريب كيف يستطيع المسلم أن يقيم صلاته في حديقة عامّة في بلدان لا تدين بالإسلام، ولا يستطيع أن يقرأ دعاء على ضريح وليّ من أولياء الله الصالحين في أرض الإسلام والمسلمين؟ !... أليست أمّتنا أمّة الحقّ والعدل و "خير أمّة أخرجت للناس."؟

نشرت الدكتورة "مي يماني"، كاتبة وباحثة سعوديّة في جريدة "القدس العربيّ" الصادرة في لندن، "سؤالين أساسيين عن دور المجموعات الأمنيّة، "المطاوعة"، لنهي الناس عن المنكر، المرادفة للأجهزة الأمنيّة الرسميّة في المملكة العربيّة السعوديّة. كتبت تسأل: عمّا إذا كانت هذه الأجهزة تمثّل دولة ضمن دولة، تستخدمها الجهات الرسميّة السعوديّة للمحافظة على ضبط التوجّهات الشيعيّة والإسماعيليّة والإسلاميّة الليبراليّة؟ وعمّا إذا كانت الدولة السعوديّة قادرة على ضبط المطاوعة وإيقاف ممارساتهم المبالغ فيها ضدّ سكّان المملكة كما حدث في عدّة مناسبات في الأعوام الماضية؟ علمًا أنّ مسؤولي وزارة الداخليّة السعوديّة أثنوا، حسب قولها، على دورهم في مكافحة الإرهاب في عام 2007.

وأشارت الدكتورة يماني، الباحثة في معهد "كارنيغي" بعد عملها سابقًا في معهدي "بروكينغز" و "تشاتهام هاوس" وفي جامعة الملك عبد العزيز في جدّة، إلى أنّه: "حان الوقت لتبديل سياسة بعض الجهات القياديّة السعوديّة التي تعتبر الشيعة ومخالفي الإسلاميّ المحافظ من الهراطقة والأخذ بالتوجّهات الداعية إلى الحوار بين المذاهب التي يشجّعها الملك عبد الله بن عبد العزيز."

كما دعت إلى "تفهّم توجّهات الأجيال الشابّة التي تمثّل أكثر من نصف عدد سكان السعوديّة."

إزاء ما يجري في أقدس مقدّسات الأرض، وبالأخذ بالحسبان مثل هذه الممارسات، لا بدّ أن نضيف إلى أسئلة الدكتورة يماني أسئلة أخرى عن احترام مناسك الحجّ في أعزّ مكان على قلوب الأنبياء؟ وهل أتى الشيعيّ إلى هذه الديار المقدّسة إلاّ لتنفيذ أمر الله أسوة بجميع المسلمين على الأرض؟ ولماذا على الشيعيّ، أن يدفع ضريبة الانتماء، وضريبة قرون طويلة من الاختلاف والخلاف؟

ولماذا إذًا التمييز والظلم على الشيعة الذين يهلّلون لأهل البيت الكرام ويقدّرونهم، والمكرّمين عند جميع المسلمين على مختلف مذاهبهم؟ إنّ تكريم الأولياء والصالحين يكاد يكون سمة مشتركة عند جميع المؤمنين من مختلف الأديان. وما أزال أذكر ما يجري عند إخواننا المسيحيّين من تكريم وتطويب متواصل للقديّسين الذين نذروا حياتهم لله ولخدمة الفقراء والمحتاجين وخصّصوا لهم أيّامًا يسعون إلى مقاماتهم ويطلبون شفاعتهم ويعلّمون أولادهم مآثرهم الفاضلة. ويبدو هذا التقليد واضحًا في مدينة "لورد" المقدّسة في فرنسا، حيث تجد هناك التنظيم والرقيّ والأجواء الروحيّة الهادئة والنظيفة، عندما يتوافد الناس مع أطفالهم وذويهم المعوّقين والمشلولين والمرضى لطلب الشفاعة والشفاء من القدّيسين.

ممّا لا شكّ فيه، أنّ ما يحصل من تجاوزات وتصرّفات غير مقبولة ومستهجنة أثناء فريضة الحجّ، ما هو إلاّ نتيجة طبيعيّة للتوتّرات السياسيّة القائمة بين الدول والأطراف المعنيّة، وكذلك لغياب وجود العقلاء والحكماء في الجانبين،

إذ يستغلّ نفر من هنا وهناك، شعيرة الحجّ للترويج لأغراض سياسيّة، أو القدح والذمّ بألفاظ نابية مرفوضة بحقّ بعض الرموز والمقامات الدينيّة، ما يثير الحفائظ والغرائز.

أودّ أن أذكر ما كتبه المفكّر والأديب "مؤيّد الشيباني"، في أحد مقالاته عام 2007، الذي يمثّل هذه المسألة تمثيلاً واضحًا وعميقًا:

"شهدت حوارًا بين شابين عربيّين مسلمين قال الأوّل بلغة احتجاجيّة وكأنّه يتّهم صديقه: هل يعقل أن يكون في إيران قبر يُزار ويقدّس للمدعو (أبو لؤلؤة) قاتل الخليفة عمر بن الخطّاب؟

فردّ عليه الثاني بنفس الاحتجاجيّة وهل يعقل أن يقدّس البعض يزيد بن معاوية ويحتفلون فرحًا في يوم العاشر من محرّم لقتل الحسين؟

ويختتم الشيبانيّ هذا المشهد الحواريّ المثير متسائلاً بحرقة واستنكار: " يا الله...من حمّل هؤلاء الشباب كلّ هذا الإرث؟ وكيف وصلت إلى موائدهم قشور القشور وضاع اللبّ في طريق طوله ألف وخمسماية عام؟

كم أتمنّى أن أستيقظ يومًا، لأسمع رجال الدين العلماء، من جميع الأطراف، يحرّمون التعرّض والإساءة إلى أيّ معتقد، مسلمًا كان أو غير مسلم، لا سيّما أنّ ما يجمع الطائفتين المسلمتين أكثر بكثير ممّا يفرّقهما، فالقرآن واحد، ونبيّهم واحد وسنّة رسوله واحدة وآل بيت محمّد هم عليّ وفاطمة وحفيدا الرسول سيّدا شباب أهل الجنّة الحسن والحسين، عليهم جميعًا أطهر السلام.

لا أهدف أبدًا في ما عرضت أن أبخس أو أغفل دور المملكة العربيّة السعوديّة، أو أن أقلّل من أهميّة الجهود والخطط الجبّارة التي نفذتها لتوسيع وتطوير وتحديث الأماكن المقدّسة وتوفير راحة الحجيج وتأمين الخدمات لهم ولكنّ أردت أن ألفت الأنظار إلى أنّ هذا العمران المذهل الذى يحيط بالكعبة المشرّفة كما في المدينة المنوّرة، لا بدّ أن يرصّع بمزيد من مظاهر الاحترام للفرد وحرّيته. كما رغبت أن أشير إلى أهميّة هذا المؤتمر الاسلاميّ الحاشد الذي يقام سنويًّا منذ آلاف السنين، وأنّ أوضح أنّ ضيوف الرحمن هم ضيوف الأهل الكرام في المملكة الذين ينتشرون على الطرقات متحلّين بأخلاق الإسلام يقدّمون الماء والطعام للحجّاج.

ومع تكاثر عدد الوافدين عامًا بعد عام، والذين يأتونه من كلّ فجّ عميق، وأمام انتشار الفضائيات وتطوّر الاعلام الذي ينقل مباشرة بالصوت والصورة وقائع مناسك الحجّ إلى العالم أجمع من البيت الذي بارك الله حوله، وجعله مصدر خير وهداية ومنافع للناس، فحبذا لو تعمل المملكة على إبعاد الحاقدين والموتورين والنافخين في نار الفتنه لأيّة جهه انتموا، حتّى تكتمل الصورة الأنصع أمام أنظار الدنيا وأسماعها، والمثال الأبرز للقريب والبعيد، على سموّ الاسلام ورحمته وحضّه على قيم التسامح والتوافق والاخاء بين الجميع.

-13-

حبّ الوطن معاناتنا الكبرى

من أكثر ما ينتاب المغترب أوجاعاً وتقيم معه، وتولّد لديه حزنًا وكآبة وكربًا، آلام الحب، حبّه لوطنه وتعلّقه به وحنينه الدائم إليه. فهذا الحبّ شكّل للمغتربين المعاناة الكبرى بسبب تعلّقهم بوطن اسمه لبنان، حيث إنّهم يعيشون عشرات السنين في دول العالم دون أن يغيب ذلك الوطن عن بالهم لحظة واحدة. إنّ المغترب اللبنانيّ مصاب بعدوى بلاده، فكما أنّ كلّ شيء موقّت ول "مرّة واحدة" في هذا الوطن الأعجوبة، يأخذ صفة الديمومة والثبات والاستمرار، فإنّ ظاهرة الاغتراب، مع كونها دائمة وطويلة ومعمّرة، فإنها تبقى موقّتة وآنيّة ومرحليّة في ضمير كلّ لبنانيّ، فلا تخمد جذوة العودة عنده ولو بعد عشرات السنين، لأنّه يبقى فاقدًا لأبرز عناصر تكوينه وشخصيّته ووجوده طالما ظلّ تائهًا في بلاد الله، على حدّ قول الشاعر اللبنانيّ "إيليّا أبو ماضي":

"إثنان أعيا الدهر أن يبليهما لبنان والأمل الذي لذويه

وطني، ستبقى الأرض عندي كلّها حتى أعود إليه، أرض التيه."

إنّه الشوق الذي لا يفارق. الشوق إلى المرابع الأولى التي احتضنت الطفولة والمراهقة والشباب. الشوق إلى رائحة التراب، وشغب الساحات، ومشاحنة الأشجار والطيور والورود، التي تعرفنا وتنتظرنا وتتسامح مع فوضويّتنا وانفلات حريّتنا في خطف ثمارها وسجن زقزقاتها واحتكار أريجها من أجل الحبيبة المتخفّية وراء الشبابيك.

إنّها الصور الحميمة المغروسة في الحدقات، عن بيوتنا الحلوة الصغيرة المتكوّمة فوق التلال، عن أمّهاتنا الرائعات المنسكبات نورًا وبركة، عن آبائنا الملفّعين بسمرة الحقول، أصحاب الشمس من مشرقها إلى مغربها، ورفاق الأرض عرقًا وحصادًا وخيرات، وعن الصبايا الفاتنات المتمنّعات عند عيون الماء وجرارهنّ المشتاقة إلى أكتاف الشباب.

إنّها صور السهول والجبال والأودية الحبلى بالبهاء والفتنة، وروائح الفصول المزركشة بألوان الجنان، وغناء الحطب يئزّ في مواقد الشتاء، وطرب الأشجار المسكونة بألف وتر ونغم.

إنّها عبق العمر، وزرع السنين في الوجدان والقلوب، صنو أسمائنا ولحم ماضينا.

إنّها لعمري، الهيام الذي ما بعده عشق ولا هوى، لم يتأتّ من لقاء وافتتان. إنّه الشغف المولود فينا، المترعرع معنا، المتنزّه في شرايينا من القلب إلى القلب، إنّه الرحم الذي ضمّنا وبعث فينا الحياة.

هل بإمكان المجنون بهذا الحبّ أن يشفى؟ وكيف أمكن لهذا المجنون إذًا، أن ينأى به السفر؟

أسئلة طالما أقلقتنا إجاباتها قبل وأثناء وبعد الابتعاد عن الوطن الحبيب، وتلقّينا بسببها الكثير من أصوات التأييد وصفات التقريظ حينًا، واتّهامات بالتخلّي والهجر مفعمة بالقدح والذمّ أحيانًا كثيرة. ولكن، أودّ هنا التأكيد أنّ أيّ مغترب، والعربيّ خصوصًا، إلى أيّ بلد أو طبقة أو ملّة انتمى، عندما قرّر خوض

الرحلة خارج الوطن، فهو لم يحمل الوطن والأهل في حقيبته كما يقولون، ولم يجمع أشتات ذاته في دفاتر الذكريات و"ألبومات" الصور، ولم يترك أرضه وناسه وماضيه في حيّزهم الجغرافيّ ليذهب بعيدًا عنهم، لقد كان محمّلاً بكلّ هؤلاء، كانوا في دمه ووجدانه وعقله، كانوا في بصر العيون وسمع الآذان ووقع الأنفاس، كانوا كالأريج المتغلغل في روح الوردة حتّى لو قطعت عن أمّها وتغرّبت عنها، كانوا فيه ومعه، آخر ما تغفو عليه الجفون وأوّل ما تتثاءب، كانوا النداء والرؤية والأغنية والذكرى. فلذا كان الألم موجعًا حتّى الجنون، وكان الوجد قاتلاً حتّى الهذيان.

قليلون هم الذين يمكنهم أن يعرفوا حقيقة هذه الآلام وعذابات الغربة المضنية، فالصحّة لا تتجلّى نعمتها إلاّ عند المرض، والبصر تعرف قيمته عند العمى، والحرّيّة تضجّ ثائرة في كلاكل الأغلال وغياهب السجون. وكم كان الشاعر العربيّ صادقًا، حين لوّعه الشوق وأذابه الحنين إلى موطن الأحبّة وروائح الديار، فأنشد جراحات حبّه قائلاً:

"روح المحبّ على الأحكام صابرة　　لعلّ مسقمها يومًا يداويها
لا يعرف الشوق إلاّ من يكابده　　ولا الصبابة إلاّ من يعانيها
لا يسهر الليل إلاّ من به ألم　　لا تحرق النار إلاّ رجل واطيها"

هكذا كانت حال المغتربين، المطوّقين بلظى الحبّ لأوطانهم، صابرين بانتظار لحظة اللقاء الساكنة في وعد الغد، ساهرين مع النجوم يحمّلونها أشواقهم وحرقتهم وهي تعبر فوق سماء الوطن، يكابدون الوجد والصبابة واللوعة، وفاء وإخلاصًا لهذا الحبّ المشتعل. وليس ذلك غريبًا على الإنسان لأنّه دليل ساطع على قوّة ارتباطه وصدق انتمائه.

وقف رسول الله محمّد عليه الصلاة والسلام، مودّعًا مكّة الغالية على قلبه، بعد أن أُخرج منها، وفي قلبه حرقة وأسى، فقال: "**والله إنّك لخير أرض الله وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أنّي أُخرجت منك ما خرجت، وما سكنت غيرك.**"

صدقت يا رسول الله. وهل أغلى على القلوب، من أرض نشأنا على ترابها، وشببنا في جنباتها، وترعرعنا في أحضانها وتحت سمائها؟

حاولت مرارًا أن أفسّر هذا التعلّق الغريب عندنا – نحن العرب خصوصًا – بأوطاننا وأهلنا وتراثنا، مهما نأت بنا المسافات ومهما طال الزمن، وكيفما تقلّبت الظروف والأيّام. من أين ينبت هذا الشعور المضني الذي يلازم أجيالنا المغتربة منذ لحظة الفراق الأولى، ويزداد تأجّجًا ولهيبًا يومًا بعد يوم؟ ألم نكن، تحت وطأة القهر والظلم والحرمان، نعلّل النفس بأمل الفرصة المواتية للانعتاق؟ ألم نسهر الليل ونحن نفكّر ونعالج ونبتدع الأساليب من أجل أن نحظى بمن ينتشلنا من الجحيم اليوميّ الذي كان ينتظرنا على أبواب بيوتنا ويتربّص بنا في كلّ جانب؟

تبدو مشكلتنا أنّنا ولدنا في بلادٍ المياهُ فيها عزيزة ثمينة، تكاد القطرة منها تعادل قطرة النفط أو الذهب إن لم تكن أغلى وأثمن، وهي غائرة بعيدة في أعماق الأرض. وقد أظهرت الدراسات أنّ الأشجار في مثل هذه البلاد، تعاني أكثر من البشر وتتعب وتجاهد من أجل الحصول على ما يسدّ رمقها ويطفئ عطشها، فلذلك نراها ضاربة جذورها في غياهب الأرض تبحث وتفتّش، عكس رفيقاتها في الأراضي الغنيّة بالمياه، حيث تكون جذورها عائمة على السطح. من هنا كان يستحيل اقتلاع هذه الأشجار ونزعها من التربة التي تتشبّث بها بالأنياب والأظافر. وهكذا نحن أبناء هذه البلاد، جذورنا ملتصقة بالأعماق

ويصعب جدًا اقتلاعها من غير أن تحمل معها رحم التراب الذي حضنها وحبل السرّة الذي مدّها بالحياة.

كنّا كمغتربين، عربًا ولبنانيين، نتعجّب كثيرًا ونقف مشدوهين، أمام ما نشهده في بلاد الغرب من انتشار ظاهرة الانتقال من مكان إلى مكان، ومن ولاية إلى ولاية، ومن بيئة إلى أخرى. وهذه الظاهرة ملفتة نظرًا لشيوعها بين أغلب الناس في هذه البلاد هناك مواسم للانتقال كمواسم الهجرة عند الطيور، لا يكاد أحدهم يستقرّ في مكان حتّى يغادره دون أن يلتفت وراءه ودون أن يترك ذلك في نفسه أيّ أثر أو قيمة للبيت أو للمكان أو للجار أو للمحيط الذي آواه فترة من عمره، ومن غير أن يعاني ليدفن في مسقط رأسه بعد وفاته . تساءلت طويلاً كيف كان البدويّ في الصحراء يلازم أطلال المضارب والخيام سنوات وهو يلملم بقايا نفسه وذكرياته مع ما خلّفه الأحبّة وراءهم من حجارة ورماد، ويذرف من أجلها الدموع ويعاني آلام الفراق والوحشة ألم يقل شاعرنا الكبير أبو تمّام:

"البين جرّعني نقيع الحنظل والبين أثكلني وإن لم أثكل

ما حسرتي أن كدت أقضي إنّما حسرات نفسي أنّني لم أفعل

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبّ إلاّ للحبيب الأوّل

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدًا لأوّل منزل."

فهل يختلف معنى الوطن عندنا عنه لدى الغربيّين؟ وهل نحن شعوب تعيش بماضيها وتتغذّى عليه وتجبن إذا شعرت أنّها ستفتقد هذا الماضي؟ هل نحن من فصيلة الأسماك التي تختنق إذا غادرت محيطها المائيّ الذي تتنفّس فيه؟ لماذا لا يحلو لنا المقام إلاّ في أرض الآباء والأجداد، ولا ترتاح أرواحنا بعد الموت إلاّ على وسائد ترابنا وفي جوار أحبّتنا؟ قد يكون للأمر تفسير آخر، إذ تبيّن لي من خلال تجربتي الاغترابيّة، أنّ العرب عمومًا هم أكثر الشعوب تعلّقًا وارتباطًا بأوطانهم وحديثًا عنها ، وهم أكثر من يعيشون هاجس الاغتراب والعودة، وهم ربّما، أكثر من يعاني في موضوع الاندماج والانخراط في المجتمعات الجديدة، بسبب هذا الارتباط.

لم أستطع أن أفهم حتّى اليوم، ذلك السويديّ أو الانكليزيّ أو الفرنسيّ أو الألمانيّ وغيرهم، الذين تركوا بلادهم مثلنا، وقدموا إلى العالم الجديد. وعلى الرّغم من تقدّم بلادهم ورقيّها، فإنّهم لم يفكّروا على طريقتنا في بلادهم، ولم يفكّروا أن يغرسوا في أولادهم حبّ تلك الأوطان، فانتقلوا قلبًا وقالبًا بانتمائهم وولائهم إلى الوطن الجديد، وارتاحوا من همّ ووصيّة حملناهما وجاهدنا وكافحنا من أجل توريثهما لأولادنا. فمع أنّني أحمل الجنسيّة الأوروبيّة والكنديّة، إلاّ أنّ "فيروسات" حبّ الوطن بقيت فاتكة ولم أجد لها علاجًا. وما أزال أغبط هؤلاء الغربيّين على مقدرتهم في تحقيق هذا التوازن النفسيّ الصعب، وربّما كان تشابه الثقافات والعادات والأنظمة ، عاملاً من العوامل التي ساعدتهم على ذلك.

لم يكن حبّ الوطن والتعلّق به، وقفًا على قرائح الكتّاب والشعراء والأدباء والفنّانين، الذين أبدعوا في التعبير عن هذا الشعور المفعم بالحنين والوجد

والوجع النفسيّ العميق، بل كان أيضًا الشاغل الكبير لأفكار الفلاسفة وعلماء النفس والباحثين، ممن واجهوا هذا الجانب المتجذّر في نفوس الناس، فعملوا فيه تحليلاً ودراسة علّهم يقفون على منابع الفطرة الملازمة لتعلّق المرء بوطنه وأهله تحت أقسى الظروف وأصعبها.

وقد أفرد الموسوعيّ العربيّ "الجاحظ" رسالة خاصة بهذا الجانب، سمّاها "الحنين إلى الوطن"، جاء فيها أنّ العرب كانت "إذا غزت أو سافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفرًا تستنشقه." وأكّد "الجاحظ" في رسالته أنّ الاغتراب هو التجدّد، متمثّلاً قول الإمام عليّ عليه السلام:

تغرّب عن الأوطان في طلب العلى   وسافر، ففي الأسفار خمس فوائد

تفرّج همّ واكتساب   معيشة   وعلم وآداب   وصحبة   ماجد."

والدعوة إلى الاغتراب، كما جاءت على لسان الإمام عليّ عليه السلام، تتضمّن الحقيقة الناصعة لأسباب هذا الاغتراب ودوافعه، التي حملت الناس على تحمّل المشاقّ بهدف تحقيق الطموح والمعالي، والابتعاد عن مواطن الظلم والقهر. وعلى ممارسة حركة التجدّد الذهنيّ والنفسيّ والجسديّ كما أشار "الجاحظ"، التي تتيح الخروج من الدائرة المغلقة والضيّقة، كما تتيح مخالطةُ الشعوب الأخرى والتفاعل معها والاطّلاع على ثقافتها وأسلوب حياتها وطرق تفكيرها، مجالاً لإعادة تقييم الذات واكتساب خبرات جديدة والتخلّي عن أفكار وعادات أخرى. وكلّ ذلك من شأنه أن يساهم في تحدّي العقل ودفعه للابتكار والتجدّد. فضلاً عن العنصر الأهمّ في ذلك، وهو التجدّد في بناء العلاقة مع الأرض

والوطن والأهل، التي ألفها المرء وأصبحت كأنّها حقيقة ثابتة، لا يدرك قيمتها إلاّ عند غيابها. ويقول شاعرنا "أبو تمّام" في هذا المقام:

"وطول مقام المرء بالحيّ مخلق لديباجتيه، فاغترب تتجدّد

فإنّي رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس، أن ليست عليهم بسرمد."

فالاغتراب بهذا المعنى، هو كسر للدوران في الحلقة المفرغة، والتطلّع إلى أفق يمكن منه النفاذ إلى إعادة تموضع المرء واستجلاء الحقيقة واكتشاف مكامن الخطأ وسبل العلاج. فقد تكون الغربة داخل الوطن في الروح والنفس أقسى منها خارجه بالجسد والبدن. والتاريخ حافل بشواهد الأنبياء والحكماء والفلاسفة الذين عانوا الغربة على أرضهم وبين قومهم، وعاشوا مضطهدين منبوذين مهدّدين، كغربة صالح في ثمود، التي أسقطها الشاعر "المتنبّي" على حاله وواقعه في أمّته

"أنا في أمّة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

ما مقامي بأرض نخلة إلاّ كمقام المسيح بين اليهود."

وهنا، لم يعد الاغتراب مرتبطًا بالعامل الجغرافيّ والابتعاد عن الوطن بالمسافة الحسابيّة الماديّة، لأنّ الهوّة الروحيّة والنفسيّة التي تفصل المرء عن محيطه، وتجعل منه غريبًا ومرفوضًا ودخيلاً، هي أكثر عناء من بعد المسافات التي يمكن اختصارها بعناء الجسد، في حين أنّ الثانية يستحيل ردمها إلاّ بشقّ النفس أو بالموت. وكذلك الأمر بالنسبة لخضوع المرء للفقر والعوز والحاجة،

ما يورثه المذلّة بين قومه، ويبعث فيه الشعور بالاهانة، فلا يعود محترمًا في وجوده، ولا مقدّرًا في حضوره، ولا مسموعًا في رأيه وقوله حتّى من أقرب الناس إليه، ما يجعله يعيش على هامش الحياة وفي ظلّها، بعيدًا عن كلّ ما يحيط به. وهنا تبدو الغربة أيضًا أشدّ قساوة وأثرًا من غربة الجسد والسفر. "**الفقر في الوطن غربة**"، يقول الإمام عليّ عليه السلام، بينما "الغنى في الغربة وطن"، ويمكنه (الغنى) أن يمنح الانسان ما حرم منه في أرضه ومع قومه .

وتبقى طبيعة المشكلة لدينا – نحن المغتربين الشيعة – معقّدة ومركّبة، لأنّنا، مع أننا هاجرنا الهجرة القسريّة الاجباريّة من جرّاء الغربة النفسيّة التي عانيناها بسبب الفقر والظلم والحرمان، وبسبب رفضنا الخضوع للواقع السياسيّ والطائفيّ القائم، وبسبب طموحنا للتغيير وبناء مستقبل أفضل، فقد اغتربنا بأجسامنا وبقيت أرواحنا معلّقة هناك، وأصابنا ما أصاب المستجير بعمرو، حيث صحّ فينا قول الشاعر:

"والمستجير بعمرو عند كربته   كالمستجير من الرمضاء بالنار."

فكنا كمن يذهب من النار إلى النار، ومن العذاب إلى العذاب، ومن القدر إلى القدر، ما لنا غير الخالق العظيم: **"يا هاربًا من قضاي ما لك ربّ سواي."**

وقد تجلّى هذا الحبّ الكبير بأبهى صوره ومعانيه، كما تبدّت هذه الرمضاء بأحرّ نيرانها وعذاباتها في مجمل حياة المغترب، وهو يجاهد النفس ليبقى وفيًا لحبّه وانتمائه، بارًّا بأهله وتراثه وتاريخه، من خلال المواقف التالية:

-منذ اللحظة التي تطأ فيها قدما المغترب، الشيعيّ بشكل خاصّ، أرض الغربة، يبدأ في البحث الجادّ عن المحيط المائيّ المماثل لمحيط وطنه وقريته. يفتّش عن مكان يأمن فيه على نفسه وأسرته، قريبًا من أبناء جلدته في الدين أو اللغة أو الثقافة، ليضمن تدفّق هواء الأهل إلى رئتيه ويشعر بأنّه ما يزال قريبًا من "عشيرته"، ويستدرك ما يمكن أن يفتقده في بعاده. فهو قويّ بهم وضعيف ضائع بدونهم، بهم يستعيد أجواء البلاد ورائحتها وذكرياتها، ومعهم يحيي لياليها وسهراتها وندواتها، وفيهم يعبّر بلغته عن فكره وآرائه ولواعج نفسه. والأهمّ من ذلك كلّه، أنّه من خلالهم يقضي على الخوف الذي يعتريه وهو غارق في عالم غريب لا يعرف مفاتيحه، فيتذاكر معهم اسم الوطن والقرية والحيّ، ويتندّرون بما مضى من وقائع وذكريات. وما هذا إلاّ بدافع الحاجة النفسيّة والوجدانيّة التي فرضتها الفطرة للتعلّق بكل ما ينتمي إلى الوطن، ماديًّا ومعنويًا، ولكلّ ما ينمّ عن حضوره معهم وفيهم.

وكان تكوين التجمّعات السكنيّة العرقيّة في المغتربات، نتيجة طبيعيّة لهذا الالتفاف والتجاور والتقارب، فبات يُرى في جميع بلاد الإنتشار، شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا، أحياء ومراكز وأسواق، يغلب عليها الطابع العربيّ أو اللبنانيّ أو الشيعيّ بشكل خاصّ، ما خلق في كلّ مغترب وطنًا لبنانيًا له قراه وأحياؤه وأهله، على غرار التوزيع المناطقيّ والطائفيّ في لبنان. فهنا تجمّع شيعيّ وهناك تمركز مارونيّ، وهنالك أغلبية جنوبيّة أو شماليّة أو بقاعيّة.

قد ترى مثل هذه الظواهر لدى الجاليات العرقيّة الأخرى، مثل اليونانيّين والايطاليّين وغيرهم، لكنّها ليست بالمظهر والكثافة التي عند اللبنانيّين وعند الشيعة بالذات.

من الظواهر الدالّة على تعلّق المغترب بوطنه وأهله، سعيه الملهوف المتواصل إلى تسقّط أخبار الوطن يوماً بيوم. فهو يعيش هموم الوطن البعيد ويتابع أحداثه وينشغل بتحليل ما يجري فيه. يعتريه قلق دائم لمعرفة ما يدور هناك، والوقوف على أحوال الأهل والأصدقاء والرفاق. لا أبالغ إذا إعترفت أنّني كمغترب شيعيّ، ربّما كنت على تواصل مع بلادي وعلى معرفة واطّلاع على ما يجري فيها، وتحديدًا أيام الأزمات والأحداث التي ما فتئت تتراكم، أكثر من المقيمين هناك ، وهذا ما كانوا ينقلونه إلينا عبر اتصالاتنا الهاتفيّة المستمرّة، أصبحوا في قرف وملل ويأس من تواتر الحوادث وتكرار المشاهد السياسيّة الممقوتة، فانقطعوا عن متابعة أخبار أهل السياسة وأكاذيبهم وتصريحاتهم الجهنميّة، وانصرفوا لمعالجة همومهم المعيشيّة ومتطلّبات حياتهم واحتياجات أبنائهم اليوميّة.

كان قلبنا على الوطن، كنّا بخوف دائم عليه، كنّا ونحن خارج الميدان وضجيج الأحداث، قادرين أكثر على رؤية الخطر وقراءة الأوضاع واستقراء ما ينتظر هذا البلد المسكين من ويلات، فيزداد عذابنا أكثر، وتتضاعف هواجسنا ويدبّ فينا القلق والوساوس التي تحرمنا هناء العيش وراحة البال. لا يمكن لأحد أن يتخيّل كيف كانت حياة المغترب، الشيعيّ، محاطة بالخوف والحزن، في بيته وفي عمله ومع أصحابه، خصوصًا عندما يكون الحدث مرتبطًا بإسرائيل، وعندما تبدأ حممها بالتساقط على بيوت أهله وفوق رؤوسهم، فتحصد مئات الأرواح وتُسقط آلاف الجرحى وتحوّل القرى خرابًا وأشلاء. وتتركنا في غربتنا كالمجانين، نهرول من مكان إلى مكان، ومن هاتف إلى هاتف، ومن إذاعة إلى أخرى، علّنا نطمئنّ ونضع حدًا للمخاوف التي تغلي في صدورنا، وغالبًا

ما كانت الأخبار كئيبة مأسوية، فتسرق النوم من عيوننا وتجعل أيامنا همّا وغمّا وتعاسة.

"العين بعد فراقها الوطنا لا ساكنًا ألفت ولا سكنا."

ومن أبرز تجلّيات هذا الحبّ الوطنيّ العميق، ما كنا نقوم به في أوقات الشدّة والمحن. فلا تكاد تتناهى إلينا أخبار اندلاع الاشتباكات بين الميليشيات المتقاتلة، أو تجدّد الاعتداءات الاسرائيليّة على مناطقنا وقرانا الجنوبيّة، حتّى كنّا نتسارع، من مختلف العائلات والطبقات، إلى استثمار علاقاتنا الطيّبة وحضورنا المقدّر والمحترم لدى سلطات البلاد التي نحن فيها، من أجل الحصول على الأذونات والتأشيرات الرسميّة اللازمة، ونرسلها سريعًا إلى أهلنا وإخواننا مع بطاقة السفر وتكاليف الرحلة، حتّى يتمكنوا من الخروج آمنين في الوقت المناسب، وانقاذهم من لظى الحروب وأخطارها، وكنّا نتشبّث بمكوثهم معنا معزّزين مكرّمين، علّنا نردّ لهم بعضًا ممّا ضحّوا به من أجلنا.

-إنّ حبّ المغترب الشيعيّ لوطنه، ليس نابعًا من علاقة المصلحة والكسب والنفوذ، وليس وليد نزعة الهيمنة ونهب خيرات البلد والمتاجرة بقضاياه وأهله، كما يفهمه ويمارسه من نصّب نفسه زعيمًا سياسيًا باسم طائفته وعائلته وحزبه. لقد كان حبًّا صافيًا نقيًّا مشتقًّا من إيمانه بالله عزّ وجلّ، حبًّا مزروعًا فيه لا يوازيه أيّ حبّ دخيل آخر. فلذا كان الشوق إلى هذا الوطن وما فيه يؤرّقنا كمغتربين ليل نهار، كنّا نحنّ إليه ونتوق إلى دفئه وعطفه كلّما عصفت بنا رياح البعاد، وكلّما اجتاحتنا موجة حزن أو مرض، وكلّما أنعم الله علينا بلحظات الفرح والسعادة والهناء. ولهذا، قلّما تجد في الغربة شيعيًّا لبنانيًّا انقطع عن التواصل مع بلده فترة طويلة، مهما كانت المسافات والمشاقّ، كما لمست

ذلك عند الآخرين. الزيارة للوطن كانت في كلّ عام، وكلّ موسم، وكلّ اجازة، نوعًا من الواجب الملزم. حتّى ولو لم يتمكّن ربّ العائلة، لسبب أو لآخر، من مرافقة أفراد أسرته، فقد كان حريصًا باستمرار، على أن يرسل زوجته وأبناءه إلى مسقط رأسه، إلى القريةَ التي ولد ونشأ وترعرع فيها، إلى الجدّ والجدّة والأعمام والعمّات والأخوال والخالات، إلى الأصحاب والأصدقاء، يقضون بينهم شهورًا، تقرّ بهم عيون الأهل، ويرسّخون معهم عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم اللبنانيّة الأصيلة، لتبقى متجّذرة في نفوسهم فلا ينسونها ولا يتنكّرون لها في مغترباتهم. ولا بدّ أن أذكر هنا، العشرات لا بل المئات من هذه العائلات التي دفعت من أرواحها وأرواح أبنائها ضريبة هذا الحبّ وهذا الانتماء الوطنيّين، فوقعوا ضحايا العدوان الاسرئيليّ الوحشيّ والقصف العشوائيّ وتقاتل الأحزاب المحليّة والمنظّمات المختلفة، فدفنوا تحت أنقاض البيوت وهم يعانقون جذاتهم وأنسباءهم أثناء زيارتهم لهم. وما تزال ماثلة في ذلكراتنا جميعًا، مآسي المغتربين الأبرياء الشيعة الذين قضوا بسبب العدوان الاسرائيليّ المتكرّر على الجنوب، والذين كانوا قادمين من إفريقيا أو أوروبا أو أميركا لتمضية العطل مع أنسبائهم، فامتزجت دماؤهم مع تراب الوطن. وكانت أفدح هذه المآسي ما تعرّضت له عائلات شيعيّة بأكملها أتت من كندا إبّان الحرب الاسرائيليّة على لبنان في صيف 2006، ودفنت في تراب الجنوب، تاركة في قلوب الأهل وكلّ المغتربين حرقةً ما بعدها حرقة ولا لوعة، ومعلنة للوطن أنّ حبّها له معمّد بالدمّ والعذاب.

ومن المعالم البارزة لتعلّق المغترب بوطنه، استعداده الدائم لتقديم ما يمكنه من مساعدات ودعم لوطنه وأهل وطنه، في كلّ المجالات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة. فمن خلال معايشتي سنوات طويلة لاخواني اللبنانيّين، وللشيعة

خصوصًا، في مختلف بلاد الإغتراب، لمست ورأيت وسمعت، ما قدّمه هؤلاء المغتربون من تضحيات جسام لأجل وطنهم. فهم لم يتأخروا يومًا عن مدّ أهلهم بكلّ المساعدات الماليّة التي كانوا يحتاجونها، في ظلّ الظروف المعيشيّة الصعبة التي تحيط بمناطقهم. كانوا يقتسمون رغيفهم وعرقهم مع أهلهم في الوطن الأمّ، كانوا يمنعون اللقمة عن أفواههم من أجل أن يرسلوها لهم، ويوفّرون ما يستطيعون حتّى يؤمّنوا لهم حياة كريمة ويبعدون عنهم شبح العوز والحاجة. من النادر أن تجد بيتًا في قرانا الجنوبيّة الشيعيّة إلا وله جزء عزيز من فلذات أكباده في ما وراء البحار، يعارك الدهر ويجاهد ويصابر. كما من النادر أن تجد مغتربًا شيعيًا لم يقم بإلحاق أخيه أو قريبه أو صديقه به واحتضانه ومساعدته ليبدأ حياة ناجحة في البلد الذي هو فيه، ومنهم من قام بحمل عائلته كلّها لتكون معه وتحت أنظاره بعيدًا عن الخوف والفقر. فساهم هؤلاء المغتربون، ومن جاء بعدهم، مساهمة كبيرة فعّالة في إنقاذ الكثيرين من إخوانهم وتوفير التعليم والتأهيل المهنيّ والجامعيّ لهم، ليشقّوا طريقهم ويحقّقوا أفضل النتائج ويحتلّوا أرفع المناصب.

ومن أهمّ ما قدّمه المغتربون في هذا المجال، أنّهم قاموا، وعلى فترات متواصلة، بإعادة بناء منازل الأهل والأجداد في القرى التي ولدوا فيها، على طراز حديث، وجهّزوها بكل وسائل الحياة العصريّة، وزوّدوها بأحسن الأثاث والمفروشات. وكثيرون منهم اضطرّوا إلى إعادة ترميم بيوتهم ودفع جنى العمر والتعب في مغترباتهم، مرّة وأثنتين وثلاثًا، بسبب تعرضها المتكرّر للقصف والضرب والدمار، بعد كلّ جولة من جولات الحروب الطاحنة. وقد شهدت قرى بأكملها، بفعل أموال ومساعدات المغتربين، نهضة عمرانيّة كبيرة، وتحوّلت إلى مناطق تزهو ببيوت الله اللائقة والمراكز الدينيّة الواسعة، كما ازدانت بالقصور

والفيلات والشوارع الفخمة، التي قام ببنائها المغتربون الميسورون. وكذلك تحوّلت الأراضي والسهول والحقول إلى مشاريع زراعيّة مزدهرة وناجحة، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في دعم الاقتصاد الوطنيّ، وتفعيل الحركة التجاريّة وتأمين فرص العمل لآلاف الشباب من مختلف التخصّصات والمهارات.

إنّ الحديث عن دور المغتربين في هذا المجال يحتاج إلى موسوعات كبيرة، فهم شكّلوا على مراحل تواجدهم وانتشارهم رافدًا لنهضة الجنوب وإنمائه ورفع مستوى حياة إنسانه في شتّى الميادين. لقد كان مغتربو الجنوب نفط الوطن واحتياطه الانسانيّ والاقتصاديّ والثقافيّ.

كانوا سوّاح الوطن، يغدقون عليه ممّا أنعم الله عليهم، حين كان يتجنّب سوّاح العالم، عربًا وغير عرب، المجيء إلى لبنان بسبب سوء الأوضاع الأمنيّة والأزمات السياسيّة والممارسات المخيفة لأهل الحكم والحلّ والربط.

كانوا بنّائي الوطن، حين كانت معاول الآخرين تعمل على هدمه ودكّ أسسه وتدمير قواعده، وعندما كان يتعطّل البناء ويتخلّى الأصدقاء والأشقاء عن واجباتهم تجاهه.

كانوا ملاذ الأهل وسندهم حين تفتك شهوات النصّابين بخيراتهم، وتتبرّم عيون القريب والبعيد عنهم في الوطن.

كانوا فسحة الأمل والرجاء المتبقيّة، مشرّعة جاهزة ومستعدّة، أمام الإنسان الجنوبيّ واللبنانيّ، إبّان اشتداد أوقات المحن والكوارث.

كانوا خزّان حبّ الوطن ونجدته وإغاثته، في كلّ مرّة تتسلّط عليه أطماع الفاسدين والمرتشين والأشرار والقتلة.

كانوا مثال الوفاء والكرم والتضحية والشرف، من أجل عزّة لبنان والجنوب ورفعتهما ومجدهما. فهل كان أهلنا الذين أتوا من "هناك"، هذا "الهناك" الذي أتى معهم، "هناك الجنوب" في فكر العالم الأميركيّ "إدوارد لورنز"، أو خطروا على باله حينما أتى بنظريّة "الفراشة"، فيقول إنّ الفراشات التي تنفض أجنحتها مجتمعة فوق الأمازون يمكنها أن تسبّب الاعصارات، لأنّ الحركات، مهما كانت بسيطة، تخلق المعجزات إذا تضافرت. وإنّ الحفنات من الدولارات المرسلة من القلوب للأحبّة هي مكوّنة للمليارات التي تحمي الوطن من السقوط. أليس الخالق عزّ وجلّ أرسل قطرات الماء لتحيي الأرض وتشكّل الأنهار الهادرة والسهول العامرة والحدائق الغنّاء؟!

هذا في الجانب الاجتماعيّ والأسريّ الإنسانيّ. أمّا على الصعيد الوطنيّ العامّ، فقد كان المغتربون، في مختلف بلاد الانتشار، وجه لبنان الناصع والمضيء والمشرّف، يوم كلح وجه الوطن واسودّت ملامحه وتلطّخت سمعته في المحافل الدوليّة كافّة بفعل ارتكابات السياسيّين وزعماء الأحزاب وفظائعهم الشنيعة.

فلم تعد سرًّا تلك النجاحات الباهرة التي أذهلت الدنيا، والتي حقّقها المغتربون اللبنانيّون وأبناء الجنوب الشيعة بينهم، في جميع الميادين الثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والعلميّة، وشهد لها كلّ العالم. فلا يمكن لباحث أو محقّق أو مؤرّخ أن يجول في بطون الكتب وصفحات المؤلّفات وأرشيفات الدول، إلاّ أن يقع على اسم لبنانيّ لامع يتوسّط تلك المراجع، إن لم يكن يتصدّرها بريادته وعبقريته ونكائه وتفوّقه. في مجال الطبّ، أو الهندسة، أو الاقتصاد، أو الثقافة

أو السياسة أو العلوم الإنسانيّة أو الفنون. هناك دائمًا لبنانيّ بارز، رصّع اسم وطنه بين الكبار، وقدّم للبنان ولوطنه الثاني وللإنسانيّة جمعاء، خدمة جليلة عظيمة حفظها له التاريخ.

فتّش في أسماء رؤساء الجمهوريّات، ورؤساء الحكومات ومجالس النواب والشيوخ والبلديّات.

راجع سجلاّت أكبر رجال الأعمال وأنجحهم في عالم التجارة.

أدخل على أيّ موقع الكترونيّ علميّ أو طبيّ أو تكنولوجيّ.

تجوّل في عالم الإعلام والشعر والأدب والغناء والفولكلور.

قم بزيارة خاطفة لإحدى أرقى وأكبر الجامعات في العالم، أو لأحد المراكز العلميّة ومحطات الفضاء.

سوف تدهش وأنت تطالع أسماء اللبنانيّين الكثر، الذين يحتلّون المراكز المتقدّمة في جميع هذه المجالات، والذين يحظون بكلّ آيات التقدير والاحترام والاعجاب.

وما يدهشك أكثر وأكثر، عندما تعلم أنّ أغلب هؤلاء، أتوا إلى بلاد الاغتراب معدمين فارّين من ويلات الفقر والحرب والظلم، فبنوا ذواتهم بعصاميّة وعزم، وتحدّوا الصعاب، وسهروا الليالي، ولم يدعوا عائقًا يمنعهم من تحقيق أحلامهم وإرادتهم وطموحاتهم، مؤكّدين قول الشاعر اللبنانيّ الكبير "سعيد عقل":

"ومن الموطن الصغير، نرود الأ رض نذري في كلّ شطّ قرانا

نتحدّى الدنيا: شعويًا وأمصارًا ونبني – أنّى نشأ – لبنانا."

وما يثير الاعجاب عند هؤلاء العظماء، أنّهم، مع كلّ ما وصلوا إليه من تفوّق وتقدّم وغنى، بقي الوطن دائمًا وأبدًا في ضمائرهم وعلى ألسنتهم، وبقي الوفاء والاخلاص لأرضهم وأهلهم عامرًا في سويداء أنفسهم. وقد أبدعوا حقًّا أيّما إبداع، في ترجمة ما يحملونه من مشاعر الحبّ الوطنيّ إلى منجزات وأعمال وأفعال ملموسة على أرض الواقع. لم يغنّوا حنينهم ولم يذرفوا دموع الشوق للأرض والأحباب فقط، بل جيّروا نجاحاتهم ومواقعهم ونفوذهم وإمكاناتهم وعلاقاتهم لخدمة وطنهم الذي تخلّى عنهم يومًا، ورمى بهم على الشواطئ البعيدة. ولكن ربّ ضارّة نافعة في كثير من الأحيان.

هذه الكوكبة المخلصة من الأفذاذ، وضعت ما تملك في سبيل خدمة لبنان ومجده، رفعت علمه عاليًا في كلّ المحافل، رصّعت اسمه بحروف من نور تشعّ في أرفع المنتديات والمنظّمات الدوليّة. أعادت بحضورها حضور الوطن المخطوف، وبنجاحها نجاح الوطن الغارق في الآثام، وحرّرت بأصواتها الشريفة والصادقة الوطن المأسور في أغلال الطائفيّين وسماسرة الدين والسياسة. فأعادت إليه وهجه التاريخيّ الذي كاد أن يغيب تحت ركام الخطايا والجرائم المتناسلة كالفطر.

لقد قدّم هؤلاء الكبار إلى وطنهم، وفي صميم الظروف والأوضاع الحرجة والصعبة، أكبر الخدمات من أجل المحافظة على وجوده ودرء الخطر عنه. ساهموا، كلّ من موقعه، بتوفير الدعم السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ

لبلدهم، حتّى يتجاوز المحن وينهض من جديد. وكان دورهم بارزًا في مختلف الحقبات، لوقف الحرب الأهليّة، وحرب الأشقاء والأشقياء، والاعتداءات الخارجيّة على أرضه وأهله.

وكان من أروع تجلّيات هذا الدور، وقوف أبناء الجالية بكلّ رجالها ونسائها وطاقاتهم وتنوّعاتهم وانتماءاتهم، صفًا واحدًا متراصًا إبّان حرب تموز 2006 على لبنان، من أجل دعم وطنهم وأهلهم ووقف هذه الحرب بشتّى الوسائل، فمارسوا كلّ الضغوطات على حكومات الدول وحشدوا التأييد الكامل للدفاع عن لبنان، وطالبوا دول العالم باجلاء الأبرياء وإخراجهم من نيران الحرب، كما نظّموا المؤتمرات والمظاهرات في طول البلاد وعلى مدى أيّام الحرب، مدعومين من المنظّمات والجمعيّات العالميّة الداعية للسلام، كما نظّموا بمشاركة أعضاء من الحكومات والمجالس التشريعيّة زيارات إلى مواقع الجنوب اللبنانيّ للاطّلاع على ما اقترفته إسرائيل بحقّ المنطقة والوطن والناس، ورفعوا تقاريرهم التي تكشف الحقائق إلى حكوماتهم وشعوبهم.

هؤلاء هم ضمير الوطن وملحه وخبزه. وهم الصفحات البيضاء الناصعة في سجلّ التاريخ الوطنيّ.

-ومن الأمور الهامّة في موضوع علاقة المغتربين بوطنهم وتعلّقهم به، والتي لا يمكن تجاوزها في هذا الجانب، هي المعاناة التي كانوا يواجهونها مع أولادهم. فقد كنّا بحقّ نعيش كمغتربين عقدة اللغة الأم إلى جانب عقدتنا بحبّ الوطن الأمّ. كان هاجسنا أن يبقى أبناؤنا (الجيل الثاني) على معرفة تامّة بلغة آبائهم وأجدادهم، وعلى تواصل دائم مع عادات بلادنا وتقاليدنا وتراثنا وقيمنا الدينيّة والأخلاقيّة والثقافيّة والاجتماعيّة. وأمام هذه الرغبة الملحّة، كنّا نصطدم

بالنظام التربويّ السائد في بلاد الاغتراب، فهو نظام مدنيّ علمانيّ حرّ، يحترم الخصوصيّات الاثنيّة، لكنّه لا يدخلها أبدًا في منظومة سياساته التعليميّة والتربويّة، أضف إلى ذلك الأجواء المفتوحة على كلّ المخاطر المحتملة، من الفساد الأخلاقيّ إلى إنتشار المخدرات إلى الانحراف إلى الاباحيّة في اللباس والعلاقات الجنسيّة. وهنا كان جهادنا الأعظم مع أجيالنا، لتربيتهم وتحصينهم وحمايتهم من الانزلاق إلى ما لا يتوافق مع سلوكنا وأخلاقنا ومنهجنا في الحياة. وكانت مواجهة هذه المسألة تمثّل معركة نفسيّة واجتماعيّة حقيقيّة لدى كلّ عائلاتنا، وسبّبت لنا قلقًا وخوفًا دائمين، كما أثّرت أحيانًا في تأخير عمليّة اندماجنا في المجتمعات الغربيّة. وكانت حكمة الآباء والأمّهات وصبرهم وتجلّدهم في هذا الصراع، وخروجهم منتصرين مع أبنائهم، بطولة رائعة تضاف إلى تضحياتهم الجسيمة في عالم الاغتراب.

كما لا بدّ أن نسجّل بفخر واعتزاز كبيرين، ما بذله هؤلاء المغتربون، بدافع حبّهم لأرضهم وتراثهم، من جهد وسهر وعطاء، من أجل إقامة المراكز الدينيّة والأندية الثقافيّة والاجتماعيّة، وتأسيس الروابط والتجمّعات الأهليّة والمناطقيّة، التي أخذت على عاتقها توفير الزاد الثقافيّ والروحيّ لأبناء الجالية، وتمتين عرى الصداقة والمحبة بينهم، وتوثيق علاقاتهم بعضهم ببعض، إضافة إلى إحياء المناسبات الدينيّة والوطنيّة والاجتماعيّة، وإقامة المهرجانات الفولكلوريّة، التي رسّخت تراثنا بين أبنائنا من جهة، ونشرته في بلاد الاغتراب من جهة أخرى، وكان لها أثر هام وواضح في عملية فتح آفاق الحوار وتبادل الثقافات وتعريف الغرب بجوهر ديننا وتوجّهاتنا الإسلاميّة الهادفة إلى السلام والتسامح والتعاون، كما ساهمت كثيرًا في تغيير الصورة المشوّهة التي انطبعت في أذهان الغربيّين عن ديننا الحنيف وشعوب منطقتنا وخصوصًا بعد أحداث 11

سبتمبر (أيلول) 2001 ، التي ضربت الولايات المتحدّة الأميركيّة وهزّت العالم أجمع، وما نتج عنها من تداعيات سياسيّة وأمنيّة هائلة في منطقة الشرق الأوسط والعالم.

-14-

إستمرا ر النكبات

إذا احتلّت الأرض يدفع الشيعة الثمن، وإذا حرّرت الأرض يدفعون الثمن!...

إذا بقينا في أرضنا وتحت نير الظلم والاحتلال ندفع الثمن، وإذا خرجنا من المناطق المحتلّة إلى القسم الحرّ في لبنان أو إلى خارج الوطن ندفع الثمن!...

لماذا كتب على الشيعيّ اللبنانيّ أن يحمل مأساته فوق ظهره مدى حياته؟ لماذا قُدّر على الشيعيّ أن يبقى، منذ ولادته وحتّى آخر ساعة من حياته، مسجونًا في دائرة مأساويّة مليئة بالآلام والأحزان؟

لم أكن يومًا من المتشائمين المحبطين، ولم أستسلم لحظة لليأس والقنوط، على الرّغم من أنّني واحد من هذه الطائفة الكريمة الغنيّة برجالاتها والمعذّبة بقدرها، ولكن ما تسنّى لي الوقوف عليه من وقائع وأحداث ومظاهر، في منطقتي الجنوبيّة، وفي رحلتي الإغترابيّة الطويلة والمتشعبّة، يدعوني حقًّا إلى طرح الأسئلة ووضع علامات الاستفهام والتعجّب حول حياة الشيعيّ مقيمًا ومغتربًا.

يبدو أنّ عذاباتنا نتيجة وجودنا في محيط مثقل بالقهر والحرمان، لم تكن كافية، ولا بلاؤنا نتيجة موقعنا الجغرافيّ المطلّ على أشرس كيان مغتصب في تاريخ الشعوب، ولا كوارثنا نتيجة حروب الأحزاب والزعماء والمنظّمات والأشقّاء والغرباء. لم يكن كلّ ذلك كافيًا، حتّى تضافرت علينا الأسباب الداخليّة

والخارجيّة، تلاحقنا في كربة غربتنا، بما كان يخبّئه لنا القدر في جعبة سهامه ولم نكن نحسب له حسابًا.

من أقسى ما مررنا به في المغتربات، هو حالة الانقسام البشع الذي ضرب أبناء جاليتنا اللبنانيّة وطائفتنا الشيعيّة تحديدًا، إثر مراحل الأحداث المتواليّة في لبنان، لا سيّما في الثمانينيّات من القرن الماضي. فما أن يدبّ النزاع بين الأطراف السياسيّة المهيمنة على الساحة والمسيطرة على أقدار الطوائف في بلدنا، بسبب الحرب الأهليّة كما سمّيت والتي امتدت زهاء خمسة عشر عامًا، وكلّما اختلف اثنان على تقاسم المنهوب، أو على تزعّم الفرق والجماعات، سرعان ما كان ينتقل هذا النزاع كالنار في الهشيم بين المغتربين من الطائفة الواحدة، ويخلق بينهم شرخًا واسعًا يتمدّد ليشمل أفراد العائلة الواحدة وداخل البيت الواحد في أكثر الأحيان، يغذّيه وينفخ في ناره الأتباع والأزلام المنتشرون المبثوثون كعيون المخابرات في الزوايا، ويزيد من لهيبه زيارات بعض من أطلق عليهم رموز الطائفة وقادتها وممثّليها في الشوارع ، الذين يتوافدون واحدًا بعد الآخر، ينتشرون بخطة سريعة ومرسومة ومحبوكة، في بلاد الاغتراب، ويبدأون ببثّ سموم الفرقة والكراهية والحقد في النفوس، وفي التشهير بصنائع أخصامهم الذين كانوا معهم قبل أيام أو أشهر في خندق قتاليّ واحد. والأدهى من ذلك، أنّنا كمغتربين، ولأنّنا كنّا ضعفاء وطيّبين إزاء كلّ ما يتعلّق بالوطن، كنّا نهرول لاستقبال هؤلاء، واقامة حفلات التكريم والتقدير لهم، وفتح بيوتنا وقلوبنا لاستقبالهم والاستماع إلى خطبهم وأحاديثهم الرنّانة، لظنّنا بأنّهم مسؤولون حقًّا، وبأنّهم رسل سلام ودعاة وفاق ومحبة.

عشت هذه الانقسامات الحادّة بكل تداعياتها المؤلمة، في إفريقيا، وفي منطقة يشكّل الشيعة غالبيّة مغتربيها. حيث كنت أرى بأمّ العين ما يحيكه البعض لبعضهم الآخر من مؤامرات وأفخاخ للايقاع بهم وتكبيدهم أفدح الخسائر وتشويه صورهم أمام مسؤولي وحكّام تلك البلاد، بما يفوق مرّات ما يصنعه الأعداء الألدّاء في ما بينهم.

وعشتها في أوروبا وفي كندا، حيث كانت تتحوّل لقاءات أبناء الطائفة وسهراتهم إلى حفلات شتائم وتهم من العيارت الثقيلة، لم تسلم من شظاياها مراكزنا ومجالسنا وشخصيّاتنا الدينيّة والروحيّة.

وحاولنا، مع مجموعة كبيرة ممّن عاشت في مثل هذه البلاد الحرّة والمنفتحة والمتسامحة، وخلال سنوات متواصلة، أن نبذل كلّ الجهود لإطفاء النار وتبريد النفوس والقضاء على الخصومات والخلافات بشتّى الوسائل، وكنّا ننجح أحيانًا، ونقع تحت طائلة التهم والقذف والتخوين أحيانًا أخرى، فنكتم غيظنا في صدورنا حفاظًا على ما تبقى من كرامة الطائفة وكيانها.

ومن غرائب هذه الحالة التي تفشّت وما زالت في المغتربات، أنّ من كانوا يوفدون إلينا، بحجّة الاطّلاع على أوضاع الجالية والاطمئنان على ظروفها وأحوالها، كانوا يمارسون على أبناء الطوائف مختلف أشكال الابتزاز والتهديد المقنّع، والتخويف من شريك الوطن الآخر، ويبذرون الفتنة بين الناس، ويثيرون فيهم الغرائز الطائفيّة والمذهبيّة، حتّى يتمكّنوا من جمع الأموال والدعم والمساعدات، باسم التبرّعات والهبات لأبناء الوطن وإغاثتهم وإقامة مشاريع التمنية ومؤسّسات الرعاية لهم، فيعود كلّ منهم بالحقائب المكدّسة بالعطايا المغمّسة بعرق المغتربين ودمائهم، ليضيفها إلى أرصدته وأرصدة زعمائه، دون

أن نرى أو نلمس على الأرض، قيام مشروع تنمويّ واحد، يمدّ القرى المحرومة بالماء أو الكهرباء أو الطرقات، أو مؤسّسة رعائيّة تعنى بشؤون الأرامل والأيتام والفقراء، أو بناء مدرسة أو مستوصف أو مستشفى، يؤمّن تعليم الناشئة وتقديم الخدمة الصحيّة التي يفتقدها أهلنا هناك. كانت أموال تعبنا وكدّنا وغربتنا تصبّ في تحقيق المكاسب السياسيّة للزعماء وتوزّع بقاياها على أزلامهم والمنتفعين من الأتباع والمؤيّدين.

لقد شكّل هؤلاء الأوباش المتخرّجون من شوارع الحرب العبثيّة مجموعة من المرتزقة لحقوا بالأحزاب على قدر ما استطاعوا من الاسترزاق، وعاثوا فسادًا من ابتزاز إلى سرقة إلى قتل باسم القوميّة وباسم الله والرؤساء والقادة، وما أن انطلقوا إلى الخارج حتّى عملوا على تطبيق نظريّتهم القذرة في بلاد الاغتراب، فأعلنوا انتماءهم إلى حزب أو حركة أو تيّار أو تجمّع، بهدف فرض نفوذهم وسلطتهم على الناس، وإرغامهم على الخضوع لهم، بعد أن روّجوا لبطولاتهم وأوهموهم أنّه لولا وجودهم ونضالهم أثناء الحرب الأهليّة لانتهى الوطن وانقرضت طوائفه وقضي على وجودها في لبنان.

إنّ إنشاء المراكز الإسلاميّة في المغتربات كان حاجة روحيّة وأخلاقيّة واجتماعيّة ووطنيّة كبرى لدى جميع المغتربين من مختلف الانتماءات والعقائد. وهي قامت أساسًا بتوجيه ورعاية وإشراف المراجع الدينيّة في الوطن الأمّ، وبتمويل ماليّ ومعنوي كاملين من أبناء الطوائف المغتربين، لدعم وتعزيز الدور المطلوب من هذه المراكز في أداء رسالتها السامية لتعميق الايمان في النفوس وتعزيز علاقات الناس بدينهم وعباداتهم، فضلاً عن تمتين الروابط بينهم وحضّهم على التعاون والتكافل والحفاظ على لغتهم وعقائدهم وقيمهم

وعاداتهم وتراثهم. هكذا نفهم ويفهم كلّ المؤمنين طبيعة قيام هذه المراكز وعملها وأهدافها، وهكذا ندرك طبيعة التعاطي مع مثل هذه المراكز وننفدع بكلّ ما أوتينا من عزم وقدرة وإمكانات لمساعدتها ومساندتها لإنجاح رسالتها، والحرص الكبير على إحاطتها بكلّ مظاهر الاحترام والاجلال والتقدير. ولكن، مع الأسف الشديد، ما رأيناه يتكرّر في بعض هذه المراكز، من تصرّفات وممارسات وتجاوزات لا تمتّ بصلة إلى الطائفة ولا إلى الدين ولا إلى جوهر المهمة الموكولة إليها، ما يدعو حقًّا للأسى والحزن والخوف على مسار الطائفة ومستقبلها. وأؤكّد مرّة أخرى على بعض هذه المراكز ولا يمكنني أبدًا أن أعمّم الحالة المستنكرة التي سأعرضها، لأنّ البعض الآخر، كان بحقّ منارة من منارات الإيمان والتقوى والورع، وقدوة تحتذى في الاخلاص والمثابرة والعمل لوجه الله ورضوانه من أجل مصلحة أبناء الطائفة وعائلاتها، وزرع روح المحبة بين أعضائها وبثّ الكلمة الطيّبة والمعاملة الحسنة بين الجميع. في حين أنّنا نجد أنّ مراكز دينيّة أخرى، قامت بتبرعات ومساعدات وهبات الأبرار والمحسنين، وأسّست بعرقهم وجهدهم ووفائهم وتعلّقهم بدينهم وعقيدتهم، قد أصبحت بين ليلة وضحاها بين أيدي الفاسدين الصغار، الذين تتحكّم بهم الأطماع الماديّة والغرائز السلطويّة الدنيويّة ونزعة السيطرة والغنى، فنسوا كلمة ربّهم وسموّ مهمتهم وتركوا أنفسهم تحت غواية المال. إن رجال الدنيا والدين من أمثال هؤلاء، القادمين من الوطن، والمكلّفين بمسؤولية دينيّة وأخلاقيّة خطيرة، حوّلوا بيوت الله ومراكز العبادة والاصلاح والتهذيب إلى مؤسّسات خاصة لهم ولاتباعهم، يستخدمونها ويوظّفون المقرّبين منهم ويستغلّون تعب الواهبين والمخلصين من أجل تحقيق مصالحهم الشخصيّة وجمع الثروات والتحكّم بشؤون الطائفة. فقد هبط على مغترباتنا أناس من كواكب لم نتعرّف إليها من قبل ولا على أصولها وسلوكها واضطلاعها بعلوم الدين وأسسه وغاياته، على

غرار ما كان شائعًا في القرن الماضي، قدمت من بلادنا وهي تحمل وكالات مطلقة من بعض المراجع الكريمة والتي كانت الخصومات واضحة بينها للعيان، تطلق لحاها وتهذّبها، وتنشّي العمامة وتكبّرها، وتطوّل المسبحة وتطعّمها، وتوزّع الخواتم المتوّجة بالفصوص الزرقاء والخضراء، حتّى يخيّل للرائي بأنّه أمام مرسلين نزلوا توًّا من السماوات العلى ليعيدوا إصلاح الأرض بعد أن عمّ فيها الفساد والجور. وإذ بنا نعلم أنّ أحدهم اشترط لقدومه إلى كندا أن يتقاضى مبلغ عشرة آلاف دولار بدل أجره على إحياء عشرة أيام في عاشوراء، وكأنّ أجره في الآخرة على عمل البرّ كان دون إشباع شهواته وأطماعه؟!...وغيره استطاب البقاء في هذه البلاد الجميلة فنال موافقة بابه العالي في لبنان، وأصبح بقدرة قادر مسؤولاً عن المركز الدينيّ في المنطقة، وبدأ يمارس تجارته المقدّسة، فيفرض الرسوم الماليّة على تعليم أطفالنا أصول دينهم ولغتهم، ويحدّد أسعار البطاقات للمشاركة في المناسبات الروحيّة والاجتماعيّة والنشاطات الجاليويّة، ويتّخذ من المركز شركة خاصة يوظّف فيها النساء والرجال من أتباعه وأنسبائه برواتب خياليّة، ويكلّفهم بأعمال ليست من معرفتهم واختصاصهم، كالإشراف على تعليم الأطفال ورعايتهم والاهتمام بشؤون المركز والعناية به واستقبال الزائرين وإقامة الحفلات والسهرات، تحت اسم الدين والطائفة. فكنّا نحن من يتكفّل بتمويل احتياجات المراكز وهم وحاشيتهم يتمتّعون ويجمعون الثروات ويرتزقون على حساب هذا النبع الفوّار الذي لا ينضب. فهم فضلاً عن استغلالهم لمنصبهم ورسالتهم الدينيّة والاغتناء عن طريقها، ومن أجل حماية مواقعهم ومصدر أرزاقهم، فإنّهم دأبوا على زرع الشقاق بين أبناء الطائفة وبيوتها، وبثّوا الوشايات والتنابذ بينهم، وحابوا فئة على فئة، وألّبوا النفوس على بعضها، واستفادوا كثيرًا من النزاعات والشقاقات الدائرة في الوطن، ليطبّقوا سياستهم في التفريق بين المغتربين. فتحوّلت بعض

هذه المراكز إلى مكان للكسب، وموئل للثرثارين والمنافقين، وملتقى للوصوليّين والمنتفعين. فأين الدين من كلّ هذا؟ وأين مخافة الله؟ وأين مبادئ وقيم الرسول عليه الصلاة والسلام؟ وأين تضحيات وطهارة ونقاوة آل البيت الشرفاء من مثل هؤلاء الذين آذوا بأفعالهم وسرقاتهم وسمومهم الدين والطائفة والقيم والجالية المغتربة؟

وكانت فئة الناجحين والبارزين من أبناء الطائفة، هي أكثر من تعرّض لظلم هذه الطبقة الفاسدة وابتزازها . وهنا أريد أن أورد قصّة صديق مقيم في كندا.، وهو من الذين عملوا طوال عشرات السنين في الخارج، من أجل مساعدة الأيتام، وقدّم للجالية خدمات جليلة في كلّ المجالات، فلم يتأخّر يومًا عن زيارة مريض، أو إغاثة ملهوف أو مساعدة قادم جديد، حتّى أنّه كان يشرف على مراسم غسل المتوفّين بنفسه. ومع ذلك، فإنّه ومنذ عدة سنوات ممنوع من الدخول إلى أيّ دولة في العالم، بسبب التهم التي حاكها له أحد قليلي الدين والأخلاق من أبناء جلدته وطائفته.

هذه واحدة من المآسي التي لحقت بالشيعة إلى آخر حدود الاغتراب، كي تزيد من بلائهم ومعاناتهم. وكنّا كلّما نشتكي أو نرفع الصوت أمام أحد المتنفّذين أو المسؤولين الحزبيّين أو السياسيّين، استنكارًا لهذه التصرّفات والممارسات الدنيئة، كانوا يقرعون آذاننا بالمثل العربيّ الشائع: "إنّ الشجرة المثمرة معرّضة للرشق بالحجارة."

لله ما أفظع هذه الإجابة وما أشدّ وقعها على النفوس الحرّة الكريمة!... وكأنّ المجاهدين المتعبين الذين سفحوا دمهم بعيدًا عن وطنهم وأهلهم، وسهروا وصبروا، ليبنوا أنفسهم ويحققوا نجاحاتهم، كُتب عليهم أن يدفعوا ضريبة

"ثمارهم" بتلقّي حجارة الفاسدين في الأرض، الذين يمتلكون حقًا شرعيًا مكرّسًا للتطاول على كرامات الناس وتناول سمعتهم ووضع اليد على نجاحاتهم ومصادرة عرقهم وأرزاقهم متى وكيف يشاؤون.

فكّرت مليًا في معاني هذا المثل وما ينطوي عليه من نزعة الفاشلين المقصّرين في الاعتداء على حقوق الناس وانجازاتهم، مع محاولة إيجاد المبرّرات والذرائع التي تبيح لهم هذ الجرائم وتساعدهم على التمادي بها. فبدل أن نحضّ على احتضان الأشجار المثمرة المعطاءة وحمايتها ورعايتها، نختلق الأعذار لمن يسقط خيراتها بالحجارة، بعد أن عجز من الافادة منها بالحلال والقانون.

إنّ في الطائفة الشيعيّة التي أعتزّ كلّ الاعتزاز بالانتماء إليها، إيمانًا وفكرًا ومنهجًا، أناسًا نذروا أنفسهم لله تعالى، وبذلوا أرواحهم ودماءهم الشريفة من أجل وطنهم كانت نقطة الضوء ومعقد الرجاء في ولادة فجر جديد طال انتظاره ودفعت من أجله أثمان باهظة من الضحايا والشهداء.

وحققت هذه المقاومة بكوكبة شهدائها الشباب الأبرار، وبالتفاف الشعب اللبنانيّ حولها كالسياج الحصين، ومؤازرة الجيش اللبنانيّ ودعمه وحمايته، أكبر انتصار حين أرغم الجيش الاسرائيليّ المحتلّ، عام 2000، على الانسحاب من أكثر الأراضي اللبنانيّة المحتلّة. فكانت معجزة التحرير الأولى في التاريخ العربيّ الحديث، التي هبّ لها لبنان بكل طوائفه وأحزابه وفئاته، يقيم لها أعراس النصر والتمجيد، كما شهد لها العالمان العربيّ والغربيّ، لأنّها كانت بحقّ ثورة المظلومين والأحرار والوطنيّين، على الظالم والمحتلّ.

كما أستطيع القول إن الطائفيّة وعدم قبولنا للاستماع للآخر الذي حذّر من اتفاق القاهرة الذي تخوّف من التمدّد الفلسطيني في أرجاء الوطن وعزل فريق من اللبنانيّين قبل الحرب الأهليّة والتباهي بأنّ هناك لبنانيًا درجة أولى ولبنانيًا درجة ثانية، وعدم التنازل واعتراف أحدنا بحقوق الآخر، كلّفنا مئات آلاف الشهداء من جميع الطوائف وفقد لبنان أكثر من فرصة ليكون في طليعة الدول في العالم. ولقد كانت الطائفيَّة البغيضة مشكلة المشاكل وعقدة العقد والطعنة المميتة لقيام الوطن

وكان من سخريات القدر، أن تُخطف الفرحة سريعًا من عيون العائدين إلى أرضهم وديارهم ومناطقهم، في 11 أيلول (سبتمبر) 2001. وكان الحدث كالزلزال الذي حلّ بالعالم كلّه، وكان من نتيجة ذلك، أن تحالفت القوى العالميّة برمّتها ضدّ ما يعرف بالحرب على الإرهاب وملاحقة خلاياه ومنظماته للقضاء عليه. وعاد الإسلام والمسلمون ليقعوا مرّة جديدة تحت مجهر الأحداث.

فقد وضعت منظمة القاعدة الإسلاميّة الأصوليّة في قائمة الإرهاب، وتعرّض المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، إلى أبشع حملة عدائيّة تشنّ ضدّهم وتصوّرهم بأنهم مجرمون وسفّاحون وأعداء للديموقراطيّة والمدنيّة والحضارة والفكر الحرّ. لم تبقَ تهمة من تهم الاجرام إلاّ وألصقت بالمسلمين، وتعرّضوا إلى مختلف أشكال التضييق والحصار والمنع، كما تعرضت مراكزهم الدينيّة والاجتماعيّة إلى حملة واسعة من الاعتداءات والإغلاق.

وكان من أبرز ارتدادات هذا الزلزال الكبير، ما جرى، وما يزال يجري، في العراق وأفغانستان وباكستان ومختلف الدول الإسلاميّة. وأصاب الشيعة ما أصاب المسلمين عامّة، فوضعوا جميعًا في سلّة الإرهاب، وأصبحوا تهمة

جاهزة أمام أعين السلطات ورجال الأمن والمخابرات. ولم يعد بإمكانهم الاجتماع ببعضهم أوممارسة شعائرهم الدينيّة ونشاطاتهم الاجتماعيّة في مراكز الجالية، بالحرّيّة التي كانت متاحة لهم قبل ذلك. حتّى أنّ أموالهم ومداخيلهم وضعت تحت المراقبة الشديدة. وصار من يدخل المسجد مراقبًا ومن يتبرّع لجمعيّة إسلاميّة أو خيريّة كمن يدعم الإرهاب ويساعده. وقد لعب، مع الأسف الشديد، بعض أبناء الجالية دورًا دنيئًا في هذا المجال، إذ كانت فرصة لهم للانتقام من خصومهم في السياسة أو العمل.

وتألّبت بعد ذلك الأحداث الجسام على لبنان ومنطقة الشرق الأوسط كلّه. فتمّ غزو العراق ونهبه وتدميره وتفتيته، واجتاحت الاغتيالات الشرسة زعماء لبنان لا توفّر رئيسًا ولا نائبًا ولا صحافيًّا ولا مسؤولاً. وجاءت الحرب الإسرائيليّة في صيف العام 2006 لتعيد بضراوتها تهديم ما تعمّر، وترخي بظلالها الثقيلة على مجمل الحياة السياسيّة في لبنان، فتعمّق إنقسام المجتمع اللبنانيّ على ذاته وتوزّعه شيعًا وطوائف ومجموعات تتربّص ببعضها وتكيل لأطرافها أشنع اتهامات الخيانة والعمالة، وبألفاظ سوقيّة بذيئة مبتذلة، لم يشهد لها تاريخ السياسة في العالم مثيلاً ولا شبيهًا، وانحدر العمل السياسيّ إلى أدنى دركاته، وتحوّلت الصراعات إلى الأزقّة والشوارع، فشلّت الحكومة وتعطّلت المؤسّسات الدستوريّة وأجهزتها، وأصبحت الدولة في مهبّ الريح، فلا رئيسًا للجمهوريّة، ولا حكومة وطنيّة فاعلة، ولا مجلس نواب يشرّع ويراقب ويحاسب. ودخل البلد تحت رقابة الأمم المتحدة، فأصدر القرار تلو القرار، وأنشئت محمكة دوليّة للتحقيق في موجة الاغتيالات، وتصاعدت وتيرة التأزّم والصراع بين الأحزاب والمجموعات، ووصلت إلى أحداث ما عرف بالسابع من أيار (2008) ، التي

كانت تغرق البلد في حرب أهليّة جديدة، إلى أن جاءت تسوية اتفاق الدوحة في قطر برعاية إقليميّة ودوليّة.

ولكن، ومع الأسف الشديد، كان الارتهان إلى الجهات الخارجيّة، إقليميًا وعربيًا ودوليًا، قد بلغ ذروته لدى جميع الأطراف، ولم يعد أحد قادرًا على التخاطب أو التحاور أو اجتراح أيّ تصوّر لحلّ الأزمة إلاّ بناء على تعليمات وقرارات الجهة التي يتبع لها. وإذا كان معروفًا حجم النزاع والتناقضات بين الجهات الخارجيّة وبين المحاور القريبة والبعيدة، وتوزّعها بين محور سوريّ إيرانيّ، وسعوديّ مصريّ، وأميركيّ أوروبيّ، فإنّه يتبيّن عندها مدى عمق الهوة التّي صارت تفصل بين الأفرقاء اللبنانيّين، وضراوة الصراع الذي يباعد بينهم.

فالحرب ليست كلّها قتالاً ومعارك واشتباكات، إنّها أفدح وأبشع وأقذر من ذلك بكثير، إنّها مشاعر الحقد والكراهية والإنتقام، التّي تغلغلت في نفوس أغلب الناس من كلّ الأطراف، يلهبها خطاب موتور من الزعماء، مليء بمفردات الدسّ وإيقاظ الفتنة بين الناس، وبيانات مسمومة ممّا وراء الحدود تطلق الغرائز الدينيّة والمذهبيّة والطبقيّة والجاهليّة المأجورة، لتصنع منها قنابل موقوته جاهزة للانفجار حسب المصالح والأطماع والأهواء.

وكان من نتيجة ذلك، أن وُضعت بعض دول المنطقة وبعض الأحزاب والشخصيّات على قائمة الإرهاب وفي لائحة من يدعمون الحركات الإرهابيّة ولا يتعاونون مع المجتمع الدوليّ في حربه ضد المنظّمات والأطراف الأصوليّة التّي تهدّد الأمن والسلام العالميّين. وفرضت عليها عقوبات الحصار والمقاطعة والملاحقة على درجات متفاوتة.

وأصبح – الشيعة – أيضًا، ضمن الخارطة التي أطلق عليه "المنظّمات الأصوليّة الإسلاميّة" الممنوعة والمشبوهة. وكما استنفرت أميركا العالم كلّه، لمساندتها في الحرب ضدّ القاعدة وطالبان، تمّ التأثير على معظم الدول الكبرى، لتصنّف "حزب الله" اللبنانيّ وحركة "حماس الفلسطينيّة" والجهات والدول والشخصيّات الداعمة والمؤيدة لهما في عداد الإرهابيّين المتّهمين.

وكان تأثير ذلك بالغًا على المغتربين في مختلف البلاد، فتعرّضوا إلى كلّ أشكال التضييق والمتابعة، ووضعت مراكزهم الدينيّة والاجتماعيّة والثقافيّة تحت المراقبة الدقيقة، وأصبحت تحرّكاتهم ومصالحهم عرضة دائمة للمساءلة. إضافة إلى تفاقم حدّة الانقسام والتخاصم بين أبناء الجالية تبعًا للإصطفافات السياسيّة والمذهبيّة التي تكرّست في الوطن وسحبت ذيولها على المغتربين.

وكان أكثر المتضررين من هذا الأمر نشاطات المغتربين الشيعة ومؤسّساتهم الخيريّة الإنسانيّة التي تعرّضت هي الأخرى لشتّى أنواع الرقابة. وهذا ما سوف أعرض له في الفصل القادم لتبيان حقيقة وكيفيّة الأعمال الخيريّة في بلاد الاغتراب. علمًا وكلمة حقّ تقال، أنّ جميع هذه الاجراءات لم تتعد يومًا الأصول والقواعد القانونيّة والإنسانيّة وإحترام مبادئ الحرّيات الشخصيّة المكرّسة، وبقيت في حدود الحفاظ على السياسة العامّة للبلاد وحماية أمنها ومصالحها، دون أن تفقد صفة توازنها أو تعمد إلى إلقاء التهم العشوائيّة لتطال البريء والمذنب تبعًا لمفهوم العقاب الجماعيّ المتّبع في كثير من البلاد المتخلّفة في مثل هذه الظروف.

-15-

معضلة العمل الخيري في المغتربات

أكثر دول الإغتراب اللبنانيّ التي استجابت للضغوط الأميركيّة والإسرائيليّة، فرضت قيودًا مشدّدة على الدول والأحزاب والجمعيّات والمؤسّسات والشخصيّات المصنّفة "إرهابيّة"، وأظهرت تعاطفًا وتأييدًا كاملين لأعمال إسرائيل في لبنان وغزّة. وانعكس ذلك على جالياتنا في تلك الدول، ، وبات المغتربون يخشون المشاركة في أيّ نشاط داعم للمؤسّسات والجمعيّات الخيريّة والإنسانيّة التابعة للطائفة في الاغتراب أو في الوطن الأمّ.

ظلّ بسبب ذلك، بعض المراكز الدينيّة سنوات دون إمام رسميّ بشكل دائم، كما فُرض حظر على التبرّعات والمساعدات الماليّة، ومُنع الكثيرون من أبناء الطائفة من دخول بعض الدول للعمل أو الدراسة أو الهجرة، كما تمّ إلغاء عقود العمل لآخرين وأجبروا على مغادرة البلاد التي يعيشون ويرتزقون فيها مع أسرهم وأولادهم. وكلّ ذلك بسبب ما يجري في بلادنا، وبسبب نشاطات أطراف سياسيّة، لا سيّما أنّ التبرّعات والهبات والمساعدات المقدّمة من الأشخاص أو المؤسّسات، لأيّة جهة، كانت محكومة في أكثر بلاد الاغتراب بقوانين واضحة ودقيقة مرتبطة بالتصريحات الضرائبيّة المقدّمة إلى الجهات الرسميّة.

الاشتغال في العمل الخيريّ في بلاد الاغتراب، في أوروبا وكندا وأميركا تحديدًا، وإنشاء الجمعيّات التي تهدف إلى تقديم المساعدات الماديّة والعينيّة لمختلف الجمعيّات والمؤسّسات التي لا تبغي تحقيق أرباح أو مكاسب ماليّة، تخضع في تأسيسها ونظامها إلى قوانين ومقاييس وشروط تختلف كلّيًا في

التكوين والأسلوب عن المُتعارف عليه في بلادنا العربيّة عمومًا وفي لبنان خصوصًا.

كما أنّ عمليّة جمع الأموال، التي دأب بعض القادمين إلينا على طلبها ودعوة أبناء الجالية للمساهمة في حملاتها، لم تكن تمرّ ببساطة ويسر من غير حسيب ولا رقيب، بل كانت بحدّ ذاتها محكومة بقوانين صارمة وتخضع لمراقبة شديدة، ليس لأنّها مرسلة إلى خارج البلد فقط، بل من أجل معرفة مصادر هذه الأموال والتأكّد من دفع الضرائب المتوجّبة عليها والتثبّت من أنّها أموال نظيفة وليست أموالاً "مغسولة" أو "سوداء".

تمشّيًا مع تلك القوانين، كان باستطاعة المغتربين المساهمة في تقديم المساعدات لإخواننا في الوطن بطريقة شرعيّة قانونيّة إذا أشرف على مثل هذا العمل أناس يعرفون قراءة القوانين ويستطيعون فهمها وتطبيقها.

العمل الخيريّ في لبنان وفي مناطق الشيعة بشكل خاص، عمل إنسانيّ بامتياز ولا شكوك حوله أبدًا، شريطة أن يتمّ شرح أهدافه والمستفيدين منه بطريقة واضحة شفّافة وموضوعيّة تُبعد عنه الظنون وتظهر آثاره الخيريّة والاجتماعيّة على المجتمع وانعكاسها على سلام العالم وأمنه وتقدّمه.

في بلاد الاغتراب، يعرفون تمامًا أنّ إيواء الأطفال اليتامى والمشرّدين واحتضانهم ورعايتهم داخل مبرّة خيريّة، يعني إغلاق سجن مُفترض لمجرمين خطرين في المستقبل. لأنّ أيّ طفل يُترك في الشارع يتلقّى تربية الشارع نفسه ويصبح عرضة لكلّ احتمالات الانحراف والجريمة، أمّا الاهتمام به وتعليمه وإحاطته بالعطف والرعاية والعيش الكريم، فسوف ينقذ هذا الطفل من ناحية،

ويحسن للبشريّة جمعاء من ناحية أخرى. لذا كان المطلوب في مثل هذه الحالة مثلاً، أن نقدّم البراهين والأدلّة الحسيّة سواء بالاحصاءات أو الدراسات أو الصور أو المستندات الرسميّة عن مشاريع خيريّة كهذه، كما كان يمكن استضافة أشخاص من الدول المعنيّة لزيارة هذه المؤسّسات في مواقعها وإطلاعهم على عملها وإنجازاتها، من أجل إقناعهم بجدوى هذه الأنشطة والحصول على مساعدات منهم أيضًا، وبالطبع دون السؤال عن دين هذه المؤسّسة أو طائفتها أو مذهب القائمين عليها.

احببت أن أذكر هذه الأمثلة الواقعيّة، المقتبسة من تجاربنا الطويلة في الأعمال الخيريّة في بلاد الاغتراب، لكي أؤكّد مرّة أخرى أنّ تأدية مثل هذه الجهود ليس متروكًا على غاربه وبناء على الأهواء والأمزجة. إنّما هو خاضع للأصول والقواعد ولقاء إيصالات رسميّة واضحة ومسجّلة، لحماية المتبرّع الذي من حقّه حسم هذه التبرّعات أو بعضها من متوجّباته الضريبيّة ضمن المقدار المسموح به قانونيًا . ويعتبر هذا من ضمن سياسة الدولة التي تتوخّى منها حضّ القادرين على المساهمة في دعم المؤسّسات الإنسانيّة الخيريّة . وإلاّ فإنّ عدم التصريح عن ذلك، أو محاولة التلاعب في هذا الأمر، يوقع صاحبه في مساءلة قانونيّة خطرة، ويُعتبر إمّا متهرّبًا من دفع الضرائب المتوجّبة عليه أو متعمّدًا إخفاء الجهة المستفيدة لأنّها محظورة أو غير شرعيّة وأعرف الكثيرين من الشباب المخلصين المغتربين الذين دفعوا أثمانًا باهظة من سمعتهم وأعمالهم ومستقبلهم، لخلطهم، من حيث يدرون أو لا يدرون، بين مساعدة يتيم أو معوز أو عاجز، وبين مساعدة من هو متّهم بـ "الإرهاب". وبسبب هذه الإجراءات والأنظمة كان علينا أن نحسن تقديم أنفسنا إلى العالم الحرّ والمتقدّم، عالم العلم والبراهين والوضوح، بالطريقة المثلى وإذا لم يكن باستطاعتنا أن

نتواصل مع أناس يدفعون ذخيرة العمر من أجل الذهاب برحلة لاكتشاف شعوب ودول جديدة، فلن نتمكّن أبدًا من التواصل معهم وإقناعهم وحثّهم على زيارة مؤسّساتنا الصحيّة والتعليميّة والاجتماعيّة الخيريّة التي نطلب المساعدات من أجلها. ألم نسمع ونعلم بأنّه: "إذا لم يظهر العالِم علمه فسوف يتبوّأ مركزه في النار"!

فقد قُيّدت الفعّاليّات في المغتربات، وتراجعت النشاطات في التجمّعات الطلاّبيّة والجمعيّات والروابط الاغترابيّة للتعبيرعن قضايا الوطن ومصالحه والدفاع عنها، للتأثير في الرأي العام وإقناعه بالتعاطف مع حقوقنا، سواء في وسائل الإعلام أو في التظاهر. وكان من أبرز وجوه هذا التأثير، فقد المسلمين القدرة على مخاطبة المسؤولين ومراكز القرار في حكومات البلاد التي ينتشرون فيها والتأثير عليها بغية تفهّم مطالبها وأوضاعها وتأييدها. وأصبح انتماء اي مسلم أو الاشتباه بانحيازه ودعمه لإحدى الجهات المشمولة بالحظر، تهمة جاهزة ومصدرًا للخطر والقلق على مصالحه وأعماله ومستقبل عائلته، التي أصبحت مهدّدة ومراقبة، لا سيّما من مراكز القوى الفاعلة والقادرة والمسيطرة على الكثير من القطاعات الصناعيّة والتجاريّة والمصرفيّة. وقد تعرّض كثيرون من أبناء طائفتنا إلى مضايقات جمّة وشديدة في مختلف بلاد الاغتراب وما أزال أذكر ما أصاب عددًا من الشخصيّات الإسلاميّة التي كانت معروفة في الأوساط السياسيّة ومشهود بأدوارها الهامّة والمؤثّرة من خلال عملها في الشأن العام والمجالات البلديّة، بعد أن تمّ استبعادها من الترشّح باسم بعض الأحزاب السياسيّة المحليّة أو فشلها في الانتخابات بسبب تراجع شعبيّتها والأصوات المؤيّدة لها.

أمّا بالنسبة إلى الأهل والوطن، فقد حرم أهلنا من جزء كبير من المساعدات المادية والعينيّة التي كنّا نجمعها ونرسلها لهم، وحرم من جرّائها الوطن من ظهير قويّ وفاعل في بلاد الانتشار ساهم، في أزمنة المحنة والأزمات، في حشد المساندة والتأييد الدوليّين لحقوقه وقضاياه الكبرى على مختلف الصعد.

وهكذا ابتُلي أبناء الطائفة بأصعب المواقف وأحرجها. إذا أبدى الشيعيّ انتماءه في الخارج كانت طامّة كبرى، وإذا أعلن حياده داخل الوطن فله الويل والثبور وعظائم الأمور. وفي هذه المعادلة العويصة، وقع المغترب الشيعيّ بين مطرقة البلد الذي يعيش ويستقرّ فيه وبين سندان طائفته ومنطقته في وطنه الأمّ. فهو لا مع "ستّي بخير ولا مع سيدي بخير ولعلّ أكثر ما يوضّح هذه المعاناة المرّة وهذا الموقف الصعب الذي وضعنا فيه، ما عبّر عنه أحد أئمّة طائفتنا في كندا، عندما قال في إحدى خطبه وهو يؤمّ المصلّين، مشيرًا بعقلانيّة وحكمة عميقتين إلى هذا المأزق: "من الضرورة الانتباه إلى مجتمعنا الجاليويّ، والاهتمام بالجيل الجديد، بعيدًا عن اليافطات والشعارات التي هي فضفاضة بالنسبة إلى احتياجاتنا الجاليويّة في مجتمع الغربة. فنحن لسنا في ساحة تصفية حسابات مع أطراف سياسيّة كنديّة بسبب مواقفها من قضايانا الكبرى، وإذا كنّا لا نتّفق معها ولا نشاطرها الرأي في قناعتها حيال المشكلة العربيّة الإسرائيليّة، فليس معنى ذلك أن نزجّ الجالية في مواجهة معها، فمصلحتنا في اغترابنا الذي نعيش فيه تقتضي منّا أن نحافظ على أخلاقنا وتراثنا وشخصيّاتنا، وأن نخلص للوطن الذي نعيش فيه كندا، وهو ال ذي فتح ذراعيه لأهلنا وأبنائنا بكل مصداقيّة."

ولم تقتَصر معاناة المغتربين عند حدود البلد الذي يقيمون فيه بل لاحقتهم إلى الوطن الأمّ.

-16-

الأسياد الجدد وظلم ذوي القربى

لم تنته معاناة المغتربين عند حدود إغترابهم، بل إمتدّت لتشمل وطننا و قرانا، حيث وجد المغتربون، الذين ضحّوا بكلّ ما يملكون من أجل إعادة ترميم بيوتهم المهدّمة، أو بناء منازل جديدة يحلمون بالإقامة فيها مع أولادهم بعد العودة، أو إقامة مشروعات تجاريّة أو صناعيّة أو عقاريّة في وطنهم الأمّ، وتحديدًا بعد أن تمّ التحرير في عام 2000، وجدوا أنّ جنى العمر والتعب والعرق، وحلم الأهل والأولاد في المستقبل، وما كسبوه وما أنجزوه أصبح، دمارًا بين ليلة وضحاها في 2006، فسقط آلاف الشهداء، وتهدّمت البيوت وأحرقت المصانع والمؤسّسات، واحترقت معها كلّ إنجازاتنا عبر السنين، وتهجّر الأهل والأحباب في عرض البلاد وطولها. مشهد لن ننساه ما حيينا عندما وجد أهلنا أنفسهم في عين العاصفه وقد افترشوا الأرض والتحفوا السماء . أمّا من استقبل أهلنا، فهذا واجب المواطنيّة السليمة والأخلاق العالية التي تؤجّج المشاعر وتوقظ الضمير وتوجّه السلوك، (إنّ مجد النفوس يقظة حسّ).

لقد دُمّر لي في هذه الحرب أربعة بيوت في ضاحية بيروت، وبيتين في بلدتي بنت جبيل، واعتصرني ألم جارح وأنا أرى عيون والديّ رحمهما الله تعالى، تتحجّر فيهما الدموع وتُغرق الغصّات قلبيهما لقد كانا طوال فترة إغترابهما التي دامت حوالي عشرين عامًا، يجمعان من الدول التي أقاما فيها، في إلمانيا ورومانيا وكندا، كلّ ما وجداه مفيدًا لهما في شيخوختهما، ووزّعاه في تلك البيوت لتصبح طعامًا للنيران كان والدي قد أصرّ على أن نعيد بناء بيتنا الذي ولدنا فيه، وقد إحترمت رغبته وإرادته، وأنهينا البناء عام 2005، ولكن لم

يتمكّن أن يمضي فيه ليلة واحدة، قبل أن يصعقه النبأ، وهو المقيم في كندا، أنّ كلّ شيء قد تهدّم، لتبدأ معاناته النفسيّة من جديد، وإصراره مرّة أخرى على إعاده البناء، بعدما حلّ العام 2008 من غير أن ينفذ أيّ وعد، أقلّه بالنسبه لأرزاقنا، وبعد أن شاهد معاناتنا عندما ذهبنا لتلبيه رغبة الوالدة المرحومة التّي توفّاها الله في بلاد الإغتراب في ذلك العام، وقد تركت في وصيّتها أن تدفن في ثرى بلدتنا بنت جبيل، فنقلنا الجثمان الطاهر مباشرة من الطائرة إلى المقبرة، حيث لم نجد من أملاكنا سقفاً يأوينا لنقيم ونتقبّل فيه مراسم العزاء، نحن الذين إستثمرنا الملايين في بلدنا، تحسبًا لحدث سعيد أو حدث حزين . وعندئذ قرّر والدي البقاء في الوطن للاشراف بنفسه على إعاده إعمار بيت العائلة في بنت جبيل. بعد أن تحكّم به قلق وخوف كبيران من ألاّ نجد بيتًا من أملاكنا نستقبل فيه من يواسينا . ونزلنا عند رغبته وإرادته، ول كن مع كبير الأسف واللوعة والحرقة، فقد صدق حسّه وظنّه، حيث لم يمهله القدر، ووافته المنيّة عام 2009 لينتقل إلى جوار ربّه، رحمة الله عليه، قبل أن يكحّل عينيه ويثلج قلبه بعودة البيت الذي كان يتحرّق شوقًا إليه ليقضي فيه آخر أيام حياته.

وبسبب ما ألمّ بأهلنا و قرانا من جرّاء حرب 2006، أخذنا نشكر مَن استقبلنا وحضن أمّهاتنا وأولادنا وبعدما كانت بيوت المغتربين الواسعة، تأوي طائفة كاملة.

هل كانت مغامرة أن تتحمّل طائفتنا الكريمة عبئًا عجزت عنه دول الصمود والتصدّي والنفط؟ هل كانت مغامرة أن نكمل رفع الشعارات المساندة لفلسطين والمنادية بتحرير مزارع شبعا وتلال كفرشوبا، التي لا يملك الشيعة فيها مترًا

مرننًا واحدًا، وفي الوقت الذي ينادي فيه نصف الشعب اللبنانيّ بضرورة إعتماد الطرق الدبلوماسيّة وقرارات الأمم المتّحدة لحلّ هذه المسائل ومعالجة القضيّة الفلسطينيّة، ويقولون إننا لا نتحمّل أن نكون ساحة للصراع؟ هل كانت مغامرة عندما ضحّى الشيعة بإنجازاتهم التي جمعت بالعرق والدماء دون جزاء أو عرفان؟..

أفقر طائفة في لبنان يوقظها الإمام الصدر من سبات ويأس، ويعقصها الفقر، ويطرد أبناءها أمراء الاقطاع وزعماء الحرب، تراها تنتفض وتنتشر و تنجح وتتمدّد في كلّ لبنان عمرانًا، ويسطع نجمها بأبنائها المتعلّمين والشعراء والأدباء، ويتغيّر الحال لأحسن حال، لا بدّ أن تستمع لما قاله أحد رجال الدين الشيعة الأجلاّء، متخوّفًا من فقدان الإنجازات والرجوع إلى نقطة الصفر "إنّ الطائفة لم تعد تقبل أو تتحمّل حربًا أخرى. أمّا إذا هاجمنا واعتدى علينا أيّ كان، فإنّنا سنكون صفًّا واحدًا ويدًا واحدة."

كلام سليم ومنطقيّ، وإذا كان قادتنا قد وصلوا إلى تحقيق توازن الرعب مع إسرائيل، فنرجو منهم أن يضعوا خطّة للتوّصل إلى توازن إنمائيّ وبيئيّ وجماليّ، وتوازن في الجبال الخضراء والأراضي الخصبة والتنظيم المدنيّ الراقيّ، حيث إنّ مناطق فلسطين المحاذية لأراضينا والمطلّة عليها، تسحر الأنظار وتستفزّ مشاعرنا، نحن الذين جبنا العالم وعملنا المستحيل، فنتساءل لماذا توجد البساتين الغنّاء في الجهة المقابلة والخرائب عندنا؟ لماذا يتجرّأ الجميع على إلقاء الفضلات البشريّة والحيوانيّة السامّة وكلّ أنواع الأوساخ في الأنهار التي يشرب منها أهلنا ويغتسلون ويتوضّأون؟ هل هذا الشعب عدوّ؟

علمًا بأنني ضدّ التلوّث حتّى ولو كان ذاهبًا وموجّهًا نحو العدوّ، لأنّنا جميعًا في كوكب واحد ومن واجبنا الحفاظ على نظافته وسلامته.

كنت أتمنّى أن يعلم سادتنا الكرام، أنّ المغترب الشيعيّ قد شعر أنّ عام الفين، عام التحرير، هو نهاية عصر الاحتلال العسكريّ العقيت والبغيض، كما هو بداية عصر الاستقرار والخلاص والانعتاق من كلّ استبداد سياسيّ أو اقطاعيّ أو اجتماعي، ومن عوامل القهر والعذاب، بعد أجيال من التهجير والقتل. فبنى آماله وطموحاته التي كانت متأجّجة في نفسه بانتظار لحظة الانطلاق، وبدأ بالإستثمار والتخطيط والعمل من أجل تحقيق هذه الآمال على أرض آبائه وأعرف إخوانًا لنا رهنوا بيوتهم في أميركا وكندا وأوروبا ليبنوا بيت العمر في الوطن، فكان ما كان ....من احتراق الأمل والجنى ومن مهازل القدر أنّ الكثيرين من أهلنا لجأوا إلى المخيّمات للاحتماء والاختباء إبّان الحرب، ولم لا ؟ ألسنا نحن أصحاب القضيّة؟ !... ولو كانت الحرب قد قامت من أجل تنفيذ مشروع الليطانيّ، لعلمنا عندها، أنّ هناك من يفكّر في تأمين الماء والكهرباء والعيش اللائق والكريم لأهلنا الصابرين المقهورين. ولكن:

"قالت الضفدع قولاً فسرّته الحكماء

في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء؟"

فوق هذا كلّه، ما أن تطأ قدما المغترب أرض الوطن، حتّى تطالعه الوجوه المسكونة بألف سؤال وسؤال، وتبدأ منذ اللحظة الأولى، المواقف والعبارات، ما يشعره كأنّه كان متخلّيًا عن واجباته الوطنيّة ومقصّرًا في أداء فروضه الشرعيّة والاجتماعيّة والجهاديّة وكأنّ بناء الأوطان والمجتمعات وتحقيق

التنمية والتقدّم، لا يتمّ إلاّ بالسلاح ، أو أنّ الوطنيّة لا تتجسّد إلاّ بإدخال البلاد والعباد، مرّة بعد مرّة، في فوّهة المدفع ، أو أنّ حبّ الأوطان يتوقّف حصرًا عند تقديم قوافل الشهداء من أبنائها الأبرار، دون أيّ حساب للسواعد والعقول والإرادات الوطنيّة الخيّرة التي تبني وتعمّر وتشيّد المدارس والطرقات والمستشفيات وتضخّ الدماء في شرايين الوطن اليابسة لتنبض مجدّدًا بالحياة.

لا يعني كلامنا أبدًا، أنّنا نتنكّر، لا سمح الله، لكلّ التضحيات الجسام التي لا يمكن أن تقدّر بأيّ ثمن، ولكلّ الشهداء الذين بذلوا أرواحهم ودماءهم وشبابهم من أجل الدفاع عن الأرض والعرض والكرامة، فهؤلاء مأواهم الجنّة مع الأبرار الصالحين، وهؤلاء هم الخالدون في تاريخ الوطن . ولكن هناك أيضًا مَن آمن كما آمنت هذه الكوكبة السامية من الصالحين والشرفاء، أنّ "من مات دون ماله أو عرضه فهو شهيد"، وبأنّ مَن جاهد في سبيل علمه وأولاده وأهله ووطنه، وخرج يسعى في مناكب الأرض ليستر عرضه ويبني مستقبلاً لأبنائه ويضحّي من أجل أن يؤمّن اللقمة له ولعياله بعرق الشرف والأمانة، بعد أن انقطعت به السبل في وطنه، وسُدّت في وجهه أبواب الرزق ظلمًا وقهرًا وعدوانًا، هو أيضًا من الشهداء الأحياء، ومن المخلصين والصالحين. فهو ليس مقصّرًا ، ولا يجب أن نتركه يعاني عُقَدَ الذنب والتقاعس، لأنّه كان يقاوم أيضًا، ويجاهد ويصبر ويكابد، بسلاح آخر، في وجه مختلف الرياح والتيّارات العاتية، لكي يحصّن نفسه وعياله، ضدّ الانحراف والضياع ولكي يحافظ على مبادئه ومعتقده وتراثه وتاريخه.

وهنا عاد المغترب مرّة أخرى، ليسقط في الدوّامة نفسها التي كانت سببًا أساسًا في تهجيره واغترابه، فبعد أن ذاق مرّ الأيّام وعلقمها في مطلع شبابه، ووجد

نفسه محاطًا بالفقر والظلم والحرمان، ومعزولاً عن أنداد له ولدوا وفي أفواههم ملاعق الذهب.

وما كان يزيد من ألم المغترب وحسراته، أنّه كان يمثّل صيدًا دسمًا للابتزاز الماديّ والمعنويّ بأبشع صوره، كان البقرة الحلوب التي عليها أن تدرّ حليبها جزية وضريبة على مدار الساعة كان عليه أن يُبقي جيوبه مفتوحةً للقريب والبعيد، حتّى أنّ تبرعاته التي كان يرسلها عن رضى وطيب خاطر، في سبيل إقامة المشاريع الخيريّة والدينيّة والثقافيّة، كان يفاجأ بأنّها أصبحت باسم غيره وبقي هو نكرةً ينظر إلى اللوائح المنقوشة على مداخل المؤسّسات والمراكز والمرصّعة بأسماء المسؤولين، دون أن يجد حرفًا من حروف اسمه تذكر له الفضل والشكر لما جاد به.

لا يمكن وأنا أتحدّث عن الإغتراب والعائدين لمدّ يد المساعدة إلى الأهل، إلاّ أن أذكر بالفضل والعرفان، في بلدتي بنت جبيل وكذلك في الجنوب، لعائله كريمة لم يتسن لي شرف معرفتها شخصيًا ولكنّ أعمال الخير التي قامت بها ستخلّد أبناءها وتحفظ لهم الجميل، ومنهم المغترب الحاج الدكتور إسماعيل عبّاس، المحسن المتنوّر، صانع الشباب والعقول وقاهر الجهل، الذي فكّر منذ نهاية الستينيّات، وعندما كان الجنوب منسيًّا، فقام ببناء ثانويّه بنت جبيل، أول صرح علميّ عالٍ فيها، أتاح أمام شباب وصبايا المنطقة فرصة متابعة دراساتهم الثانويّة التى كانت المدخل للدراسات العليا. وممّا لا شكّ فيه، أنّ هذا الإنجاز التربويّ التعليميّ الهام ساهم مساهمة كبيرة في تطوير مستوى الحياة في المنطقة، كما أحدث تغييرًا جوهريًّا في مستقبل الكثيرين من أبنائنا وبناتنا. فضلاً عمّا قدّمه هذا المحسن الكبير من مساعدات ومكرمات للمحتاجين

والمعوزين، كما أنّ أخاه الحاج موسى عباس قام ببناء مركز إسلاميّ في بنت جبيل أيضًا، فاكتملت به عمارة العقول والنفوس، وعمارة العلم والايمان والأخلاق. جزاهما الله ألف خير في الدنيا والآخرة. فهل التقى به أصحاب الشأن يا ترى؟ وهل كرّموه وأدّوا له حقّه الإنسانيّ ؟ وهل أنّ لرجل كهذا ولأشباهه الكثيرين، ممّن لا يحنون هاماتهم إلاّ لله سبحانه، مكانًا لقيادة هذه الطائفة؟.

وما كان يزيد الطين بلّة، ويعمّق الشعور بالتغريب، حتّى بين أقرب الناس إلى المغترب العائد أنّه وهو القادم بعد سنوات، من بلاد إحتضنته وتشرّب فيها معاني الحرّيّة والأخلاق والنظام، وتعلّم احترام الآخر وقبوله، والتعامل معه بغضّ النظر عن دينه وعرقه وجنسه، وتعوّد الصدق في المعاملة والتزام القانون في التعامل مع الآخرين، يجد ما يجري في وطنه، وما يدور من الأحاديث، وما يمارس من التصرّفات والسلوكات والتجاوزات، في البيوت أو الشوارع أو الإدارات الخاصّة والعامّة، غريبًا ومستهجنًا ومستنكرًا في أغلب الأحيان، ولم يعد بإمكانه تقبّله أو التعايش معه أو الاقتداء به، فغدا سلوكه بين أقرانه وأبناء وطنه، غريبًا جدًا وموضع تساؤل ورفض وسخرية لدى الكثيرين. فبعد أن عاش المغترب حياة مليئة بالحرّيّة والديموقراطيّة والتسامح، واعتاد النظام واحترام الآخر، وتدرّب على الاعتراف بحقوق الآخرين وكفالة حقّه معهم بالقانون، وتعلّم العيش بكرامة وإخاء ومساواة وحرّيّة كاملة في التعبير والاعتقاد، دون أن ينظر إلى لون الآخر ودينه وأصله، إذ بهذه القيم، تتحوّل إلى اتّهامات ضدّه لأنّه تخلّى عن طبيعة التفكير وانتقل من الانتماء للطائفة والقرية والزعيم والعشيرة إلى الانتماء للدولة والوطن والمجتمع الإنسانيّ، وآثر الثقافة والاستماع والرفض والقبول دون استفزاز أو تجريح أو أحكام مسبقة،

واعتاد التعامل مع الجميع بانفتاح وبدون عقد، فأصبح التزامه بأنظمة السير مثلاً ضربًا من الغباء وموضعًا للتهكّم، وانتظاره في صفّ منتظم أمام الموظّفين في المؤسّسات المختلفة أو المحالّ التجاريّة مسبّة وقلّة فهم وعلامة ضعف وصغر.

أصبح إغترابنا تهمة، ونجاحنا شبهة، وغنانا مصدر حقد وكراهية، وأصبح يشار إلينا كأنّنا نمثّل الطبقة الإقطاعيّة الحديثة، يقتضي الاقتصاص من تعبنا ومعاناتنا وغربتنا وجد المغتربون العائدون أنفسهم غرباء وخارجين على المفاهيم العامّة التي تسود وتسيطر وتتحكّم. وبعد أن بنوا بيوتًا تليق بأحلامهم وطموحهم وعرقهم وتنسيهم شظف الماضي وتعاساته، افتقدوا الأمن والبنية التحتيّة المساعدة والمشجّعة على الاستثمار، كما أنّهم لم يجدوا مركزًا واحدًا للتوجيه والارشاد يدلّهم على حاجات البلد والمنطقة وينير طريقهم للتخطيط ورسم أسس استقرارهم، فقام أكثر العائدين ببناء البيوت ومن ثمّ إقفالها بعد أن صدموا بمبتزّ صغير يتمتّع برزقهم وحلالهم بحجّة أنّه سيحافظ على المنزل ويحميه. ووجدوا أنفسهم، خلال وقت قصير، أنّ ما أحضروه معهم من أموال قد تبخّر، ما أجبرهم على ترك وطنهم من جديد للبحث عن غربة أخرى.

ولو توقّفت هذه الحالة عند حدود الإجحاف الفكريّ لهان الأمر وتمّ استيعابه ضمن مفهوم الفرص التي أتيحت للمغترب من خلال احتكاكه بفئات وشرائح متنوّعة من العالم واستقراره في بلاد متقدّمة من جهة، ومن جهة أخرى ضمن تفهّم الظروف القاسية والصعبة التي يمرّ بها الوطن وتنعكس على أهله وتحول دون تحقيق التنمية الشاملة فيه على مختلف المستويات. ولكن ما يدعو إلى الأسى والأسف الكبيرين، أنّ المغترب تعرّض، من بعض القائمين وقوى الأمر

الواقع، إلى حملة شنيعة مسّت سمعته وكرامته وأهله وأرزاقه، مرّة بسبب حرّيّته في التفكير والتعبير عن رأيه، وأخرى بسبب أخبار ملفّقة عن اتّصاله في الاغتراب بأشخاص يهود، ومرّة بسبب تردّده في تأييد هذا الطرف السياسيّ أو ذاك الزعيم. وقد وصلت هذه الحملة إلى حدّ التعدّيات على المغترب، وتعرّضه للمحاسبة بحجج واهية كان أبسطها أنّه صافح في إحدى المناسبات، شخصيّة يهوديّة أو تحدّث معها ، وبالتالي فقد أصبح هذا الشيعيّ خارجًا ، ليس من الجهات الرسميّة، وقد تمثّل ذلك واضحًا في سوء المعاملة التي خضع لها المغتربون الشيعة وفي التمييز المقصود الذي أصابهم، إذ مرّت مساعدات الترميم وإعادة البناء على جلّ البيوت المتضرّرة من جرّاء الحرب الإسرائيليّة على لبنان، دون أن تتوقّف لحظة أمام بيوتهم، وأكثر من ذلك أيضًا فإنّ بعض المتنفّذين وأزلام الزعماء، قبضوا مبالغ طائلة من الجهات الداعمة المختلفة، محلّيًا ودوليًا، بعد أن نصبوا، زورًا وبهتانًا، بيوت المغتربين إلى ملكيّتهم وسجّلوها مدّعين مُلكيّتها للحصول على المساعدات.

وكان المغتر بون يتساءلون، والحسرة تأكل نفوسهم من مثل هذا المواقف المؤلمة، ألم تسجّل "المقاومة الإسلاميّة"، والحركات الشيعيّة السياسيّة الأخرى، بعد إنجاز التحرير عام 2000، أنصع صفحة في تاريخها، شهد لها العالم أجمع، بتسامحها وكبرياء نفسها وقدرتها الفائقة على ضبط أعصابها وعناصرها، عندما ضمنت الأمان والسلام ، ولم يسمحوا بـ "ضربة كفّ واحدة" ، وكان هذا بحقّ موقفًا تاريخيًّا للعفو والتسامح. فلماذا إذًا يعامل الشيعيّ اللبنانيّ البريء والمعذّب باغترابه وحبّ وطنه وإخلاصه ووفائه، بمثل هذا الأسلوب؟ أليس ذلك مدعاة للاستغراب والتساؤل؟ ألا تشكّل مثل هذه الممارسات الغريبة والخارجة على مبادئنا وتعاليم ديننا وأعرافنا وتقاليدنا،

موضوعًا يستحقّ البحث من قبل القادة والزعماء، ليضعوا حدًّا لمثل هذه التجاوزات التي تمسّ شرف المغترب وكرامته والطائفة والقائمين عليها؟

ألم تصل مثل هذه التجاوزات والاعتداءات إلى آذان "الأسياد"، أم أنّها كانت مغلقة في وجه الآتي من عالم مختلف عن عالمهم؟

فالشيعيّ الذي يعمل في أصقاع الأرض ويؤمن بالله ورسوله وآل بيته، قد قبل فرضًا أن يكون لله في ما رزقه حق، وللسادة في ماله سهم لأنّهم سلالة آل بيت الرسول.

والطائفة الشيعيّة هي الطائفة التي تضمّ السادة والعامّة حيث إنّ السيّد يولد سيّدًا والعاميّ يبقى دمه بعيدًا عن آل بيت محمّد عليه الصلاة والسلام، حتّى لو قدّم دمه في سبيل عقيدة محمّد.

إلاّ أنّ للطائفة أسيادًا جددًا بوضع اليد، يقومون برصد خطوات المغترب وإحصاء أنفاسه وتسجيل تنقّلاته وعلاقاته، وتلفيق التّهم والإدانات بحقّه، دون مخافة الله وتقواه، بهدف المحافظة على مراكزهم ومواقعهم داخل الطائفة بكلّ ما أوتوا من قوّة وبطش وشراسة .

إذا كان الأسياد الأوائل يخافون الله لأنّهم حماة الشريعة والأمّة والناس، فإنّ الأسياد الجدد هم أصحاب المصالح الذين ينسبون أنفسهم إلى ممثّلي الطائفة، ويسجّلون للمغترب مدى الولاء لهذا الزعيم أو ذاك.

أمّا المغتربون الذين ساء قدرهم ووقعوا بين أيدي سماسرة الأسياد الجدد وأزلامهم، فإنّهم دفعوا كلّ ما جمعوه لأنّهم العبيد المبعوثون إلى الخارج لجمع الأموال!؟...

كم من الأفخاخ وضعت في طريق من خرج عن الخط !؟ وكم من المشاكل حصلت في مطار بيروت ومع عائلات المغتربين في الداخل، بناء على موقف مشاكس أو رافض أو معبّر في الخارج عن عدم الخضوع!؟

لا بدّ من وقفة حاسمة من السادة الذين عملوا لله ولرسوله واقتدوا بآل بيت الرسول، عليّ وجع فر، والذين أنشأوا المدارس وحافظوا على السلم الأهليّ والاجتماعيّ بجمع الأيتام والبائسين والمحتاجين وتربيتهم وانتشالهم من عالم الإجرام والرذيلة الذي ينصب شراكه في كلّ أصقاع الأرض ليوقع بضحاياه ممن قست عليهم الأيّام.

على هؤلاء السادة أن يدلوا بدلوهم، وأن يتصدّوا لكلّ عابث بسمعة الطائفة ومصيرها، كبيرًا كان أو صغيرًا، لأنّ أفضل الجهاد عند الله كلمة حقّ أمام سلطان جائر.

والظلم الأكبر الذي وقع على أولادنا، ولا سيّما الذين وُلدوا في المغتربات، ونشأوا هناك، وتربّوا في مدارسها ومناهجها وثقافتها، ودرسوا جنبًا إلى جنب مع زملاء لهم ينتمون إلى مختلف الأصول والحضارات والأديان والثقافات، ولم يعرفوا يومًا طبيعة التمييز أو التفريق بين شخص وآخر على أساس العرق أو الدين، ورضعوا الحرّيّة مع الحليب منذ الصغر، وعندما حملناهم للتعرّف إلى أرض وطنهم وأجدادهم والتواصل مع عادات أهلهم و لغتهم وتقاليدهم، وجدوا

أنفسهم في مواجهة صعبة مع أجواء اجتماعيّة وسياسيّة تختلف عمّا ألفوه ودرجوا عليه، وتتناقض تمامًا مع أبسط مبادئ كيان الإنسان وحقوقه وحرّياته.

فهؤلاء الأبناء، الذين يدركون تمامًا أنّ كندا مثلاً أو أي بلد إغترابي آخر، هي وطنهم، وأنّ لبنان وطن آبائهم وأجدادهم، لم يتوقّعوا لحظة أن يكون لبنان، هذا الوطن الذي تغنّى به الآباء وعلّموهم محبّته وحضّوهم على التواصل معه، بهذه الصورة من الإغراق في التفكير العنصريّ والتمييز المذهبيّ والفساد السياسيّ، وبهذا الواقع المؤلم من التخلّف وغياب التنمية والعيش في ذهنيّة القرون الوسطى. وسرعان ما يصدمون وهم يشاهدون ما يلاقيه أهلهم من عناء ومرارة وابتزاز واضطهاد، ,وما يشهدونه من تخلّف ومن امتهان لكرامة الناس الذين يفتقدون أدنى مقوّمات العيش الكريم في بلد النور والحرف. حيث لا ماء أو كهرباء، وبلد الشواطىء الجميلة ولكن المهملة إلاّ تلك الممنوعة على عامّة الشعب، دون معرفة الأسباب والمبرّرات والدوافع وتتزاحم الأسئلة في رؤوسهم، وتتراءى في عيونهم وفي ألسنتهم عن حقيقة الأمر بالنسبة إلى آبائهم وعن هذا الحلم الكبير الذي كان يراودهم في العودة إلى أرض كانت صورتها المطبوعة في مخيّلاتهم تماثل صور الجنّة روحًا وجمالاً وأصالة، فإذا بهم أمام حقيقة تخيّب آمالهم وتفجعهم في أحلامهم.

وما كان أشد إيلامًا وحزنًا لهم، ما واجهوه أنفسهم من قيود ومحظورات وتصرّفات، كانت في نظرهم غريبة ومستهجنة ولا معقولة، كأنّها تخرج من قاموس آخر وتحمل مضامين جديدة لم يألفوها من قبل . فلا هم تعوّدوا على طرح الأسئلة المحرجة وغير القانونيّة في يقينهم، على الآخر للتوصّل إلى معرفة أصله وفصله ودينه وانتمائه السياسيّ والحزبيّ والدينيّ والمناطقيّ، ولا

مارسوا إقامة علاقة بالآخر على قاعدة التصنيف المسبق بين المقبول والمرفوض بناء على اسمه وشكله ودينه. لقد اعتاد أبناؤنا، منذ نعومة أظفارهم في شتّى المغتربات، ممارسة حقيقيّة يوميّة لجميع أشكال الديموقراطيّة والحرّيّة والصراحة والوضوح، إنطلاقًا من مدارسهم الابتدائيّة ووصولاً إلى دراساتهم الجامعيّة وانخراطهم في أسواق العمل تدرّبوا على العمل الجماعي المشترك، وأنشأوا الفرق والجمعيّات، ودخلوا متطوّعين في مختلف مجالات الخدمة الاجتماعيّة، وانضمّوا إلى الأحزاب السياسيّة، ومارسوا العمل في الشأن العام، لكنّهم لم يتعاطوا يومًا السياسة بالأسلوب الرخيص الرائج في بلادنا، ولا هم خاضوا معاركها على مبدأ استعداء الآخر وإلغائه ونفيه من الوجود السياسيّ والحياتيّ، ولا خطرت على بالهم صورة من صور الزعيم الواحد الأحد الهابط من أعلى السماوات والمالك زمام الناس والمسيطر على أقدارهم ولقمتهم ومصائرهم. هم يعرفون المسؤول مسؤولاً أمامهم ومسؤولاً عنهم وعن مصالحهم وليس مسؤولاً عليهم وعلى أنفاسهم وأفكارهم وما يدور داخل عقولهم . وهم لا يتورّعون لحظة، ومن غير خوف ولا رهبة ولا تردّد، عن انتقاد هذا المسؤول ومحاكمته والمطالبة بإقالته إذا أخطأ أو تهاون أو ظلم.

لم تدخل مفاهيم الاستزلام والاسترعاء والاستخدام والخضوع في أذهانهم، ولم يلاحظوا مشاهدها وأشكالها وعناصرها في البلاد التي ترعرعوا فيها. ولا يمكنهم العيش في بلاد محكومة بالتفاهم بين العشائر . ربّما يكونون قد تعرّضوا، كما تعرّضنا نحن الآباء أحيانًا إلى بعض مواقف التمييز، لكنّهم واجهوها وعالجوها أفضل منّا بكثير، واستردّوا حقوقهم كاملة بالقانون، غير أنّهم لم يدرسوا أبدًا في كتاب "العمدة" و"شيخ البلد" و "زعيم الحارة"، ولم يقفوا لحظة أمام باب النائب

أو زعيم الحزب أو رئيس البلديّة، من أجل استجداء وظيفة أو منصب أو مكسب.

حضور أبنائنا، بالصورة التي هم عليها، ليس مقبولاً ولا مرغوبًا به لدى الكثيرين ممّن يهيمنون على أمور المنطقة والعباد، ولم ترق لهم طرق تفكيرهم وأسلوب معاملتهم مع الآخرين، واعتبروها تنكّرًا للأعراف والقيم، وخروجًا على التقاليد والأصول، وخرقًا للخطوط الحمراء وتعدّيًا على كرامات الأولياء والحاكمين، فلذا لم يجدوا في استقبالهم إلاّ وجوهًا مقطّبة مستنكرة رافضة، توحي لهم أينما حلّوا بأنّهم غير مرغوب بحضورهم ولا بآرائهم وتصرّفاتهم، وكان ذلك كافيًا بالنسبة إليهم، لكي يواجهونا نحن الآباء بمجموعة من الأسئلة الصعبة، ويدفعونا إمّا للذهاب بهم إلى مناطق أخرى يقضون فيها بهدوء وأمان ما تبقّى لهم من إجازاتهم، وإمّا بالإسراع للعودة إلى بلد الاغتراب. لأنّنا كنّا عاجزين فعلاً عن إقناعهم في البقاء داخل قفص من ذهب، يحرمهم من تنفّس الحرّيّة التي تربّوا عليها، مهما أغريناهم بنظريّات الآباء والأجداد والتراث والتراب. فالعصفور الذي ذاق طعم حرّيّته سوف ينتحر داخل قفصه الذهبيّ مهما كان ثمينًا.

وهنا أيضًا تكرّر الأسئلة ذاتها عن قدر الشيعيّ اللبنانيّ ونصيبه من هذه الدنيا. فهل غير المغترب الشيعيّ في لبنان يعاني مثل هذه المعاناة المرّة؟ هل إذا عاد السنيّ أو المارونيّ أو الدرزيّ، أو المنتمي إلى أيّ تيّار أو حزب أو تجمّع إلى أيّ منطقة في كلّ لبنان لزيارة أهله ووطنه ومجتمعه، يواجه بما يواجهه الشيعيّ في منطقته وبين أهله وذويه؟ وهل يتعرّض لما يتعرّض له الشيعيّ من أوامر ونواهٍ ؟

لماذا يحقّ للبنانيّ المقيم والمغترب، في أيّة بقعة من لبنان، أن يحدّد خياره الفكريّ والسياسيّ بملء إرادته وقناعاته ورغباته؟ لماذا يحقّ للبنانيّ الآخر أن يجاهر بانتمائه ويعبّر عن موقفه، وأن يفكّر ويعيش حياته ويربّي أولاده كما يرغب ويطمح، دون أن يشعر بالتهديد والخطر والملاحقة، بينما يُحظّر على الشيعيّ ذلك؟ أليس هذا الأمر مدعاة للاستغراب والحسرة على هذا المواطن الذي لا يقلّ مواطنيّة وثقافة ودورًا وحضورًا عن نظرائه في الوطن؟

لماذا يحقّ للبنانيّ ولغير اللبنانيّ أن يسكن ويعمل ويبيع ويشتري ويبني ويتاجر أينما أراد وكيفما أراد، ولا يحقّ للشيعيّ عندما يعود إلى قريته ويسكن بيته الذي بناه بعرق غربته، أن يجد إخوانه بالوطن وقد أمّنوا الضروريّات للعيش الكريم من ماء وكهرباء وطرقات وخدمات؟

وهكذا، في كلّ مرحلة من تاريخ هذا البلد الشقيّ، تدور الأيّام دورتها كاملة لتعود مع الشيعيّ إلى نقطة الصفر وإلى محطّة الانطلاق الأولى. هي هي دوّامة القهر والعذاب، هي دائرة المآسي التاريخيّة التي لا تنتهي فصولها جيلاً بعد جيل، تلاحقه اللعنة وقساوة القدر في حلّه وترحاله، في وطنه وخارج وطنه، تحت الاحتلال وخارجه. فمَن لم "يطفّشه" الفقر والعوز والذلّ، ومَن لم تهجّره ويلات الحرب والاعتداءات الإسرائيليّة، جاءه من داخل بيته وطائفته وأهله من يتكفّل "بتطفيشه" حتّى لا يوقظ بصوته القطيع النائم ويزعج أحلام السلطان وحرسه.

-17-

الشيعيّ اللبنانيّ في عين العاصفة

من الظواهر الغريبة في طبيعة معاناة الطائفة الشيعيّة اللبنانيّة، أنّ هذه المعاناة أصبحت كالفيروس المتحوّل والمتطوّر والمعقّد في نشأته وتركيباته وأشكاله.
فقد بدأت محنة الشيعة في لبنان مع النظام السياسيّ الطائفيّ الفاسد الذي ركّب الجمهورية بإرادة خارجيّة وبما يخدم مصالح فئة محدّدة . فكان من نتيجة ذلك أن تحوّلت المناطق الشيعيّة في لبنان، والجنوب بشكل خاص، كونه خزّان الشيعة الأيديولوجيّ والديموغرافيّ، إلى مناطق منسيّة وساقطة من الجغرافيا السياسيّة للوطن، ترزح تحت وطأة الإهمال والحرمان والفقر والجهل والتخلّف.

ثمّ تقاطعت مصالح هذا النظام السياسيّ الجائرعند انطلاقته مع مصالح طبقة إقطاعيّة شيعيّة برزت ودخلت عباءة الدولة والمؤسّسات، فبنت زعامتها وحققت مآربها على حساب الفلاّحين والفقراء والمحتاجين، يؤازرها تيّار دينيّ تركها تعبث في حاضر الأمّة وخيراتها وراح يبحث عن مفاسد التاريخ الاسلاميّ عبر ما يزيد عن ألف وأربعماية عام من الماضي، ليفتّش عن غريم له غيّبته القبور، بينما كان الخصم المتجدّد أمام عينيه وبين يديه، يمارس بجبروته وطغيانه التجهيل والتفقير والتنكيل أضعاف ما كانت عليه المأساة. فغيّب الوجود الشيعيّ تمامًا عن الكيان اللبنانيّ وأصبح أهله ومناطقه رعايا وأهل ذمّة في وطن يتنكّر لوجودهم وحقوقهم.

وحلّت النكبة الفلسطينيّة الكبرى، فبدت وكأنّها تحلّ فعلاً فوق أرض الجنوب اللبنانيّ الشيعيّ، فاللاجئون أصبحوا في أرضه وبين أهله، والثورة أخذت تولد وتفرّخ وتنطلق من سهوله وجباله وأوديته، والانتقام الاسرائيليّ يتساقط حممًا على أحيائه وسكانه. يواكب كلّ ذلك إمعان في الاغفال الرسميّ وتصميم على الإهمال والاستهتار ليتحوّل الظلم والقهر والعوز إلى نكبة ومأس بكلّ ما في الكلمة من معنى، ما أضاف إلى المصائب السابقة ويلات الموت والتهجير وتفريغ الأرض وتغييب الحياة عن المنطقة.

واندلعت الحرب الأهليّة الطائفيّة القذرة، وتصاعدت الاعتداءات الإسرائيليّة لتتحوّل إحتلالاً داهيًا يجثم سنوات على صدر المناطق الجنوبيّة الشيعيّة، تحت سمع الدولة وبصرها وصمتها وتخاذلها، وغياب الصوت الرسميّ الشيعيّ الذي كان مشغولاً بإدارة مصالحه وإحصاء عوائدها وتثبيت زعامته على حساب دماء الضحايا وبقايا البيوت المدمّرة والمحاصيل المحروقة.

وكانت آخر هذه التحوّلات، عندما تجسّدت الانتفاضة الشيعيّة الكبيرة وولّدت المقاومة الوطنيّة التي أخذت على عاتق شبابها استرداد الأرض والحقوق والكرامة المهدورة والحضور المسلوب، وتحقّق أكبر الانتصارات التاريخيّة على يد المقاومين الشرفاء، فاستعيدت الأرض والحريّة والصوت والوجود الشيعيّ كجزء أساسيّ فاعل ومؤثّر في الجمهوريّة الثانية المنبعثة من الطائف.

وكان التحوّل الحاليّ الأخير، هو من أقسى وأصعب هذه التحوّلات على الإطلاق، كما كان بمثابة الذروة في المعاناة الشيعيّة اللبنانيّة، إذ وضع الطائفة في لبنان، في عين العاصفة وفي مواجهة حقيقيّة مع أبنائها وأطيافها ومكوّناتها، كما مع بقيّة الشركاء في الوطن، ومع العالمين العربيّ والغربيّ، بعد

لن طرح زعماؤها وقادتها أنفسهم صوتًا وطنيًا، لا يريدون أن يلبسوا ثوب الطائفيّة في بلد طائفيّ للعظم. أخذوا يساعدون الآخرين على استعادة حقوقهم، بينما حقوق الطائفة بالعيش الكريم وبالمشاريع التي تسهل العيش الكريم والعوده العزيزة للمغتربين، كما لإيجاد البنية التحتيّة لإقامة المشاريع هي في آخر اهتماماتهم. كما أخذوا على عاتقهم إنقاذ فلسطين والعالم من شرور الشياطين الكبيرة والصغيرة.

إنّ المحطّة التي انطلقت قبيل منتصف التسعينيّات، على قاعدة الانتصار والتحرير، وتشكيل قوّة توازن الرعب مع العدوّ الاسرائيليّ، كانت هي المرحلة المفصليّة في تاريخ الشيعة في لبنان، حيث تمّ الاستئثار الحركيّ والحزبيّ بالوجود الشيعيّ في لبنان، وصوّر وكأنّه يريد إدخاله تحت عباءة رجال الدين، وتحويل المنطقة إلى دولة دينيّة ، لا صوت فيها يعلو فوق صوت المقدّس وصوت السلاح.

كلّ ما مرّ به الشيعيّ في رحلة عذابه ومعاناته السابقة، مقيمًا ومغتربًا، كان تحت السيطرة وقابلاً للحلّ واجتراح البدائل. لكنّ الواقع السائد منذ عدّة سنوات، يبدو غاية في التعقيد لأنّ الصراع أصبح داخل الفكر والبيت الشيعيّين وعلى مساحة العالم.

يقول أحد أطراف حركة الاعتراض الشيعيّ على آحادية وحصريّة القرار، إنّ هذه الآحاديّة بقدر ما تسيء إلى جوهر الفكر الشيعيّ المنفتح والمتجدّد عبر التاريخ، فإنها تثير المخاوف من تعريض مصالح الطائفة الشيعيّة في لبنان على المدى الطويل للضرر. كما يصف آخرون من هذه الحركة أنّه يصعب على المرء في ظلّ عصر التحرّر والتنوير والديموقراطيّة أن يخضع لمجتمع

يقوده رجال الدين، وتسيطر عليه ثقافة الخوف والتعصّب وقمع حريّات الفكر والمعتقد وإلغاء الآخر. ودعوا إلى العودة إلى طروحات الإمام موسى الصدر ووصايا الإمام محمّد مهدي شمس الدين التي تؤكّد ثوابت الطائفة الشيعيّة في العيش المشترك وفي مشروع الدولة اللبنانيّة الواحدة، وفي الحرص على الاندماج في المجتمع اللبنانيّ واعتماد سبل الاعتدال، وقيام دولة المشاركة الحقيقيّة والسيادة على قاعدة احترام مبدأ التنوّع وقبول الآخر والحوار معه، بعيدًا عن التهديد وإدانات التخوين والتكفير وهدر دماء أصحاب الأصوات والاتّجاهات والآراء المخالفة.

وكان من أبرز انعكاسات هذه السياسة المصادرة للفكر والرأي، أن أطلقت اليد في الثمانينيّات إثر الصراع بين "حركة أمل" و"حزب الله" من جهة والأحزاب الأخرى من جهة ثانية، والذي يبيح التعرّض للمعترضين ومنعهم بالقوة من البقاء في المناطق التي يسيطر عليها الحزب والحركة، وطالت الاعتداءات الجسديّة الكثير من رجال الدين والأئمّة وأصحاب الفكر والأطباء والسياسيّين والصحافيّين المعروفين في طائفتنا الكريمة. وأعادت إلى الذاكرة سنوات القهر والاضطهاد والانحطاط التي مارستها الكنيسة في أوروبا خلال القرون الوسطى، وإصدار أحكام الإعدام والحرق، وتوزيع صكوك الغفران وقسائم الجنّة في السماء، وتحكّم البابوات ورجال الدين بحياة وأقدار الشعوب، كما أعادت إلى الأذهان دائمًا أنّ العالم الغربيّ بشقيّه الأوروبيّ والأميركيّ، لم يتمكّن من البدء في بناء تقدمه ونهضته إلاّ عندما فصل الدين عن السياسة وأبعد رجال الكنيسة عن التدخّل في أيّ شأن من الشؤون العامّة.

حول دور رجال الدين في التغيير، يعاودني مقال كتبه الصحافيّ المحلّل إيمون صعب في جريدة النهار (20 شباط 2004)، بعنوان "أبقوا الله خارج السرايات" جاء فيه: "مع انهيار النظام الكنسيّ – الأبويّ وانتصار العقل الذي قاد في ما بعد الاكتشافات العلميّة التي جعلت أوروبا منارة العالم، لم يعد هناك مجال للعودة إلى تحكيم الماورائيّات بالأرضيّات والحياة عليها...."

ويعتبر صعب أن "الأولويّة يجب أن تعطى لحقوق الإنسان، لا لأتباع الديانات، أيًّا تكن، مسيحيّة، إسلاميّة أو يهوديّة، ولندع الله جانبًا خارج مويقات السرايات."

كما أحاول أن أستذكر في هذا المجال ما قرأته عن وزير العدل الفرنسيّ في العهد الملكيّ (1838)، ألكسي دوتوكفيل، بعد أن جال في أنحاء الولايات المتّحدة بحثًا عن سرّ الديموقراطيّة فيها حيث يقول: "إنّ أفضل الأنظمة وأعدلها هي تلك التي يقيمها الناس بأنفسهم ويصنعون أنظمتها بأنفسهم ويلتزمون أيضًا تنفيذها."

ويعلّق دوتوكفيل على جوهر القيم الدينيّة كرافعة أخلاقيّة للأنظمة المدنيّة، دون أن تتحكّم في طبيعة هذه الأنظمة، قائلاً: "لا أعتقد أنّ ثمّة جمهوريّة يمكن أن تنشأ بدون قيم، كما لا أعتقد أنّ ثمّة شعبًا يستطيع أن يقيم قيمًا عندما لا تكون هذه القيم دينيّة، لذلك فإنّ المحافظة على روح قيمنا تمثّل إحدى أعظم اهتماماتنا السياسيّة." ويستنتج مؤكدًا: "أنّ تعدّد المذاهب والشيع الدينيّة المسيحيّة جعل الولايات المتّحدة تظهر أكبر مقدار من التسامح في العالم، في الداخل كما في الخارج، ولو كانت في الولايات المتّحدة ديانتان فقط لقطعت إحداهما عنق الأخرى."

إنطلاقًا من هذا كلّه، فإنّنا نعتبر أنّ من أكثر الحالات إثارة واستغرابًا هو الخوف الذي حرَم أيّ شيعيّ دخول الحكومة بعد أن خرج منها ممثلو "حزب الله" وحركة أمل، (تشرين الثاني / ديسمبر 2005)، على خلفيّة قرار إنشاء المحمكة الدوليّة للتحقيق في جريمة اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري. ومثلها الممارسات العنفيّة الدمويّة التي طبقت بحقّ كلّ من تجرّأ من أبناء الطائفة على ترشيح نفسه للانتخابات النيابيّة الأخيرة في لبنان "صيف 2009"، من خارج هيكل المملكة المقدّسة المكلّفة وحدها صنع الملائكة والحكّام والعقول والمخلّصين.

أمام ما قام به أغلب المسلمين السنة في لبنان ومعهم أغلب المسيحيّين وأبناء الطوائف الأخرى، بالإضافة إلى المجتمع الدوليّ، الذين هزّتهم جريمة إغتيال زعيم وطنيّ، فهبّوا للمطالبة بتشكيل محكمة دوليّة لمعاقبة المرتكبين. ألم يشعر زعماء الطائفة السياسيّين والدينيّين بالتقصير الهائل إزاء الجريمة التي وقعت على منقذ الطائفة ورمزها الإمام المغيّب موسى الصدر؟ الم يكن حريًّا بهؤلاء المقاطعين والمعترضين والمنسحبين، أن يهبّوا وينتفضوا وينسحبوا هم أيضًا، ليس من المشاركة في أيّة حكومة، بل من المشاركة في أيّ عمل سياسيّ، بعد اتفاق الطائف قبل كشف المؤامرة الدنيئة والفظيعة التي تعرّض لها سماحة الإمام الوطني الكبير المخطوف والقائد التاريخيّ ومحرّر الطائفة الشيعيّة اللبنانيّة وباني وعيها ويقظتها وكرامتها، والمطالبة بتشكيل محكمة دوليّة للتحقيق في مسألة غيابه مع رفاقه الأبرار منذ أكثر من عشرين عامًا، دون أن نكتفي بإطلاق أصوات التنديد والاستنكار وإقامة مجالس العزاء وإحياء الذكرى عامًا بعد عام؟ أم أنّ شخصيّة وطنيّة قياديّة كالإمام الصدر لا تستحقّ اعترافًا

من الذين ولدوا تحت عباءته وتظلّلوا بفيئه وبنوا أمجادهم ومواقعهم باسم ثورته المجيدة؟!...فهل من مجيب على هذا السؤال المحيّر والقاتل؟

أمّا على المستوى الوطنيّ فقد أحدث هذا الواقع الجديد شرخًا وطنيًا حادًا تمثّل في إشعال غرائز الفتنة المذهبيّة مع أغلب المسلمين السنّة، وإثارة هواجس ومخاوف قسم كبير من المسيحيين الذين اعتبروا أنّ الطائفة الشيعيّة في لبنان تحمل طموحات ومشاريع تتجاوز مصلحة الوطن لتخدم مصالح محاور خارجيّة، وتأخذ لبنان رهينة للصراعات الاقليميّة والدوليّة. فاستنفرت العصبيّات المذهبيّة لدى جميع الأطراف، وتحوّلت المراكز والمؤسّسات الدينيّة والقائمون عليها إلى منابر للتنابذ والتقاتل وبثّ الرعب والخوف في نفوس الناس، وأدّت وسائل الاعلام المختلفة قسطها الكبير في النفخ على نار الفتنة وتغذية لهيبها. فأصبح لكل "دولة" في لبنان شهداؤها، وتحوّل شهداء الوطن إلى سلع سياسيّة تصنّف بين قتلى وضحايا وشهداء، وطاولت الصراعات بعضًا من القادة العسكريّين ورجال الأمن، وتجسد هذا الشرخ بأبشع صوره في الصراعات ومعارك الاقتتال التي دارت بين الشوارع والأحياء، في العاصمة بيروت وفي بقيّة المناطق اللبنانيّة، وسقط فيها العشرات من أبناء الوطن، كما ترجم على الأرض تعطيلاً طويلاً للحياة السياسيّة كاد يهدّد الكيان بأكمله.

وعلى الصعيد الاقليميّ والدوليّ، فقد تمّ تدويل المسألة اللبنانيّة، وتصاعدت وتيرة تدخّلات الأطراف المختلفة في الشأن اللبنانيّ، كلّ حسب تحالفاته ومآربه ومصالحه، وارتفعت الأصوات المطالبة بنزع سلاح "حزب الله" واعتباره ميليشيا يجب تجريدها بناء على قرارات الأمم المتّحدة، وتحديدًا القرار 1559، كما وضع الحزب وقادته ضمن قائمة الإرهاب، ونشطت حركة اختلاق الاتّهامات

الموجّهة إلى "حزب الله" على الصعد الدوليّة مرّة بضلوعه في اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري وأخرى في حماية المجرمين الذين ارتكبوا الاغتيالات المتعدّدة في لبنان وثالثة في التدخّل في شؤون البلاد العربيّة وتعريض أمنها القوميّ للخطر، كما حدث مع خليّة "حزب الله" التي تمّ اعتقالها في مصر (2009)، والخلايا الأخرى التي أعلن عنها في غزّة لمشاركة حركة حماس الفلسطينيّة، واليمن لمساعدة الحوثيين في صراعهم مع الدولة، وفي سيراليون - إفريقيا، وفي الأردن وفي الإمارات العربيّة المتّحدة وفي بعض بلدان المغرب العربيّ، ما وضع الشيعيّ اللبنانيّ، مهما كان توجّهه وانتماؤه السياسيّ، في دائرة الحصار في الداخل، وفي الخارج حيث سُلّطت عليه أضواء العالم كونه ينتمي إلى طائفة بدت وكأنها تريد السيطرة على الجمهوريّة واستبدال دولة دينيّة بها، وإدخال الوطن في حروب جديدة مع إسرائيل، في الوقت الذي تحاول سائر الدول العربيّة، وفي مقدّمتهم أصحاب القضيّة نفسها، سواء من كان في السلطة الفلسطينيّة أو في المنظّمات الأخرى، اللحاق بقطار السلام والتفاوض مع إسرائيل.

وصفت الأستاذة الجامعيّة "منى فيّاض"، عضو اللجنة التنفيذيّة لحركة التجدّد الديموقراطيّ، في مقالة نشرت في إحدى الصحف اللبنانيّة، بعد حرب تمّوز 2006، المرحلة التي تمرّ بها الطائفة الشيعيّة، كما حمّلتها أسئلة حول "معنى أن تكون شيعيًا الآن"، إعتُبرت وقحة ومستنكرة واستفزازيّة، فأُلصقت بصاحبتها تهم التخوين والصهينة والتكفير وهُدّدت بالقتل لأنّها تجرّأت على تجاوز الخطوط الحمراء.

تؤكّد الدكتورة فيّاض "أنّنا نمرّ بمرحلة كارثيّة ومصيريّة سوف تنعكس آثارها على بلدنا والمنطقة على امتداد القرن الطالع، وبما أنّها على مثل هذه الخطورة، إرتأيت أن أطرح علنًا الأسئلة التي يطرحها البعض بينه وبين نفسه أو خفية، فلا يتجرأ على إعلانها مخافة مخالفة الجماعة والإجماع، ومخافة أن يتهم بالعمالة والخيانة إذا لم يكن الكفر."

حاولت فيّاض رسم ملامح بعض الإجابات على أسئلتها المثيرة للنقاش، وخلصت إلى أنّه كي تكون شيعيًّا الآن يعني "أن تسلّم أمرك للقيادة الحكيمة والمعصومة دون التجرؤ على طرح أيّ تساؤل ولو من باب الاستفسار.

وتخلص فيّاض في مقالتها إلى تساؤل عميق: "ولكنّ السؤال إلى أيّ مدى يمكن الاعتماد على هذه الجماهير العاجزة والمستعبدة لكي تقاد غصبًا عنها..." وتقرّر "أنّ الفرد هو هنا كينونة فاعلة وله دور إيجابي وهو لا يقبل فكرة أنّه ولد لينقاد، وأنّه بمجرد اتّباعه الآخر سيصل إلى التغيير. على الفرد أن يستخدم عقله وفكره وألاّ يسمح لأحد بالسيطرة على أغلى ما يملك ألا وهو حريّة فكره. النضج الكامل للفرد والجماعة هو الهدف الأسمى، لأنّ تطوير المجتمع بحاجة إلى تطوير الفرد وليس من يحكمه. ومن هنا أهمّية أن يكون الفرد حرًا والجماعة غير متعصبة، لأنّ الأفراد العاجزين يولّدون الجماهير العاجزة."

لم تكن الأستاذة فيّاض هي الحجر الوحيد الذي أثار الحراك في المياه المستكينة، بل تصاعدت حدّة ما عرف بحركة الاعتراض الشيعيّ، والتي تمثّلت بما أطلق عليه طبقة "المثقفون الشيعة"، التي شكّلت تيّارًا رافضًا جمع تحت جناحيه فئات وشخصيّات من مختلف المستويات، إجتمعت كلّها على

مواجهة مصادرة القرار الشيعيّ والمطالبة بالمحافظة على التنوّع وحقّ الاختلاف داخل الطائفة. ومن اللافت أنّ جميع هذه الأصوات الشيعيّة وغير الشيعيّة المعارضة والمناوئة والمعترضة، كانت بأغلبيّتها من أشدّ المؤيّدين للمقاومة في مشروعها الوطنيّ الحامي للأرض والسيادة.

حاول الباحث الدكتور "وجيه كوثراني" أن يفسّر الحالة السائدة في لبنان وداخل الوسط الشيعيّ، فاعتبر في كتابه "بين فقه الاصلاح الشيعيّ وولاية الفقيه" (دار النهار – 2007)، أنّنا "أمام مازق، تتفاقم في مسار تشكّله كمازم، عناصر التطيّف السياسيّ من كلّ جهة، من داخل آليات النظام ومن خارج مكوّناته. ولكنّها تجتمع جميعًا على تقليص الدائرة المدنيّة والعلمانيّة في العمل السياسيّ، إذ يكاد العمل السياسيّ اليوميّ ينحصر في الأكثريّات الطائفيّة وأحزابها وتيّاراتها الشعبويّة الكبرى...التي تسيطر على الشوارع اللبنانيّة، كما على مؤتمر الحوار، كما على المؤسّسات التربويّة والتعليميّة."

يمكننا أن نستدلّ ببساطة على حقيقة المأزق اللبنانيّ من خلال ما أوردة الباحث كوثراني، كما يمكننا أن نتلمّس مدى سيطرة الفكر الدينيّ الطائفيّ على مجمل الحياة المدنيّة في لبنان في ما يسميّه "إستقواء أهل السياسة بالدين، واستقواء الدين بالسياسة"، الذي يتجسّد "في عيش التاريخ ذاكرة حيّة بدلاً من وعيه ماضيًا منقضيًا. في هذا العيش اللامنقطع يستحضر الخطاب الدينيّ دون نقد أو تمحيص لوظيفته الاجتماعيّة – السياسيّة في ماضيه، أي في تاريخ المجتمعات والسياسات والصراعات على السلطة، ليظلّ دائمًا رافعة للعمل السياسيّ من جديد."

تأسيسًا على توسّع رقعة السيطرة الدينيّة ولجوء "السلطان" إلى الاستقواء بالدين وتسخيره لحماية وجوده ونظامه، فإنّه لا يكن ممكنًا التحكّم بضبط هذه الظاهرة ضمن حيّز محدّد أو عند طائفة أو في منطقة معيّنة، إذ إنّ مفاعيلها وانعكاساتها انتشرت سريعًا بين الأطراف الأخرى وخصوصًا في مجتمع موزاييكي متنوّع ومتعدّد في طوائفه ومذاهبه وأصوله الإثنيّة والطبقيّة مثل لبنان، الأمر الذي أفسح المجال "واسعًا أمام أيّ كان في المجتمع لاستخدام الدين نفسه وبالاسلوب نفسه. ويصبح الصراع السياسيّ بين الأطراف، سواء كانت هذه عصبيّات أو فرقًا أو مكوّنا اجتماعيًا ثقافيًّا بين الاثنين معًا، صراعًا على الدين نفسه."

ويتابع الباحث كوثراني مؤكدًا أنّه عندما "تتحكّم الايديولوجيا الدينيّة وحدها في السياسة، وعندما تصبح الأخيرة جزءًا من خطاب ثقافيّ متكامل وحصريّ، تصبح سياسة الفرقة أو الطائفة أو الحزب وحدها السياسة الحصريّة، بل السياسة المقدّسة، وما عداها ليس من قبيل الخطأ الذي يحتمل الصواب، بل هو الشرّ المطلق، وها هو النعت "الأميركيّ" و"الصهيونيّ" حاضر لتسفيه الآخر وتخوينه."

أمام انحسار الدائرة المدنيّة وضيق الدائرة العلمانيّة في العمل السياسيّ اللبنانيّ، بل والعربيّ عمومًا، بات من الطبيعيّ أن ننعي مع الكاتب والمفكّر نصري الصايغ "المواطنيّة والديموقراطيّة" وأن نترحّم على العلمانيّين ونبارك للطائفيّين الذين انتصروا بجعل لبنان "كونفدراليّة طوائف وليس مشروع دولة"، كما أن نردّد معه بألم وحسرة: "إذا كان جبران يقول: 'لكم لبنانكم ولي لبناني'، لكنّني أقول: لكم لبنانكم وليس لي لبناني بعد...وهذا ما يدعو للألم."

لا أزعم أبدًا في ما أوردته من مواقف أو شواهد أو آراء في هذه المرحلة التاريخيّة، أنّني أطمح لتقديم بحث سياسيّ في المسألة الشيعيّة اللبنانيّة، أو أنّني أجري تحقيقًا تاريخيًا حول واقع الطائفة في لبنان والعالم، كما أؤكّد بأنّني لست هنا في معرض تقرير الأحكام وإطلاقها في حقّ أيّة جهة سياسيّة أو دينيّة، أو البحث عن مكان يتسع لي، لا بين ما يسمى التيّار المعارض في طائفتي الشيعيّة، ولا بين ما يطلق عليه "المثقفون الشيعة" الذين ميّزوا أنفسهم ومواقفهم عن الأجواء السائدة لدى الأكثريّة الشيعيّة اللبنانيّة، مع احترامي وتقديري لحضور الكثير من هؤلاء وفكرهم ودورهم وجرأتهم في إطلاق صرخة الاعتراض التي أقلّ ما يقال فيها إنها تنبع من مبدأ احترام الذات والعقل والحريّات، ولا أن أنخرط في أيّ محور من المحاور المطروحة على الساحة السياسيّة اللبنانيّة. لا أهدف إلى أيّ غرض من هذه الأغراض، لا سيّما وأنّني أمثّل حالة إغترابيّة، عشت فيها قسمًا كبيرًا من عمري خارج الوطن وبعيدًا عن صراعاته الداخليّة، لكنّ بالتأكيد دون أن يخرج الوطن أوالأهل أوالمنطقة أوالطائفة لحظة عن تفكيري وانشغالي وهمومي.

ما أردته حقًّا هو أن أبيّن بالأدلّة، الخسائر الفادحة التي أحلّت بالطائفة من جرّاء هذا الواقع الجديد، وما ترتّب عليها من مواجهات داخل مجتمعها، وداخل وطنها، وفي مجاليها العربيّ والدوليّ ، وما تعرّضت له، بفعل ما طفح على ساحتها من استئثار بمقدّرات الدولة والناس، من خصومات وعداوات، كان من شأنه أن يزيد من معاناة الشيعيّ أضعافًا سواء في حجم هذه المعاناة أو طبيعتها أو نتائجها القريبة والبعيدة.

كما أردت أن أؤكّد أنّ ما يجري في وطننا اليوم، وداخل طائفتنا في لبنان، وأنّ كلّ ما يصدر من نقد ورفض واعتراض من بعض شخصيّات الطائفة ومواقعها الروحيّة والمدنيّة، ومن الأصوات المناوئة من الجهات السياسيّة والأطراف الأخرى، مهما بدت عالية أو مغالية في انتقادها ومعارضتها، فإنّ أيّا منها لم يتناول الطائفة الشيعيّة بالذات ولا خصوصيّاتها، ولم يتنكّر لإنجازاتها الوطنيّة ودورها ووجودها الثابت والأساسيّ في الكيان الوطنيّ واللعبة السياسيّة. إنّما كانت هذه الموجة من المعارضات موجهة ضدّ السير عكس اتجاه العصر والتاريخ، وضد التحوّل اللامعقول واللاطبيعيّ الذي اتخذه مسار حركة التحرّر الشيعيّ في لبنان (إذا صحّ هذا التعبير)، وانحرافها عن خطّها الأساسيّ في استعادة الحقوق الطبيعيّة والمواطنيّة والسياسيّة للطائفة، وفي نفض الغبار عن وجهها الأصيل والناصع في خارطة الوطن، كما في رفع راية تحرير لبنان والجنوب اللبنانيّ وليس الجنوب الشيعيّ، من براثن الاحتلال الاسرائيليّ وتسلّم زمام قيادة هذا الواجب الوطنيّ الخطير مهما بلغت التضحيات والأثمان.

إنّها بالحقيقة رؤية واحد من مئات آلاف المغتربين الشيعة، محمّل بإرث حسينيّ زاخر، ورازح تحت ثقل كبير من الظلم والقهر والتخلّف، يحاول فيها أن يجمع أجزاء الصورة المبعثرة، عبر محطّات زمنيّة وتاريخيّة مشهودة، ليعيد تكوين شكل ومضمون اللوحة التي تبرز وجوه المعاناة القائمة التي كانت تنتظر الشيعيّ اللبنانيّ في مختلف مراحل عمره، كما في مختلف الأمكنة والبلاد التي لجأ إليها، وهو الذي كان يتابع ويعيش بفرح وفخر واعتزاز، يقظة الطائفة ونهوضها من سبات طويل، لتنفض عنها كلّ مخلّفات الجهل والعجز والانكسار والخضوع، وتتسلّح بأسباب نموّها وتقدّمها، وتستعيد حقّها الطبيعيّ في مكانتها وموقعها ودورها في مختلف مؤسّسات الدولة والمجتمع، بما يتناسب

مع وزنها وقيمتها وقدرات أبنائها، خاصّة بعد أن تبنّت أكبر حركة تحرّرية، ليس في تاريخ لبنان فحسب بل في تاريخ العرب الحديث، ونجحت في القضاء على الاحتلالين النفسيّ الاجتماعيّ السياسيّ المتمثّل بالإقطاع والتحكّم والفقر والتبعيّة، والماديّ العسكريّ الأمنيّ المتمثّل بالعدو الإسرائيليّ، وإذ به – هذا المغترب – يقف مرّة أخرى، أمام واقع أكثر بؤسًا وإيلامًا بعد أن وجد نفسه أمام "شيعيّة سياسيّة" و"شيعيّة عسكريّة" جديدة، لا تختلف عمّا عرفناه ورفضناه من "المارونيّة السياسيّة" و"السنيّة السياسيّة"، وأمام إقطاعيّة دينيّة تصادر أفكار الناس وتسلب إراداتهم وحرّياتهم وخياراتهم، وأمام نهج سياسيّ يحاول أن يضع شيعة لبنان بالذات في واجهة الصراعات المحليّة والاقليميّة والدوليّة.

كما هدفت أن أبيّن أنّه إذا أرادت القيادة الشيعيّة أن تصوّر أنّ الرفض السنيّ للحزب الشيعيّ يقوم على أساس مذهبيّ، فإنّ نظرة بسيطة وتأمّلاً منطقيًا لهذا الأمر، يمكن أن يدحض هذا القول، حيث إنّ حركة حماس الفلسطينيّة وهي حركة سنيّة بامتياز وشعب فلسطين شعب سنّي بامتياز، وأنّ حركة الرئيس الحريري غير المؤطرة في حزب بل في تيّار يضمّ أغلبيّة السنّة، إلا أنّ حماس لم تنجح إلاّ باستقطاب بضع عشرات أو مئات من السنّة اللبنانييّن ليخرجوا في مسيرات التنديد والاستنكار عندما كانت تتعرّض غزّة للحرق والقتل والدمار. كما أنّ حركة حماس المقاومة لم تستطع أن تكسب مشاعر وولاء الفلسطينيّين أنفسهم في فلسطين أو في الشتات. والشعب الفلسطينيّ هو أغلبيّة سنيّة، وقسم منه يخضع للاحتلال والقسم الآخر للمعاناة، إذًا وانطلاقًا من هنا يجب أن نفهم ونقدّر توجّه بعض اللبنانيّين الذين لا يريدون أن يبقى البلد في حالة حرب دائمة ومفتوحة ومن دون أفق واضح ومحدّد، وينادون بإحياء اتفاق الهدنة. وأعتقد أنّ السؤال الملحّ اليوم، الذي يقلق الشعوب العربيّة المقهورة، ومنها

الشعب الفلسطينيّ المظلوم، هو: ماذا بعد التحرير؟ إنّ دول الأشقاء الميسورة قد أغلقت أبوابها ودفنت الأمل وهرولت واحدة بعد الأخرى تنفض يديها من المواجهة وتهرول راكضة للمصالحة والسلام. فقد كانت غزّة محاصرة بسياج من الأسلاك الشائكه أثناء الإحتلال، وإذا بها تستيقظ على جدار فولاذي من الأشقاء بعمق 20 مترًا تحت الأرض بعد التحرير. وأصبحت شعوبنا كالسجين الحزين يوم إطلاق سراحه، فهو لا يدري كيف يبدأ ومن أين يؤمّن الحياة الكريمة، فآثر أن يبقى في سجنه ليضمن أمانه. إنّها ليست مصادفة لكنّها مؤامرة محبوكة بحبال الأخوة، ومباركة بتراتيل وحدة المسار وبئس المصير.

إنّ أسطع مثال لحاجتنا اليوم، أكثر من أيّ وقت مضى، إلى الحكمة والتعقّل والاعتدال والتسامح، هو أن نستعيد سيرة هتلر وإمكانات الألمان الهائلة في الحرب العالميّة الثانية، والجيش الذي يعدّ بالملايين والمنتشر في إفريقا وآسيا وأوروبا، والسفن والغوّاصات التي كانت تجوب بحار ومحيطات العالم، والشعب الذي اقتنع وأرسل أبناءه ومن ثمّ أطفاله إلى المعركة، وأرسل علماءه إلى المصانع لابتكار أحدث أنواع الصواريخ والأسلحة التي طالت لندن وجميع المدن الأوروبيّة التي لا تخضع للنازيّة. ولكن عندما تكاتف العالم لم يجد هتلر مكانًا يلجأ إليه إلا الانتحار.

بقي الشعب الألمانيّ العظيم في أرضه المقسّمة والمحتلّة من أكبر جبّارين في العالم. حافظ على ما تبقّى من منازل وطرقات ومؤسّسات، شمّر عن ساعديه ولم يهرب إلى خارج البلاد. وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. إستقبل المساعدات من (برنامج ماريشال)، لم يسرقها ولم يوزّعها على المحاسيب

وضعت القوانين فوق الجميع، وقام القضاة النزيهون بعملهم، وقام العلماء وأصحاب الخبرة بدراسة كلّ شبر من البلاد والاهتمام به أعادوا بناء بلدهم وكسروا القاعدة التاريخيّة عندما حوّلوا الجنوب ليصبح أقوى من الشمال، أي وقف البلد على ساقين قويتين لم يلتفتوا إلى الاحتلال الذي تحوّل إلى قوة ترقبهم وتحافظ على إنجازاتهم. حافظوا على كلّ قطرة ماء في بلاد تهطل فيها الأمطار على مدار السنة، فأصبحت أنهارهم شرايين هادرة تضخّ الدم في جسم الوطن وتحمل الخير وترفد الاقتصاد وتنقل البضائع عملت السواعد بحرّيّه بعد أن أصبح "الغوستابو" الذي قهر شعبه قبل أن يقهر الأعداء، أثرًا بعد عين. ما حمل رئيس أعظم دولة في العالم، الرئيس كيندي، بعد خمسة عشر عامًا على انتهاء الحرب، أن يقف مذهولاً بإنجازات هذا الشعب ويعلن إنتماءه إليه عندما قال بفخر واعتزاز: "انا برلينيّ".

وسقط جدار برلين خجولاً أمام هذا الشعب العظيم دون أن يطلق طلقة للتحرير. وأثبتت الأيام أن الجهاد ضدّ القهر والفقر والتخلّف والتعصّب وبناء الحياة الكريمة، أصعب بكثير من تحرير الأرض من العدوّ لتدخل في نفق مظلم لا يقلّ قساوة من قهر الاحتلال، وهو قهر الأخ لأخيه وقهر العالِم بجور سلطة الجاهل وقهر النور بحلكة الظلام.

ولا أقول هذا لكي أنفي حقّنا في أن نكون أقوياء ونمتلك كلّ أسباب الدفاع عن وطننا وحماية شعبنا وأرضنا، لأنّه لا سلام ولا تنمية ولا إستقرار ولا تقدّم من دون أن يكون هناك قوة تحمي كلّ هذا. ولكن تحت شرط أساسيّ وهو حماية الحرّيّات ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب. وكلمة "مناسب" لا تحتمل التأويل أو التصرّف في التفسير والترجمة، ليتمّ اقتصارها على المقاتل

أو المؤمن أوالحزبي او ابن عوائل الشهداء مع تقديري للجميع، لأنّ بناء الأوطان يكون بالعقول والعقول فقط، وبالعلم والعلم فقط. ولكن أقصد أن نكون منطقيّين، وألاّ نرفع شعارات تفوق قدراتنا ونتبنّى مشاريع لتحقيق مآرب غيرنا، وأن نكون واقعيين في طرح أحلامنا وألاّ نكون انتحاريين، لنحمّل شعبنا وطائفتنا بالذات مزيدًا من الويلات والخسائر لأنّها هي التي تقف على فوّهة البركان.

ما أردته فعلاً هو أن أكشف ما يخفيه الواقع من صور قاسية ومؤلمة، حيث يتولّى قادة طائفتنا، دون أيّ صوت آخر، من الماء إلى الماء، الدعوة كلّ لحظة إلى التعبئة وتجييش الشباب وتحويل الدولة إلى دولة مقاومة والشعب إلى شعب مقاوم، بهدف مواجهة العدوّ الإسرائيليّ وحماية بلدنا وأمننا وأهلنا، وهذا أمر جدير بالتقدير والاحترام، ولكن أين هي مصالح الطائفة وحياتها ومستقبل أبنائها؟ واين هي مصالح الوطن؟ طبعًا هي في آخر سلّم الأولويّات، لأنّه لا صوت يعلو فوق صوت المعركة، (هل تتذكّرون معيّ سنوات الحرب الباردة وسنوات اللاحرب واللاسلم، القاتلة والمدمّرة...التي مرّت على بلادنا العربيّة بعد كارثة عام 1967؟)، وذلك للأسباب التالية:

- قسم من رجالات طائفتنا مستأثر بالسلطة، ومنهم من يقوم بواجبه كاملاً ويستحقّ التقدير، ومنهم من تشكّلوا على دماء الشهداء أو دماء المواطنين في الحرب الأهليّة، أو بقدرة قادر، وهم الذين يرفعون أيديهم ويخفضونها حسب الطلب.

- وقسم يبحث عن رزقه بالحلال والحرام، حيث إنّ الزراعات البديلة التي وعدت بها الدولة لم يتحقّق منها أيّ شيء لذا عادوا إلى الزراعات الممنوعة،

ولهذا فقد خرج من الطائفة جيش من المطاردين والمطلوبين للدولة دون أن نجد علاجًا لهؤلاء الشباب.

- خضوع الأحزاب الشيعيّة إلى المنطق العشائريّ، فوجدت يدها مغلولة أمام سطوة العشائر ونفوذها وتأثيرها في كلّ مجالات الحياة تسندها وتحميها أطراف سياسيّة فاعلة.

- السياسات المتّبعة من جانب قوانا السياسيّة والتي جعلت الأبواب موصدة في وجه أبناء الطائفة من الأكفاء غير الحزبيين.

- إنعدام وجود البنية التحتية، وسيطرة البيروقراطيّة التي تعمّ لبنان، حيث إنّ الشيعيّ إذا أراد أن يقيم مصنعًا أو مشروعًا فإنّه يتعرّض للابتزاز على كلّ باب من أبواب الوزارات من أجل إنجاز الأوراق والتراخيص المطلوبة. وهنا يجدر بي أن أذكّر بتجربة بعض دول أوروبا الشرقيّة والمناطق المنكوبة، حيث إنّ دولة مثل رومانيا، كانت قد أصدرت قوانين تشجّع الاستثمار في المناطق الأقلّ تطورًا، وجعلت رجال الأعمال من كلّ أنحاء العالم يأتون ليستثمروا في هذه المناطق بعد أن منحتهم إعفاءات ضريبيّة كبيرة على إدخال المعدّات الصناعيّة اللازمة، كما على الأرباح المحقّقة لسنوات عدّة. وقد حصدت، بفضل هذه الاجراءات والمحفّزات، إستثمارات بمليارات الدولارات وأمّنت العمل لمئات الآلاف من أبنائها.

- الاتهامات والخوف من أيّ غريب، حتى لو كان من منطقة مجاورة أخرى، تحت حجّة الأمن فوق الأكل، ما جعل لبنان الذي يتمتّع بالمناخ المميّز واليد العاملة الخبيرة والكوادر المتخصّصة، منسيًّا من قبل رجال الأعمال الكبار

والشركات الكبرى في العالم. بسبب عدم الاستقرار وعدم وجود القوانين الواضحة التي تشجّع المستثمرين، إضافة إلى عدم وجود البنية التحتيّة، واعتماد الكيديّة في تطبيق القوانين والابتزاز بين طبقة السياسيّين أنفسهم، حيث كل يغنّي على ليلاه، ما يجعلنا بين أيد غير أمينة على الوطن وعلى العباد.

-18-

وطنكم وأوطاننا..قانونكم وقوانيننا

إذا كان للبنانيّ بلد اسمه لبنان، فإنّ للشيعيّ المغترب بلدين أو ثلاثة بلاد.

وإذا كان اللبنانيّ يخضع للقانون اللبنانيّ – إذا وجد – وهو كخيوط العنكبوت تعلق به مئات الحشرات وتعصف به الطيور الكاسرة والجارحة فتقطّع بمخالبها أوصاله وتحمله إلى مهبّ الريح. فإنّنا في بلاد الإغتراب، نخضع لقوانين وأنظمة ثابتة وواضحة ومحصّنة ضدّ الوحوش البشريّة وغير البشريّة.

إذا كان وطننا الذي يدعى مسقط رأسنا، قد شهد سقوط رأسنا وسقوط رقابنا وسقوط أحلامنا وسقوط إراداتنا وعقولنا، وسقوط آلاف الضحايا والمعوّقين، وسقوط أسطح البيوت فوق رؤوسنا، وتركنا مهجّرين من النار إلى الذلّ.

وإذا كان وطننا يدعى الوطن الأمّ، هذه الأمّ التي طردت أبناءها وشرّدتهم في ديار الله الواسعة، وهذه الأم التي خطفت الرغيف من أيدي أبنائها لتكتنزه لعصابات الوطن، وهذه الأمّ التي تُعاقب أولادها على جرائم لم يرتكبوها.

فإننا في المغتربات، نعيش في وطن هو حقًّا مسقط الرأس وحافظه ورافعه وحاميه، وهو حقًّا الوطن الأمّ التي تحضن وتضحّي، وتطعم أبناءها وهي جائعة وتسقيهم وهي عطشى، وتحميهم وتدافع عنهم ولا تقبل إهانتهم وابتزازهم

هذه البلاد تهتمّ بأدقّ التفاصيل وفي أبسط شؤون المواطن وأعقدها، وتعمل على تنشئة الأجيال، لأنّ الدولة أو القائمين عليها هم جيل اليوم يعطون المثل

الذي يقتدى به للأجيال القادمة التي ستتحمّل المسؤوليّة الكاملة بعد ذلك. فلذا كان من الواجب علينا أن ننخرط في العمل مع جميع مكوّنات المجتمع، من مسلمين ومسيحيّين ويهود وهندوس وبوذيّين وعلمانيّين وغيرهم، كما كان علينا الاّ نسمع لأحد إلاّ لأصوات ضمائرنا وحدود الله في تعاملنا، لأنّ حدود الله هي السائدة في مثل هذه البلاد، سواء في المعاملات بين الناس واحترام للآخر وعدم إهانته وعدم إستغابته والتدخل في شؤونه وإفساح المجال له كي يفكّر ويبدع.

نحن في بلدان يقام بها كلّ عام الكثير من المؤتمرات للإختراعات الجديدة، فيأتي الناس إليها من كلّ حدب وصوب، وعنوانها هو: إطرحْ أيّ فكرة أو رؤية أو مشروع دون خجل أو تردّد، وقدّمْ أيّة محاولة اختراع قمت بها، لأنّ الأشياء الكبيرة كان مفتاحها محاولات صغيرة ورحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة.

هل تسمح بلادنا "الأمّ"، أن نقدّم أفكارنا وأن ننخرط بالعمل في بلداننا، وهي بلدان الإغتراب الحقيقيّ بالنسبة إلينا؟

إنّ مشكلتنا كمغتربين، هي أنّ أحدًا من الزعماء والمسؤولين لا يريد تفهّمها، لأنّهم لا يريدون أن يتعاملوا مع أولادهم المغتربين إلاّ من خلال المصلحة الماديّة ومردود التبرّعات والمساعدات، أو التأييد المطلق، وبغضّ النظر عن شخصيّة هذا المغترب وموقعه وثقافته، وما حقّقه من تجديد وتطوير في تفكيره ومنهجه وسلوكه، بفعل عيشه واندماجه وممارسته الطويلة في مجتمعات حرّة ومنفتحة ومتسامحة وديموقراطيّة.

بقي المغترب في نظر قادته ومراكز القوى المهيمنة على مناطقه وقراره، ورقة رابحة جاهزة في جيوبهم يصرفون قيمتها وقتما يشاؤون وكيفما يشاؤون، ورقمًا احتياطيًّا معدًّا للإستخدام عند الحاجة في صناديق الإقتراع وفي عمليّات الإبتزاز وساحات المظاهرات. لم يدركوا بعد أنّ المغترب هو خزّان إنسانيّ وفكريّ واجتماعيّ واقتصاديّ وسياسيّ متحرّر ومتقدّم، بإمكانه لو تسنّت له الظروف ولو أحسن التعامل معه بموضوعيّة وعدالة ومنطقيّة، أن يقوم بدور هام وكبير على كلّ المستويات وفي كلّ المجالات من أجل نهضة المجتمع والوطن.

وإذا كان هناك فئة لبنانيّة ، لا يمكن لأحد أن يشكّ بانتمائها وتاريخها وإيمانها وغيرتها على مصلحة الطائفة وخيرها ومستقبلها، قد أعلنت خروجها أو رفضها لكلّ أشكال القمع ، ولكلّ الممارسات والتجاوزات التي تجري على أرض الوطن، فإنّ هذه النقطة بالذات والمتعلّقة بمسألة الحرّيّات عمومًا، تمثّل للمغترب مشكلة حقيقيّة، لأنّه لم يتعود ولم يعد باستطاعته أن يعيش في مجتمع منغلق على ذاته وشموليّ وآحادي، ولم يعد بإمكانه أن يخرج من ثوبه ليعود آلاف السنين إلى الوراء ويلغي فكره وعقله وإرادته ويسلّم أمره لسلطة غير قابلة للنقاش والجدل، تذكّره بعصا "المطوّع" التي تؤدب الناس في بعض الأنظمة الأصوليّة. ولو سلّمنا جدلاً بتقبّل البعض من الجيل الأول وسكوتهم، فكيف يمكن أن يقبل أبناؤنا الذين ولدوا وترعرعوا وتعلّموا في أجواء لا تعترف إلاّ بسلطة القانون المدنيّ وتحرّم المسّ بالحرّيّات العامّة والخاصّة؟ إنّ أبناءنا يرفضون العيش في مجتمع رعويّ، تهيمن على مؤسّساته الثقافيّة والتربويّة والصحيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة جهة واحدة هي التي تموّلها وهي التي تتحكّم بها، وهي التي تدعو للتسبيح ليل نهار بحمد الراعي والزعيم والدعاء

لبقائهما وطول عمر أزلامهما وأتباعهما. وباتت ملفتة وصادمة ظاهرة استخدام الأسماء والألقاب الشريفة والمكرّمة، بعد أن تحوّلت إلى سلعة رابحة في أيدي التجّار المروّجين لبضائعهم وخدماتهم، وغيرها من القطاعات التي تريد باسم الأولياء والأئمة والصالحين أن تروّج لبضاعتها وتوهم المستهلك سلفًا، بما تتميّز به من فضائل النزاهة والأمانة الصدق والطهارة. ما علاقة اللحمة وتجّار اللحوم بهذه الأسماء المباركة؟ ولا أدري أين كانت هذه الخصال الرسوليّة النقيّة حين لجأ أحد الشباب المصابين بطلق طائش وهو ينزف، إلى مستشفى يحمل اسم أعظم الخلق، طلبًا للعلاج، فإذا بمسؤولي المستشفى يصرّون على تركه مرميًا على بابها وهو غارق بدمائه، لأنّه عجز عن دفع التأمين الماديّ المطلوب. فهل كان "الرسول وآل بيته عليهم أفضل الصلاة يرضون عن مثل هذه التصرّفات والأعمال؟ ولا أعلم ما علاقة الأنبياء وآل البيت الطاهرين بمؤسسة تخفّى صاحبها وراء بعض المتنفّذين والسياسيّين والأمنيّين ، حسب ما أذيع ونشر، حتّى تجد مجموعة من الأشخاص والمغتربين نفسها أمام أكبر فضيحة إفلاسيّة هزّت الوسط الشيعيّ برمّته. أليس ذلك هو نتيجة حتميّة لما يسود مناطقنا من فكر سيطر على عقول الناس وصادر إرادتهم وقرارهم؟ وهل هي إلاّ دليل على محاولة إضفاء صفة المقدّس حتّى على نشاطاتنا اليوميّة بالبيع والشراء، ومحاولة إدخال الأسماء والصفات الشريفة والكريمة في سياساتنا وتوظيفها لمصالحنا ومآربنا الشخصيّة؟

إنّ المغترب، وخاصّة في أوروبا وأميركا، يخضع لقوانين رسميّة باسم الدولة والقانون، دون غيرهما، ترعى حريّته وكرامته وتشاركه همومه وتساعده عند الشدّة، وتقاسمه أفراحه وأتراحه، فتأخذ منه الضرائب عندما يكون مرتاحًا وتعطيه المساعدات عندما يكون في مأزق. تقدّم الرعاية الصحيّة الكاملة

للجميع دون تمييز ولا محاباة ولا استثناء، في أحدث وأرقى المستشفيات، كما تؤمن لهم التربية والتعليم مجانًا أو برسوم رمزيّة، في أرقى المدارس والجامعات التي تتميّز بأبنيتها النموذجيّة وطواقمها الادارية والتعليمية المتخصّصة والمؤهلّة، ومرافقها ومختبراتها العلميّة ومكتباتها وأجوائها التربويّة الراقية، ما يجعل الطالب يعرف أنّ هذا البلد، وإن لم يكن مسقط رأسه، إلاّ أنّه الوطن النهائيّ الذي يرغب فيه للاستقرار والعمل وبناء أسرة جديدة.

فإذا كان الناس في بلادنا لا يقدرون ولا يتجرّأون على ممارسة حريّة التعبير، كي لا يؤذوا سمع أولياء الأمور، ويثيروا أعصابهم، خوفًا ممّا لا تحمد عقباه، بالقتل حينًا وبالعزل في أحسن الأحوال وبخسارة مصدر الرزق كعقاب في حالات أخرى.

وحيث إن لكلّ طائفة بابًا لا يمكن الولوج إلى الوطن إلاّ من خلاله، وعلى القادم أن يأتي زاحفًا على بطنه مسمّرًا عينيه في الأرض لكي لا يرى ما يجري حوله، حتّى إذا ما انتصبت قامته بمنصب أغدق على الطائفة، كان عليه أن يبقى كالعميان والطرشان والببغاوات، يردّد ما يسمع من حزبه وسادته، من غير أن يتدخّل بالذي "لا شأن له فيه لأنه سيرى ما لا يرضيه وما يجعله عبرة للآخرين".

إنّنا هنا، في المغتربات، نعيش في أوطان، لا تتباهى بماضيها بقدر ما تتطلع إلى بناء مستقبلها، تقدّر مواطنيها وتحفظ حقوقهم وتقدّس حرّيّاتهم. لقد تنشّقنا ملء صدورنا مفهوم المحاسبة والنقد، ورأينا بأعيننا النتائج الباهرة التي ترتّبت على معاقبة المسؤول، كبر أو صغر، ومحاكمته وعزله لدى ارتكابه أيّ خطأ أو تفريطه بأيّ حقّ من حقوق دولة المواطنين.

هذه البلاد التي "آوتنا من جوع وأمنتنا من خوف"، إستحقت بكلّ جدارة أن تعرف بدول العالم الأول، لأسباب كثيرة، أهمّها أنها آمنت بالعقل والعلم والكفاءة، والحرّيّة والعدالة والأخلاق، أدوات ووسائل للانطلاق في صنع الغد لأجيالها، فمحت الأميّة من قاموسها، ورسّخت أسس العدالة والحقوق والتنمية، واستقبلت الناس من كل جنس ولون ومن مختلف الأديان والمعتقدات، وصهرتهم داخل أنظمة لا تقبل العنصريّة والتعصّب والتزمّت، ولا الزيف والخداع والتلاعب، وحذّرت من يحاول تجاوز القانون، مهما علا شأنه، من عقاب يتناسب مع المرتبة الأولى التي حققتها، لأنّه لا يمكن للأول أن يعود أخيراً ولا يمكنه أن يكون مجرمًا ولا فاسدًا ومفسدًا، كما لا يمكنه أن يكون طائفيًا وفئويًا، وإلاّ فإنّ عليه أن يتلقّى المساءلة بداية من أبنائه الذين ترعرعوا في هذه البلاد والذين يقولون كلمة الحقّ ويمشون حتى في وجه أبيهم، وفي وجه أيّ سلطان جائر إذا رأوا منه منكرًا. إنّهم هؤلاء الذين يتقنون التطبيق العمليّ الفعليّ للحديث النبويّ الشريف: "من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان."

إنّنا نعيش في دول المواطنيّة وليس في دول الأسياد والزعماء، نهتف بصدق وحضارة وإيمان للمبادئ الانسانيّة وللكرامة الانسانيّة ولقيم النزاهة والأمانة والأخلاق، ونرفع الصوت ضدّ أيّ مظهر من مظاهر الظلم والتسلّط والقمع. لم نسمع يومًا خروج الآلاف من قطعان الأغنام والثعالب لتهدي دمها ودم أبنائها فداء للزعيم وأزلامه، ولم نعرف مرّة أنّنا بعنا قرارنا وصوتنا وضميرنا ومستقبل بلادنا وأولادنا مجّانًا كرمى لمنبت القائد وأصالة أرومته الدينيّة والعائليّة والاجتماعيّة، ولم ترد إلى مسامعنا مفردات المحادل والبوسطات والمركبات الإلهيّة التي تخفي في طيّاتها مفهومًا مرعبًا وهو أنّه إمّا أن تحجز لك تذكرة

في هذه المحدلة وتصعد فوقها وإمّا أنّها ستمرّ فوق أجساد المتخلّفين "لتحدلهم" وتجبل وجودهم بالتراب. لم يسجّل في كشوفات وأرشيفات الحكومات والرؤساء دمغة 99.99%. لا أدري كيف يستطيع الحاكم، في بلادنا المسكينة، مهما علا شأنه وصفت سيرته ونقت أصوله، أن يحوز على هذه النسب الخياليّة من التأييد، في الوقت الذي تشير فيه الدراسات والاحصاءات، أنّ الله سبحانه وتعالى لا يحظى بهذا الرقم العجيب من المؤمنين، وأنّ الأنبياء والقدّيسين والصالحين يبدون وكأنهم يغسلون أيدي هؤلاء الحكّام الجبابرة؟ إلاّ إذا كانت شعوب هذه الدول على درجة سحيقة من الغباء والجنون والإعاقة العقليّة والجسديّة، بحيث لم يخرج منها إلاّ عبقريّ ووطنيّ وشريف واحد أحد، وهنا يمكن أن يقدّم العالم تهانيه لهذا الفرد الفذّ الذي يتولّى قيادة شعب من المجانين والمعوّقين!...

إننا نعيش في دول تتيح أنظمتها لكلّ إنسان أن يصل إلى أعلى المراتب والمراكز، بناء على كفاءته وعمله وذكائه ومقدرته، وتحت شعار "إعمل وارقَ"، ودون أن تولي أيّ اعتبار لأصله ودينه وطبقته. وسجلاّت هذه البلاد حافلة بالأسماء التي دخلت في تاريخها السياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ، وكان أحدثها وأبرزها، عندما قرّرت الجماهير أن تردّد "نعم قادرون" تلبية لنداء شاب أسود من أصول إسلاميّة، جيء به مهاجرًا معدمًا من أكثر الدول فقرًا وتخلّفًا، ليصبح بعلمه وجهده وإخلاصه ووطنيته وتميّزه رئيس أكبر دولة في العالم، إنّه بالطبع باراك أوباما. وما زلنا في بقعتنا المتخلّفة من العالم، نقف على أبواب الأوباش والطائفيّين والفاشلين والفاسدين والجهلة لكي نأخذ الإذن للسماح لنا بالتنفّس والبقاء قطيعًا حيًّا في مراعي الكبار، رغبة في ضمان عفوهم ومغفرتهم ورضاهم. وإذا كان ربّ العباد عزّ وجلّ غفّار رحيم يغفر الذنوب كافة إلاّ أن

يشرك به، فإن آلهتنا الجدد، وسارقي الأحلام والأموال والأنفس والثمرات، أخذوا مكان الله سبحانه، لكي لا يغفروا ذنوبًا ابتدعوها. فكيف يمكن إذًا أن نتخيّل مصير أمة يخضع فيها عالِمها لجاهلها، وما مصير أمة يتساوى فيها الأعمى والبصير ؟!...

لقد نقلنا الله من الظلمات إلى النور، وكنّا توّاقين لنقل النور إلى من نحب، ونأمل أن يدّعونا نفعل، وإن كنت أعلم أنّ هذا مستحيل. وكيف لنا ذلك ولبلادنا أبواب يقف عليها من الرجال الذين اختلفوا على كلّ شيء إلاّ على التنكيل بنا وإخضاعنا وإذلالنا والعبث بإنجازاتنا وتشويه صورتنا؟ فحرّموا علينا وعلى أولادنا المساهمة في بناء كيان وطن حقيقيّ، وإدارة شؤونه كما تدار الدول الراقية، لأنّهم يدركون أنّ أولادنا الذين يحملون الشهادات من أرقى جامعات العالم، والذين تمرّسوا في الحياة الديموقراطيّة وفي العمل في الشأنين العام والخاص، ولم ينغمسوا يومًا في ذهنيّة التبعيّة والهيمنة واستغلال السلطة، لا يمكنهم العودة من غير قيام بنية تحتيّة، ماديّة وإنسانيّة، يستطيعون الوقوف عليها والثقة بثباتها ليتسنى لهم البدء في ورشة البناء، والاقلاع بها على أسس علميّة على غرار الدول التي شهدوا تقدّمها يومًا بعد يوم، كما لا يسمح لهم بإطلاق أفكارهم وأنوارهم التي تكشف العورات والعيوب.

إننا نشفق على وطننا. فنحن أبناء عليّ وابنه الحسين عليهما السلام، الذي لم يرتض لأهله وأبنائه أن يبقوا تحت الظلم والقهر فخرج بآل بيته ليعتقهم من الظلم والطغيان، ولسنا أبناء الملوك والسلاطين الذين باعوا آخرتهم بدنياهم، وعلى الرّغم من وجودنا سنوات في أجمل بقاع العالم من أميركا إلى كندا إلى

اوروبا، ومع أجمل وأنظف الشعوب وأرقاها، إلاّ أننا ما زلنا نفكّر ونصمّم ونعدّ لعودتنا لإنقاذ بلدنا.

وأريد في هذا السياق، أن أعرض لمشكلة يعاني منها العرب بشكل عام والشيعة بشكل كالح ووقح، حيث يتدخّل الآخرون في شؤون الأفراد والمغتربين منهم خاصّةً، ويلقون عليهم التهم جزافًا، ويحدّون من حركتهم ونشاطهم، ويعرّضون أهلهم الذين يفتخرون بهم وبإنجازاتهم للمذلّة والإهانة، وخصوصًا في بلاد تهوى تلقّف الإشاعات وتسعى وراء اصطيادها، وتعتبر العمل فيها وسيلة للترفيه، والوظيفة طريقًا لامتلاك السلطة واستقبال المحاسيب وإقامة الولائم، فالناس لديها من الوقت ما يكفي لتهدره في تبادل الأخبار وأسرار الآخرين، ثمّ تزيينها وزخرفتها وتطعيمها بالملح والبهار ونشرها في الأندية والسهرات والتجمّعات، دون أيّ رادع من دين أو ضمير أو أخلاق، لما يمكن أن ينشأ عن ذلك من أضرار وتشويه لسمعة المغترب وتهديد لوجوده وحياته.

هذه ملامح من صورة مصغّرة عن وطن صغير جميل ورائع وعريق عمره آلاف السنوات الحضاريّة، إسمه لبنان، شوّه وجهه الزمن السياسيّ والطائفيّ القذر، يتململ ويتحرّق ليحتلّ مكانته تحت ضوء الشمس، لأنّه يستحقّها وهو جدير بها، يقوم بلفظ أبنائه وعقوله وطاقاته لفظ النواة إلى البحار، وفي المقابل صورة أخرى لبلاد ولدت منذ مئات السنين، وها هي اليوم تتصدّر العالم، لأنّها تلقّفت هذا النوى التائهة وأعادت زرعها ورعايتها وإعدادها، لتغتني بقدراتها وترتفع بها إلى مصاف العالم الأول.

-19-

أوباما: الكفاءة معيار النجاح

"إنّ الله لينصر دولة العدل وإن كانت كافرة"

لا يمكن للتنوّع أن ينشئ وطنًا إذا لم يكن قائمًا على التسامح وقبول الآخر وإتاحة الفرص للجميع بالتساوي.

إنّ تبوّأ الرئيس الأميركي باراك أوباما، وهو رئيس ملوّن، أعلى منصب في قيادة الكون، يمثّل دلالة واضحة على عظمة العالم الحرّ، الذي يعطي لكلّ إنسان فرصته للوصول إلى أعلى المناصب، بغضّ النظر عن عشيرته وعزوته، وأصله وفصله، ولونه وعرقه الشرط الأوّل والوحيد هو أن يكون مجتهدًا عاملاً مصممًا لا تعيقه العوائق، ومهمّة النظام العامّ في الدولة أن يؤازره ويدعمه ويؤمّن له الحماية من المفترين والحاسدين والحاقدين. وبهذا تصبح مقاعد الصفوف الأماميّة والمتقدّمة مستعدّة لاستقبال من يستحقّ من المؤهّلين ومحرّمة على كلّ من لا يستحق من المتسلّقين.

لا أدري إذا ما كان وصول أوباما إلى منصب الرئاسة، قد أثار أيّ تساؤل عند أحد من زعمائنا ورؤسائنا وقادتنا، أقلّه عن كيفيّة نشأته وإعداد نفسه وتدرّجه وتقلّبه في مختلف المواقع التي شغلها، قبل أن يبادر إلى دخول أعنف معركة إنتخابيّة ديموقراطيّة تشهدها بلاد العم سام في تاريخها، وهم يرقبون الشاب الطامح الذي واجه بصلابة وثبات كتلة من صخور التحدّيات وعلى رأسها لونه المختلف، الذي شكّل لقرون طويلة رمزًا للعبوديّة وعنوانًا للذلّ.

تخيّلوا معي لو كان بارك أوباما قد بقي في بلده الأمّ كينيا مثلاً، أو أنّه نشأ وترعرع في إحدى بلادنا العربيّة أو في دولة من دول الأزلام والأتباع وأحفاد العائلات والعشائر، أو أنّ الظروف رمت به في إحدى إقطاعيّات الحزب الواحد والزعيم الأوحد، ماذا كان حلّ به، وكيف يكون مصيره يا ترى؟

سأحاول معكم أن أتتبّع حياة الطفل باراك أوباما، وحياة أخيه غير الشقيق "شعلان" أوباما الذي ولد من أمّ لبنانيّة وتعلّم وترعرع في لبنان.

قصّة افتراضيّة ناقدة ساخرة، لكنّها تعبّر عن حقيقة مؤلمة تتبنّاها وتمارسها الأنظمة العربيّة قاطبة، مع ما فيها من تناقض فاضح بين ما يدعو إليه ديننا الإسلاميّ الحنيف، وما يصدر عنّا من أفعال متعارضة مع هذه الدعوات ومع قوله تعالى في سورة الصفّ في مُحكم كتابه: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولوا ما لا تَفْعَلونَ}، ومخالفين قول رسوله الكريم كما جاء في حُجّة الوداع "**يا أيُّها النّاسُ ألا إنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإنَّ أبَاكُمْ وَاحِدٌ، ألا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إلاّ بِالتَّقْوى، أَبَلَّغْتُ؟ قالوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** والتقوى أساس الحكمة التي هي مخافة الله، تأكيدًا لقول الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: "**التقوى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل.**" ومخافة الله تتمثّل بالعمل بأوامره جلّ وعلا، واجتناب نواهيه.

ترك حسين أوباما المسلم، والد الرئيس باراك أوباما، بلده كينيا وهاجر إلى لبنان، بدلاً من الذهاب إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة. هربًا من الظلم والفقر وسعيًا وراء العمل والرزق.

إستقرّ حسين أوباما في بيروت، عاصمة الثقافه، وبلد التنوّع والطوائف الثماني عشرة. تعرّفَ حسين أوباما أثناء وجوده إلى فتاةٍ لبنانيّه بيضاء من الطائفة الإسلاميه الكريمة، فأحبّها وأحبّته وتعاهدا على الزواج. لكنّ الأهل اعترضوا على هذا الزواج ورفضوه ومن بين الأسباب العديدة التي ذكرها والد الفتاة لتبرير رفضه، أنّ حسين الأسود لن يجد عملاً في لبنان، وأنّ أولاده سوف يبقون أبناء العبد، وسوف يعانون الأمرّين من المسؤولين ومن المجتمع . لكنّ الفتاة أصرّت وتزوّجت حسين وأنجبت منه بكرها "شعلان" أوباما.

ومرّت بضع سنوات، ذاق فيها حسين مرّ العذاب لكثرة ما واجهه من مضايقات واضطهاد وملاحقات ومصاعب، فقرّر ترك لبنان والذهاب إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة التي كانت وجهته أصلاً، فطلّق زوجته تاركًا معها ابنهما "شعلان".

في الولايات المتّحدة الأميركيّة تعرّف حسين إلى فتاة وتزوّجها، وأنجب منها إبنه الثانى "باراك" حسين أوباما، الذي نشأ وترعرع في أميركا وأصبح مواطنًا أميركيًا وتعلّم ونجح وخاض مجال العمل السياسي وشغل عدّة مواقع حزبيّة ونيابيّة إلى أن انتهى به المطاف ليحتلّ منصب أهمّ رجل فى العالم، ورئيسًا لمجلس إدارة الكون.

أمّا في الجانب الآخر من الدنيا، فإنّ أخاه "شعلان" الذي أصبح شابًا وأمّه لبنانيّة مسلمة أبًا عن جدّ، فما يزال يناضل من أجل الحصول على الجنسيّة اللبنانيّة. ولأنّ أمن الدولة لا يزال يعتبره كينيًا، "فقد غرق "شعلان" المسكين في لعبة الملاحقات والتوازن الطائفيّ ومسرحيّة التجنيس . وقد باءت محاولات أمّه

الحثيثة بالفشل لمنحه جنسيّتها، على الرّغم من انتسابها إلى جمعيّة المطالبين بحقوق المرأه والطفل.

لم يتمكّن "شعلان" من العمل في أيّة وظيفة حكوميّة لأنّه غير لبنانيّ، كما لم يستطع العمل بشهادته العلميّة التي تمكّن من حيازتها والتي ضحّت أمّه كثيرًا من أجلها، لأنّ القوانين لا تسمح للأجانب بممارسة المهنة إلاّ في نطاق ضيّق جدًّا.

ولأنّ لبنان في حروب لا تنتهي، و "شعلان" مواظب على الاتصال بوالده في أميركا، بلد الشيطان الأكبر، فقد بدأت تحوم حوله الشكوك، وأصبح مراقبًا تُعدّ عليه أنفاسه، ومتّهمًا بالتخابر والتحدّث مع مخابرات دولة عدوّة وكيف لهذا المسكين أن يثبت العكس ! أو يحول دون الأفكار السوداويّة التي عشّشت في عقول المراقبين وقلوبهم منذ أن أعلنوا الحرب على أميركا، وهم يرتشفون فنجانًا من القهوة البرازيليّة، ويدخّنون سيجارة أميركيّة، وتنتظرهم في الخارج سيّارة ألمانيّة الصنع وفي داخلها حفنة من دولارات مرسلة من أخ مغترب أو قريب أو صديق يعاني من شقاء الإغتراب، بينما متلقّيها ينظّر في أمور السياسة ويلعن العالم لعدم تفهّمه قضايانا!

"شعلان" أوباما كذلك لا يحقّ له الاقتراع في الانتخابات، وليس له حقّ الترشّح لأيّ مقعد. وليس أمامه إلاّ خيار واحد فقط وهو اللحاق بأبيه وأخيه، بالرّغم من حبّه الكبير لأمّه اللبنانيّة وتعلّقه بها.

كينيّ أسود من حقّه أن يصبح رئيسًا لأميركا . أمّا في لبنان فلا كينيّ ولا غير كينيّ، ولا أسود ولا أبيض ولا شيعيّ ولا سنّيّ، له حقّ الحلم بالترشّح للرئاسة،

لأنّ الشرط الأساس لتتمكن من الوصول إلى الرئاسة هو أن تكون ابن الطائفة المارونيّة. وهذا ليس الفرق بين "شعلان وباراك" أوباما، بل هو الفرق بين عالَم يعتبر حظوظ الإنسان كامنة في علمه وكفاءته واجتهاده، وآخر يحفر قدر المرء على جبينه، ويحدّد سقف طموحه أثناء قطع حبله السرّي عند ولادته. إنّه الفرق بين عالم يدفع أبناءه نحو المستقبل وآخر يقيّد رعيّته في حظائر الماضي والتخلّف، بين عالم ينشئ أحرارًا وعالم يفرّخ عبيدًا.

ولنفترض أنّ "شعلان" حصل على الجنسيّة اللبنانيّة وانتمى إلى العقيدة المحمّديّة ودخل في سماحة الإسلام ورحابتها مؤمنًا بخطّ الرسول وآل البيت، فهو في المحصّلة عبد أسود تُسدُ في وجهه الأبواب، بل توصد، وما أكثر التبريرات التي تُساق للحؤول دون مساواته بأتباع خطّ المؤمنين الأخيار من سلالة "الأشراف اللبنانيّين" وأزلامهم وزبانيتهم والمسبّحين بحمدهم قبل حمد ربّ العالمين. ومهما حاول "شعلان" الكينيّ اللبنانيّ، مع استحالة هذه الفرضيّة، من التسبيح بحمد "أنصاف الآلهة" فهو لن يخرج من دائرة العبد الأسود، فلا مكان له في صفوف "الصفوة" الذين يأنفون من لونه وعرقه. وإذا فكّر يومًا أن يتبوّأ منزلة لا تليق إلاّ بـ "سادة" الطائفة، فذنبه على جنبه، لأنّ البلاد بحاجة إلى كلّ مادّة سوداء تشبه الزفت، والمحدله شعار الطائفة وخير البرّ عاجله.

وللإنصاف، والحقّ يُقال إنّ ما ينطبق على لبنان ينطبق على كلّ الدول العربيّة أنظمة ومجتمعات وبشكل مريع، في دول إستولت عليها عائلات، وملكت فيها كلّ شيء، حتّى أصبح اسمها "العائلة المالكة"، وفيها مواقع غير قابله للاختراق. وإنّ مجرّد محاولة التفكير والطموح قد تؤدّي أحيانًا كثيرة إلى نزع الرأس عن البدن فأولى بمن يودّ التفكير أن يخرج من قمقم هذا العالم

وظلامه. ومع ذلك، لا يتورّع أحد من هؤلاء من التباهي والتفاخر بتكرار: "**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**" واجترارها علّه يقنع نفسه بما يريد إقناع الآخرين به، وهو يعلم أنّ الذين خصّهم الله بهذا القول قد ماتوا ولم يحفظ الخلف لهم من مآثرهم سوى التغنّي بأمجاد أضاعوها، وأخلاق لم يتمسّكوا بها، أو في أحسن الأحوال تشبّثوا بقشورها وتزيّوا بمظهرها مبتعدين عن جوهرها. وخير مَن تنطبق عليه هذه الآية الكريمة هم معظمنا وفي مقدّمتهم الزعامات الدينيّة والسياسيّة التي تتظاهر بالتمسّك بأهداب الدين وتتّخذه وسيلة للإبقاء على مراكزها وسيطرتها وتحكّمها برقاب العباد، وعليها ينطبق قول ربّ العالمين في سورة البقرة: **{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ}**.

"كما تكونون يولّى عليكم." فهل نحن حقًّا هكذا حتّى يستلم زمام أمورنا ويتحكّم في رقابنا ومصائرنا مَن هم ليسوا أهلاً لذلك. فهل بتنا، "كما يولّى علينا نكون" ومعاذ الله أن تكون هذه حال اللبناني الذي أبى الضيم والذلّ على مرّ الحقب والأزمان.. فما بال هذا اللبناني في وطنه قد بات محرومًا من الماء النظيف والعيش الهانئ والحرّيّة التي هي أساس المجتمع القويم وقوامه لكن إذا ساد القوم أناس لا يكترثون إلاّ لراحتهم وراحة حاشيتهم، وإذا كان زعيم القوم مشغولاً بمشاكل العالم، ويُكرَم الرجل الفاسق ويهان الصادق، فلينتظر القوم البلاء.

منذ منّ الله على البشريّة بنور الإسلام، نهى عن الغلظة والاستكبار، وألّف بين قلوب البشر في إنسانيّة تستوي معها الحياة وتستقيم هكذا تربّى أهل البيت عليهم السلام أجمعين، وهكذا نشأ المسلمون الأوّلون. رسالة إلهيّة سمحة، إلى البشر كافة دون امتياز لأحد علّمهم دينهم أنّ منزلة كلّ إنسان ترتبط بمدى عمله وبلائه ووفائه كان الإسلام في مفهومهم كالعِلم لا وطن له، لا قوم

يحتكره، ولا أرض تحدّه، وطنه هو العقل الحرّ والقلب الإنسانيّ الكريم هكذا كان الدين للمسلمين عامّة وللشيعيّ تحديدًا. كان دعوة حقّ ورحمة جديدة تغمر الأرض كلّها، وليس إرهابًا نازلاً من السماء، فأين منه هؤلاء الآن! وروي عن النبيّ الأكرم أنه قال: "أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ أَشْرَكَهُ اللهُ تَعَالَى فِيْ سُلْطَانِهِ فَجَارَ فِي حُكْمِهِ ." فعدل الحاكم يقود إلى طاعته، وبه يأمن سلطانه. وليس أسرع في خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الظلم والجور.

يبدو أنّنا في واقعنا العربي والمسلم تحديدًا ننظر إلى الماضي ليس لأخذ العبر والدروس واستلهام أحداثه، ما يمكّننا من مجاراة الأمم الأخرى واللحاق بمن سبقنا منها، ولكن لكي نعزّي أنفسنا بواقعنا المرير ونجد مبرّرات لتخاذلنا وتقاعسنا وتخلّفنا. والشعب الذي ينظر إلى ماضيه ويتوقّف عنده، لا أمل له في مستقبل، ولا حياة له يطمئن بها على نهايته . ولكن مهما قيل في سبب ما نحن فيه، ومهما كان لزعمائنا وسياسيّنا من أدوار في تأخّر مجتمعاتنا، يجب ألاّ يحول ذلك دون نهوضنا أفرادًا وجماعات لمواجهة الواقع وتغيير مجرياته. ولنا في ذلك عبرةً ودرسًا من تاريخ الأميركيّين الأفارقة في الولايات المتّحدة، وما يمكن أن يُطلق عليه "ظاهرة أوباما"، وأخذ الدروس منها والعبر. ويمكن تلخيصها بأنّ إصرار الأفراد على تحقيق الذات وبناء مجتمع العدل، مهما واجهوا من مشاكل وصعوبات، لا بدّ أن يكون الفوز في نهاية المطاف حليفهم.

بالنسبة إلى الأميركيّين السود الذين كانوا حتّى منتصف القرن الماضي "عبيد" أميركا، منذ أن أحضروا بالأغلال من إفريقيا مكرهين لخدمة المولى الأبيض وما أن وصلوا العالم الجديد، وأزيلت أغلالهم التي اقتيدوا بها، حتّى فُرضت عليهم أغلال اجتماعيّة أشدّ ظلمًا وقساوة . ومكث الأفارقة العبيد على هذه

الحال عقودًا وعقودًا إلى أن طفح الكيل بأفراد تمرّدوا على واقعهم المذلّ، وأدركوا أنّ للخلاص من واقع الذلّ والمهانة ثمنًا باهظًا لا بدّ أن يُدفع، وأنّ مرحلة الكفاح السلميّ والعصيان المدنيّ تتطلّب طلائع قد تكون حياتها وأرواحها هذا الثمن . ترافق ذلك مع قبول محدود من المجتمع الأبيض الذي آزر السود في رفضهم وتمرّدهم. وشواهد التضحيات التاريخيّة على ذلك كثيرة. ومن خلال مسلسل تاريخ انعتاق السود من ربقة الأغلال الاجتماعيّة، يتبيّن أنّ المجتمع، أيّ مجتمع، لكي ينهض ويصبح ذا سويّة إنسانيّة سماتها العدل والإنصاف والمساواة، لا بدّ من تضافر جميع مكوّناته لبلوغ الهدف الذي يسعى لتحقيقه. وعلى عكس ذلك، تسوده صراعات ومصادمات قد تعيق تقدّمه، وتكون سببًا في تراجعه وانكفائه. ودليلنا في ذلك على سبيل المثال قطعًا أيرلندة الشماليّة، وكي لا أذهب بعيدًا، ما عصف بمجتمعنا في لبنان، وما يزال، مع الأمل والدعاء بأن تنكشف الغمّة وينقشع الضباب، ويدرك القائمون على شؤونه ضرورة تضافر الجهود ورؤية المستقبل الجمعيّ للبنانيّين عامّة على اختلاف مشاريعهم مع الإبقاء على تعدّد مذاهبهم وانتماءاتهم الطائفيّة.

"ظاهرة أوباما" لم تكن إنجازًا فرديًّا، مع ما لهذا من أثر كبير في بلوغ صاحبه الشأو الذي بلغه والمنزلة التي تبوّأها، لقد كانت نتاج نضال سلميّ إيجابيّ ساهم فيه على مدى عقود متتالية ثلّة من روّاد المجتمع الأسود في الولايات المتّحدة الأميركيّة ومن مختلف انتماءاتهم الطبقيّة والتقاء زعامتهم الدينيّة بنظيراتها السياسيّة. فمن صرخة إمرأة سوداء في حافلة خُصّت مقدّماتها للسيّد الأبيض، وتركت مؤخّراتها لعبد أسود "لا، لا، كفى"، إلى محاولة طالب أسود في "سِلمى في ولاية ألاباما" الالتحاق بجامعة أقفلت أبوابها بوجوه طالبي العلم من السود وإصراره على حقّه في العلم، إلى صرخة حقّ إلهيّة، غدت مقولة

إنسانيّة أطلقها مارتن لوثر كنج، القسّ الأسود : "لديَّ حلمٌ" -(I have a dream) – ليسير خلفه آلاف الأميركيّين السود والبيض على حدّ سواء . وما عتم أن شرّعت الأبواب، وفتحت الطرق وزالت الموانع و العقبات، وانتفى الظلم الذي نعته مارتن لوثر كنج بأنّه "تهديد مباشر للعدل في كلّ مكان ومجال."

لو بقي حسين أوباما في مجتمعٍ مسلمٍ أو عربيّ، لانتهى أمره حارسًا على باب أحد الميسورين، أو حاملاً خرطوم المياه ليسقي أشجارًا زرعت في الصحراء لتظهر عظمة الملك أو الأمير الذي يفعل ما لا يفعله أحد، أو لكان طبّاخًا أو نادلاً في مطعم من الدرجة الثانية أو الثالثة، ولَصار ابنه "باراك" بعد أن نال شهاداته الجامعيّة حافظًا لكلّ خطابات التبجيل والثناء ليس للزعيم بل للنواب المعلنة أسماؤهم في مؤتمرات صحافيّة دون الإشارة إلى كفاءاتهم أو إنجازاتهم. فالماضي محذوف والمستقبل معروف، لكي يتعطّفوا عليه ويصبح موظّفًا بسيطًا، مهما كان لديه من المواهب والكفاءات، ليس لسبب سوى لونه وأصله الكينيّ "الوضيع"، وعشيرته التي لا تزن أعدادها شيئًا في صناديق الإقتراع أو لكان هرب إلى أوروبا لينام في مجمّعات خُصّصت للفارّين من الظلم والجهل، أو كان حضر إلى كندا ليعمل سائق سيّارة للأجرة إنّها اللعنه التي تلاحق كلّ مَن يولد في تلك البلاد المشؤومة، بلاد المسلمين التي خلا منها الإسلام. بلاد القوانين غير المكتوبة التي تتغيّر حسب أهواء واضعيها من الزعماء والأسياد. قوانين تكتسب منزلة القداسة المنزلة من السماء، وقد تسمو عليها. بلاد كلّ شئ فيها موقّت وقابل للشطب والإلغاء والتعديل من الدستور حتّى إقامة أبنائها . ومع ذلك، نعيب على المجتمعات والأمم أنّهم لا يتخلّقون بأخلاق الإسلام وتعاليمه الذين نحن أبعد ما نكون عنها فعلاً ونتباهى بها قولاً. في مجتمعٍ مسلمٍ وعربيّ لو أنّ أيّة عاصمة عربيّة أصابها ما تعرّضت له

مدينة نيويورك، في الحادي عشر من أيلول / سبتمبر 2001، وهي بلد الحرّيّة التي كانت تستقبل آلاف المهاجرين كلّ يومٍ على مدى عقود في القرنين الماضيين، ومحجّ كلّ طالب حرّ يّة من جميع أقطاب العالم، لأبيد كلّ من ينتمي إلى بلد الفاعلين، وتعرّض أهلهم ونووهم لأشد أنواع التنكيل، ونحن نردّد قوله تعالى في سورة فاطر دون استحياء أو خجلٍ منه ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، نردّدها ونعمل مصرّين على ما يخالفها إمعانًا في معصية الخالق وتناقضًا فاضحًا مع تعاليم الدين التي نستر بها عورات أخلاقنا وسوءات سلوكنا.

في مجتمع "الكفر" كما يصفه غلاة الدين، يتمكّن المسلم الشيعيّ وأي مسلم آخر من الوصول إلى حيث يريد، ويهيّئ له المجتمع أسباب الوصول، بينما نقاسي في بلادنا الأمرّين ونعجز حتّى عن المجاهرة في المطالبة بحقوقنا الأوّليّة التي يتمتّع بها أقلّ مواطن في المجتمعات الأخرى لأنّ بلوغ ما نمنّي النفس به رهن بأمر الحاكم بأمره سياسيًا كان أو دينيًا.

إنّنا شعوب عنصريّة وطائفيّة بامتياز نتنابز بالألقاب، ونعيب على سوانا ما نمارسه سرًّا. نعم نحن العرب "الأمّة الواحدة"، في بعض دولها تستورد مواطنين من دول العالم تختلف عنّا ثقافيًا وربّما دينيًا واجتماعيًا، ولا تتكلّم العربيّة لغة التواصل بين الناس، وعشرات الملايين العرب الآخرين لا يجدون ما يسدّون به الرمق، ونتباهى أنّ الله "أعزّنا بالإسلام"، وأنّنا كما جاء في مُحكم الكتاب "كالبنيان المرصوص". أمّة حكمت على نفسها بالذلّ، ورسفت بقيود جهلها، ونشرت معاصيها بلا سترٍ ولا حجاب على الملأ بلا خجل أو حساب ! أمّة لخّصت شرفها في الفرج، وتناست ما سواه. لبئس ما تفعل وبئس ما تكون. أمّة

تحكم على نصف المجتمع بالشلل. تحرم المرأة الحقوق وتنتظر منها أن تتولّى تربية جيلٍ يواجه العالم بجهله وتأخّره وعقده. ومع ذلك نردّد كالببغاوات: "الأُمُّ مَدْرسَةٌ إذَا أعْدَدْتَهَا أعْدَدْتَ شَعْبًا طَيِّبَ الأعْرَاقِ." أمّة أتخمت المادّة عقولها قبل بطونها، فاستوردت المربّيات من بلاد قاصية ودانية، وحبّذا كانت متقدّمة عنّا، لتربية أطفالها لينشأوا بلا لغة سليمة ولا تربية قويمة ولا هويّة أصيلة يفعلون ذلك ليس لأنّ الأمّهات يقضين أوقاتهنّ بالعلم والدراسة، ولكن للمباهاة والخيلاء الفارغ والادّعاء الأجوف. أننتظر بعد هذا جيلاً يواكب العالم في العلم والحضارة؟! أم ننتظر من "شعلان" أوباما إبن أمّ عربيّة في مجتمع يميّز بين الأبيض والأسود، أن يكون ذا شأن ما في بيروت أو في عاصمة عربيّة أخرى؟! أولى بـ"شعلان" هذا أن يعود لمجاهل إفريقيا، فهناك حظّه من بلوغ أمرٍ ما يعيد له اعتباره، أوفر بمئات المرّات من بقائه في مجتمع أخذ من الحضارة والتقدّم القشور، بينما حُشي في داخلة التخلّف والقصور.

في أميركا أو كندا أو أيّ مجتمع غربيّ فصل الدين عن الدولة، تجد أفرادًا متجنّسين من أصول عرقيّة متنوّعة وانتماءات دينيّة متعدّدة قد وصلوا أعلى المراتب، لا لأنّهم وُلدوا أسيادًا أو في أفواههم ملاعق أو مغارف من ذهب، بل لأنّهم كافحوا ولأنّ المجتمع بما يسوده من أنظمة وقوانين وضعيّة أتاح لهم ذلك.

لم يصل أوباما حيث هو الآن متربّعًا على أعلى كرسي في حكومة العالم بمجهود ذاتيّ فقط، لقد كانت سلسلة متتابعة من التضحيات من حلم راود ذهن قائد يؤازره شعب ادرك أن خلاصه مرهون بالعمل على تحقيق هذا الحلم، وعلم أنّه إذا بدأ المسير فلا توقّف ولا رجوع، وأنّ كسب صداقة أبناء المجتمع

الآخرين أجدى وأنفع آلاف المرّات من معاداته والدخول في صراع إن لم يقض على الحلم، سيعيق تحقيقه أو يؤجّله إلى وقت طويل وهكذا كان، استمرّ العطاء والإصرار حتّى حان وقت القطاف، وتفسّر "لديَّ حلم" إلى شعار ردّده مع أوباما ملايين الأميركيّين سود وبيض "نعم نستطيع" (Yes, we can)، وحقًّا استطاع، وتفتّحت عيون الضعفاء والمسحوقين على حقيقة من المحال أن يعود الزمان معها إلى الوراء.

بارك بن حسين أوباما، جعل من ذاك المحال ممكنًا ومن الممكن درسًا وعبرة تتذلّل معهما الصعاب، وتفتح صفحة ناصعة في سجلّ الإنسانيّة تذكّر بعهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عندما ساوى العبد الحبشيّ بلال بأفضل المسلمين، وآخاه. كان ذاك قبل أكثر من ألف ومئات السنين فلو تبع أحفاد رسول الله المسلمون تعاليم دينهم وأفعال رسولهم وآل البيت الطيّبين لكان أولى بمجتمعاتنا أن تكون المكان الأمثل ليس لأوباما، بل لكلّ مصلح يريد الخير والفلاح لمجتمعات بني البشر. ولكن أين من هذا نحن الآن ! شعب ابتعد عنه زعماؤه وخذله رجال دينه. شعب فتكت به آفات الجهل والفقر والمرض لا لذنب اقترفه، بل لأنّه وثق واهمًا بقادة كانت ذاتيّتهم محطّ اعتبارهم، وخير أبناء شعبهم آخر ما يشغلون البال به قادة ورجال دين ما حكّموا العدل في ضمائرهم، ولا كان لهم رادع من دينهم.

أوباما ابن عبد كينيّ، مهّد له والده الطريق في مجتمع مهما قيل فيه، ومهما عدّدت فيه من مآخذ، يتيح للفرد أن يخطو في طريق مستقبله بغضّ النظر عن لونه أو دينه أو معتقده مجتمع أميركيّ ترتبط قاعدته برأس هرمه، ويتساوى فيه حاكمه مع محكومه برباط عقد اجتماعيّ. لا فضل لأحد فيه على أحد إلاّ

بمقدار ما يقدّم للمجتمع. وقد أدرك أوباما هذا، وأدرك قبله مئات الرجال والنساء من أصول إفريقيّة، ورأوا من خلال نفقهم المظلم شعاع نور في الطرف الآخر، فجدّوا المسير. وفي طريقهم الطويل ذاك الذي توجّه أوباما بتربّعه على قمّة الهرم بإرادة الشعب، سقط منهم الكثير، ولأنّ لا بدّ لأيّ مجتمع لكي يتقدّم وينهض من أناس يكونون طلائعه لتحقيق الهدف، وقد يدفعون حياتهم ثمنًا لذلك.

في مجتمات النور والحرّيّة، مجتمعات قبول الآخر والانفتاح على إنسانيّة الكون، إذا أخلّ قرار سياسيّ بمنظومة القوانين والسلوك، ترتفع آلاف أصوات العقلاء والحكماء للحيلولة دون استمراره وتماديه. وهذا ما تمّ فعلاً إثر العمل الإرهابيّ الشنيع في نيويورك. ومع أنّه كان حقًّا ردّ فعل على إجرام، إلاّ أنّه إذا ما قورن بما يجري في بلادنا "رزءٌ أخفّ علينا من أن يوزنا". ولأنّ مجتمعاتنا عامّة، وفي لبنان خاصّة تخضع لقوانين غير مكتوبة أو آنيّة وأعراف استنّها "الأسياد" الذين سخّروها لخدمة ربّ العشيرة وراعي القطيع، ما أن يستجدّ ما لم يألفه أو يستسيغه هذا الزعيم أو ذاك حتّى يستفحل الجنون، ويصبح المسلّح الجاهل حاكم النقض والإبرام، يعتقل ويقتل بلا حسيب ولا رقيب.

ما أحرانا نحن أبناء الطائفة الشيعيّة الذين عانوا على مرّ السنين في جنوبنا اللبنانيّ الأمرّين من آفات أربع الزعامة والفقر والجهل والمرض، من أن نتمثّل أوباما الذي استجاب للحلم الذي منّاه به لوثر كنج، فقال "نعم، نستطيع". فلا يعقل أو يجوز للظلم أن يخنق الحرّيّة، حتّى ولو تزيّا بأهداب الدين. ولا يجوز للجهل أن يوجّه العلم نحن أيضًا نستطيع أن نقول "نعم نستطيع"، ولا سيّما بعد أن كحّل النور أجفاننا وفتحت النوافذ والأبواب أمام العقول والقلوب.

"ظاهرة أوباما " لا يمكن أن تحدث أو تتكرّر إلاّ في مجتمع تحكمه أنظمة وقوانين كالمجتمع الأميركيّ الذي آمن بما قاله مارتن لوثر كنج بأنّ "الظلم في أيّ مكان أو مجال تهديد مباشر للعدل في كلّ مكان وكلّ مجال مجتمع تسوده الحرّيّة ويعمّ فيه العدل والتسامح الدينيّ، فيجد فيه البوذيّ مكانًا له كما المسيحيّ واليهوديّ والمسلم، وكذلك الملحد مجتمع فصل الدين عن الدولة، فقوانين السماء على اختلاف كتبها تنحصر في أماكن العبادة، وقوانين الأرض تُصاغ في المجالس النيابيّة والتشريعيّة، ولا تعارض بينها يُترك للفرد في المجتمع أن يعبد الخالق على طريقته، شرط ألاّ تبدأ حرّيّته إلاّ حين تنتهي حرّيّة غيره. مجتمع لا يجد رجل الدين نفسه ملزمًا بغطاء سياسيّ من مراكز القوى، ولا السياسيّ محتاجًا لغطاء دينيّ. مجتمع استقرّت فيه أعراف وتقاليد لا يمكن تجاهلها أو حصرها في رجل الدين أو السياسة.

مجتمع يضمّ كلّ أجناس البشر يتعايشون بسلام متساوين بالحقوق والواجبات، ولا يؤخذ واحد بجريرة الآخر كما هي الحال في مجتمعاتنا، وأخصّ بالذكر مجتمعنا في لبنان الذي مع عراقته ونبل تاريخه، غدا مسرحًا للمحاسيب والأزلام. فلا هو آمن في واقعه، ولا مطمئن على مستقبله . ونحن المغتربين الشيعة– في هذا لا نختلف كثيرًا عن واقع حسين أوباما الذي قرّر الخروج من مجتمع يفرض قيودًا وضعيّة تحول دون تحقيق الذات الإنسانيّة في مجتمع يتساوى أفراده في الحقوق والواجبات.

إنّ اقتباسنا ما هو جدير بالحياة، وانتهاجه لا يعني بالضرورة نفينا لمعتقداتنا أو تخلينا عن مبادئنا التي كانت وما تزال لو اتّبعت، منهج هداية ودليل خير للبشريّة جمعاء. بقاؤنا في المجتمع الذي تركناه خوفًا من الجهل، وطلبًا للخير

والعلم هو الانتكاص على العقبين والسير عكس تيّار الحياة أو الركود في مستنقع الحياة الآسن، وفي كلا الحالين السير للخلف والتخلّف. وتمسّكنا بنعمة الحرّية والعلم هو السير للأمام ومجاراة الأخرين وربّما حيازة قصب السبق عليهم. ولنا في ما وصلنا إليه نحن المغتربين الشيعة في بلاد الاغتراب أو في ما قدّمناه للأهل حيث هم هناك البرهان الساطع والفعل الناجع والصيت الذائع.

-20-

في الطريق نحو الخلاص

أحاول في هذا الفصل أن أعرض بعض ما أراه ممكنًا للتخفيف من انتشار وباء الهجرة، الذي أصبح لبنانيًا بامتياز، فأصاب ملايين اللبنانيّين بعلّته، ولم يترك بيتًا أو قرية أو عائلة، إلاّ وخطف منها عزيزًا وغيّبه حيًا في عالم آخر.

كما أحاول أن أجعل هذه الظاهرة، أقلّ وطأة وإيلامًا على المغترب الشيعيّ موضوع كتابي بشكل خاصّ، ووضع حدّ لمسلسل العذاب الطويل الذي يصيبه ويلاحقه جيلاً بعد جيل، كي لا يقال بأنّي كسائر المنتقدين الذين يمعنون في نبش الصور القاتمة والمسيئة لمجتمعنا ووضع السلبيّات تحت المجهر، ورفع أصوات الاعتراض والمناكفة الكيديّة الاستفزازيّة، بغرض تأليب الرأي العام على رموزه وقادته ومبادئه، وإثارة العواصف المناهضة لهم بين جماهيرهم، والنفخ بنار الفتنة التي تحاول الجهات الخارجيّة وبعض الداخل إعادة ايقاظها واشعالها بين اللبنانيّين وطوائفهم ومذاهبهم، من غير أن يكون هناك طرح منطقيّ وتصوّر مبدئيّ عقلانيّ هادئ ورصين لسبل العلاج وآليته وأدواته، أو على الأقلّ "خارطة طريق" أوّليّة للخلاص من هذه المعضلة، على غرار ما هو سائد اليوم في عالمنا من رسم خرائط لطرق السلام أو الحرب.

كما أريد أن أوضح أيضًا، أنّ عرضي لما أراه من مقترحات وآراء للحلول، يُبنى قبل كلّ شيء على رؤيتي المتواضعة كإنسان طبيب متعلّم ومثقّف، لبنانيّ مسلم أعشق وطني وأفتخر بديني وطائفتي وانتمائي إلى قلعة من قلاع الجنوب الشيعيّ، أحبّ شعبي وأرضي وأبذل من أجل سلامتهما وأمنهما

ورقيّهما ما أستطيع، كي أساهم في ازاحة الغمّة الثقيلة التي تلفّ حياتنا منذ عشرات السنين، وأوقف النزيف الإنسانيّ المتمثّل في اقتلاع أغلى وأثمن ثروات الوطن وتصديرها للخارج، وأتيح لنفسي ولأبنائي ولأمثالي المتعطّشين إلى لحظات العودة الإمكانيّة والأمل في تحقيق هذا الحلم الكبير.

لا أنطلق في محاولتي من أيّة خلفيّة سياسيّة أو حزبيّة، ولا أستمدّ رؤيتي وتصوّراتي إلاّ من تجربتي الاغترابيّة الخاصّة ومشاهداتي ومعايشتي للحالات الاغترابيّة الأخرى، واشتغالي الطويل ومساهماتي المتعدّدة في مختلف النشاطات الاجتماعيّة والوطنيّة والثقافيّة، مع مؤسّسات وأبناء جاليتي كما مع الجاليات الأخرى، ومن استقلاليتيّ الكاملة التي تسمح لي أن أرى وأسمع وأتلمّس القضايا والشؤون وأحكم عليها بحرّيّة وشفافيّة وحياديّة، بعيدًا عن أيّة مؤثرات أو ضغوط أو أحكام مسبقة وأطر جاهزة. ولا أبتغي من ذلك إلاّ إرضاء الله سبحانه وتعالى وإرضاء رسوله وآل بيته الطاهرين عليهم جميعًا أفضل الصلاة، وإرضاء ضميري ووضع تجاربي وخبرتي وعلاقاتي في خدمة بلدي وأهلي.

أودّ بداية أن أشير إلى أنّ عرضي لما أراه من حلول، يتناول شقّين اثنين:

الأولّ: على المستوى الوطنيّ العام.

الثاني: على مستوى الطوائف، وتحديدًا طائفتي الشيعيّة، كي لا أتهمّ بالتدخّل في أمور الطوائف الأخرى من ناحية، ومن ناحية أخرى، لأنّ معضلة أيّ طائفة في لبنان، مع التقدير لبعض الخصوصيّات، تمثّل إلى حدّ بعيد معضلة بقيّة الطوائف الأخرى.

-21-

"مواطنون في وطن...وليس في طائفة"

أمّا على الصعيد الوطنيّ، فإنّني قبل أن أدخل في صلب عرض الحلول وتفصيلاتها، أودّ الاشارة إلى تقريرين اثنين، وقعا بين يديّ أثناء إعدادي لهذا الكتاب، يتعلّقان كما أعتقد بجوهر وأسس موضوع العلاج والحلول.

حول موضوع ترابط الهجرة والنموّ في لبنان، نشر تقرير موجز في تشرين الأول 2009، أورده كما هو، لنتبيّن منه حجم الخسائر الإنسانيّة التي تكبّدها لبنان من جرّاء هجرة بنيه وأدمغته وقواه المنتجة بسبب الحروب وانعدام الاستقرار، فضلاً عن الخسائر الاقتصاديّة الفادحة وانعكاساتها على نسب النموّ خلال السنوات من 1975 حتى 2009:

"في إحصاءات إستندت إلى مراجع، بينها استقصاءات للجامعة اللبنانيّة وأرقام المديريّة العامّة للأمن العام ومؤسسة L'HARMATTAN في باريس، أنّ عدد اللبنانيّين الذين غادروا لبنان اثناء الحروب من العام 1975 إلى العام 1990 بلغ حوالي 890 ألف شخص، يضاف إليهم الذين هاجروا منذ 1990 وحتّى نهاية العام 2009 حوالي المليوني شخص كما في الدراسة، (أي ما مجموعه حوالي 2.8 مليون شخص). وأنّ الهجرة الأكبر كانت في العام 1975 حيث بلغت 400 ألف شخص في عام واحد، والثانية الأكبر عام 1990 حيث بلغت 276 ألف شخص في عام واحد.

وتقول دراسة بهذا الشأن للخبير الاقتصاديّ بطرس لبكي إنّ من الواضح ترابط هذه الهجرة مع انهيار النموّ الاقتصاديّ الذي ظهر في لبنان بعد العام 1994 بسبب السياسات الماليّة والنقديّة والتجاريّة. التي انهارت في ظلّها نسب النمو الاقتصادي من 8% الى (صفر) في العام 2000، وتبعه حصول نموّ سلبيّ بنسبة ناقص 0.5% عام 2001 حيث ارتفع عدد المهاجرين من 56754 عام 1994 الى 276676 عام 1999، و259292 عام 2001. وتستند الدراسة في هذه المرحلة إلى إحصاءات وزارة المال وصندوق النقد الدوليّ ورئاسة مجلس الوزراء وتقارير المحاسبة الوطنيّة السنويّة والتقارير الصادرة عن جمعيّة مصارف لبنان وبنك بيبلوس وبنك لبنان والمهجر، وهي الإحصاءات التي استخدمها وقام بتحليلها الخبير لبكي (الذي يتولّى منصب نائب رئيس مجلس الإنماء والإعمار في لبنان)، ضمن دراسة شاملة له لـ "بحوث إقتصاديّة عربيّة" عن "الأزمة الاقتصاديّة وانعكاساتها على لبنان وكيفيّة معالجة تلك الانعكاسات"، وذلك بسبب عوامل عدّة أدّت في حينه إلى تراجع القطاعات الاقتصاديّة اللبنانيّة، لا سيّما الصناعة، حيث أقفلت أعداد كبيرة من المؤسّسات الخاصّة، خصوصًا فروع النسيج والغزل والملابس، والزراعة حيث تُركت 40% من الأراضي الصالحة للزراعة. وفي السياحة تدنّت نسبة تشغيل الفنادق وأقفل بعضها. وأنّ هذه القطاعات، كما في دراسة الدكتور لبكي، تضرّرت من غلاء التسليف وأسعار الطاقة وأسعار التخابر الهاتفيّ وغيرها من عناصر الكلفة. وأنّه منذ العام 2005 كان هناك لجم لمستوى الهجرة، رغم التباطؤ الاقتصاديّ في ذلك العام، إلاّ أنّ الهجرة عادت وارتفعت وتأثرها عام 2006 بشكل محدود بسبب حرب تموز، ونشأت هجرة معاكسة عام 2007 بسبب عودة قسم من المهاجرين.

ففي عام 2008 تزامن ازدياد الهجرة مع نموّ الناتج الوطنيّ حسب دراسة لبكي

المستندة إلى إحصاءات مصرف لبنان للسنوات 1995 – 2008 (التقرير السنويّ للقطاع الخارجيّ) والتقرير الاقتصاديّ العربيّ، "الاكونوميست انتلجنس يونيت" و"الحسابات الوطنيّة للبنان" الصادرة عن مجلس الوزراء، وتقارير بنك بيبلوس، مشيرة إلى ارتفاع تحويلات العاملين اللبنانيّين في الخارج من 1172 مليون دولار عام 1995 إلى 2916 مليون دولار عام 2004 إلى 3048 مليون دولار عام 2005 ثمّ إلى 5136 مليون دولار عام 2008 أي بنسبة ارتفاع أكثر من 400% خلال حوالي 12 عامًا." (وحسب تصريحات حاكم مصرف لبنان الدكتور رياض سلامة، فإنّ تحويلات المغتربين اللبنانيّين بلغت سبعة مليارات دولار لعام 2009).

في مراجعة بسيطة للأرقام التي وردت في هذا التقرير نقع على مؤشّرات خطيرة لمدى جسامة الجرائم التي ترتكبها الطبقات السياسيّة والحزبيّة الحاكمة والمتحكّمة بحقّ الوطن والشعب اللبنانيّ، وأبعاد المؤامرة التي تنفّذ على هذا الكيان، وفداحة الخسارة والنزف البشريّ والفكريّ والطاقات والقدرات التي خسرها ويخسرها الوطن من أبنائه وأجياله المستقبليّة، وبالتأكيد من بينهم قسم من أبناء الطائفة الشيعيّة، حيث بلغ عدد المهاجرين أكثر من نصف عدد سكّان لبنان خلال ثلاثين عامًا فقط، في الوقت الذي يتنامى فيه أعداد غير اللبنانيّين المقيمين على أرضه. ولو استمرّ تصاعد الظروف والأسباب الطاردة والدا فعة إلى ترك الوطن وتفريغ أهله وعقوله منه على هذه الوتيرة المفجعة، لأصبحنا بحاجة ماسّة لإطلاق ورشة بحث وتنقيب، واستنفار الأجهزة المحليّة والدوليّة للعثور على اللبنانيّين في لبنان، وبالتالي لإعادة صياغة وطن جديد على أرض لا شعب فيها ولا مواطنين ولسوف يتحوّل الوطن، خلال فترة زمنيّة محدودة، إلى أرض تحمل في باطنها رفات اللبنانيّين الذين يصرّون على دفنهم

في تراب الأرز والأجداد، بينما يدبّ على سطحها خليط من الشعوب القادمة للسياحة والاستثمار، وخدمة ما تبقى من الميسورين الجدد من الفلبينيّين والسريلانكيّين والأثيوبيين، وحياكة المؤامرات وصناعة الحروب.

والمؤشّر الآخر الذي لا يقلّ خطورة وكارثيّة، هو ما سبّبته الطغمة الحاكمة من ويلات على بنية الاقتصاد الوطنيّ اللبنانيّ وتدمير "قطاعاته الصناعيّة والزراعيّة والتجاريّة والسياحيّة"، كما جاء في التقرير، المنتجة والفاعلة والمشغّلة للكفاءات والأيدي العاملة، إمّا بسبب الصراعات والقتال والحروب، وإمّا بسبب إفلاسها وهرب أصحابها ومؤسّسيها وانضمامهم إلى قوافل المهاجرين، بحثًا عن مكان أكثر أمنًا واستقرارًا فضلاً عن استيلاء أصحاب النفوذ على مصادر الدخل الوطنيّ، وتعزيز مواقعهم ومؤسّساتهم ومصالحهم الذاتيّة والفئويّة على حساب البنية الوطنيّة . ما أدّى إلى تراجع نسب النموّ وتوقّف عجلة التنمية الشاملة في مختلف المستويات، وتذويب الطبقة الوسطى المحقّقة للتوازن الاجتماعيّ، وتحويل الشعب اللبنانيّ إلى أغلبيّة فقيرة معدمة محتاجة تعيش على فتات الخدمات التعليميّة والصحيّة والتنمويّة، وتقف على أبواب المسؤولين لطلب حاجاتها وحقوقها، أوعلى أبواب السفارات لطلب تأشيرات الهجرة والفرار من هذا الجحيم.

أمّا المؤشّر الأكثر سطوعًا، والذي يبرز الوجه الناصع والدور الهام للمغتربين اللبنانيّين في هذا التقرير، فهو الأرقام المذهلة التي وردت فيه والتي تبيّن بوضوح حجم الأموال والتحويلات والمساعدات المستمرّة في تصاعدها على مدى السنوات الطويلة حتّى بلغت حوالي سبعة مليارات دولار في عام 2009 فقط، والتي ضخّها للوطن هؤلاء المعذّبون، التائهون في العالم، المطرودون

قسرًا ورعبًا وقهرًا وظلمًا من قراهم، والمسلوخون من أحضان عائلاتهم وأرضهم، والمحتلّون في كلّ موسم رأس القائمة في أعداد الزائرين لوطنهم، الذين ينشّطون حركة الاقتصاد فيه، ويعيدون الدمّ إلى شرايين الحياة والأسواق والبناء والعمران وإغاثة الأهل والأقرباء . هؤلاء الذين كانت تدفّقاتهم الماليّة وما زالت وراء تغطية الجزء الأكبر من ميزان المدفوعات في الاقتصاد اللبنانيّ وإنقاذه من الانحدار بفعل النهب والسرقة والهدر والتشبيح والسطو على أموال الدولة والمواطنين. وهؤلاء هم الذين يتنكّر لهم الوطن والمسؤولون ويضعون أمامهم عوائق العودة وحواجزها، ويستبعدونهم وأولادهم عن أيّ مركز من مراكز مزارعهم الرسميّة ومقاطعاتهم المؤسّساتيّة التي تدرّ عليهم وعلى أسرهم وبطانتهم أنهر اللبن والعسل، لا بلّ الذين يمعن مسؤولو قوى الأمر الواقع على تهجيرهم وإبقائهم خارج لبنان بهدف إخلاء الساحة لهم ولأنصارهم وتنفيذ مخطّطاتهم داخل الوطن، وبهدف المحافظة في الوقت نفسه على تعزيز شلاّل التدفّقات الماليّة للمغتربين والحيلولة دون انقطاع "الحنفيّة" التي تمطر المليارات كلّ عام.

ولمزيد من تسليط الضوء على هذا الجانب، أورد بعضًا ممّا ورد في تقرير ثان نشر مؤخّرًا تعليقًا على رأي البنك الدوليّ في واقع الضمان الاجتماعيّ وسبل إصلاحه في لبنان.

يقول التقرير: "إن وجهة نظر البنك الدوليّ تنطلق في العمليّة الاصلاحيّة من معطيات أهمّها أنّ ضرورة تعزيز شبكة الحماية الاجتماعيّة في لبنان تزداد أهميّة وإلحاحًا، كون الاقتصاد اللبنانيّ "مؤهّلاً" للارتداد الى الخلف "Resilient" بسبب الأوضاع السياسيّة غير المستقرّة، واعتماده بديلاً عن

ضمانات حكوميّة في شبكة الأمان الاجتماعيّة، على نشاطات "خيريّة" ومساهمات غير منتظمة أو غير كافية من قبل قطاع خاصّ غير آمن بدوره وغير مستقرّ، إضافة إلى اعتماد ميزان المدفوعات اللبنانيّ بشكل رئيسيّ على تحويلات المغتربين، وهذه على أهميتها، لا تؤسس لدور ثابت ومتين للدولة، فضلاً عن أنّ هناك أكثر من 60 بالمائة من القوى العاملة في لبنان غير مشمولة بالضمان الاجتماعيّ رغم أنّ الضمان يغطّي نسبة عالية تصل إلى مليون و200 الف مستفيد من تقديماته.

واعتبرت المصادر أنّه مقابل العرض الاصلاحيّ الذي تقدّم به البنك الدوليّ، لم يكن هناك بالمقابل أيّ مقترحات بديلة عمّا تضمّنه تقرير البنك، كما أنّه ليس هناك معطيات أو أسباب أو ملاحظات أساسيّة قدّمتها الجهات المعارضة للعرض المقدّم من البنك الدوليّ."

أمام التقرير الثاني، الذي بنى عليه خبراء البنك الدوليّ رأيهم في الصعوبات التي تعترض عمليّة الاصلاح في الضمان الاجتماعيّ، أهمّ مؤسسة رسميّة لتوفير الأمن الاجتماعيّ للأفراد والأسر، تستوقفنا الخلاصات التالية:

لأنّ الاقتصاد اللبنانيّ هشّ ومتخلخل الأركان، ومؤهّل للمزيد من التراجع والتردّي، بسبب الأوضاع السياسيّة غير المستقرّة، فإنّ شبكة "الحماية الاجتماعيّة" أصبحت مهدّدة وتستوجب التعزيز لأنّها تقوم على قواعد واهية غير ثابتة أهمّها، في ما يعنينا:

-إعتماد "النشاطات الخيريّة" من أجل تعزيز وتغنية شبكة الأمان، بدلاً من الضمانات الحكوميّة المفقودة.

-إعتماد ميزان المدفوعات، بشكل رئيس، من أجل تعويضه وسدّ عجزه، على تحويلات المغتربين.

-غياب أيّ ردّ أو مقترحات بديلة للعروض الإصلاحيّة المقدّمة من أعلى جهة دوليّة للدعم والاشراف والاقراض، للجهات المسؤولة القائمة على رأس المؤسسات.

إنّ أخطر ما يتضمنه تقرير البنك الدوليّ هو الاشارة إلى اختلال شبكة الأمان أو الحماية الاجتماعيّة في الدولة اللبنانيّة. بمعنى آخر كشف الغطاء فوق رؤوس اللبنانيّين أمام غوائل المرض والبطالة والعجز وفقدان مصدر الرزق. وهذا يعني بالطبع أنّ الدولة بمؤسّساتها ومسؤوليها ومواردها وضرائبها المدفوعة من دمّ الشعب، تتخلّى عن أهمّ وأخطر مهمّاتها التي وجدت من أجلها الكيانات والأنظمة والقوانين وحتّى الأديان، وهي توفير الأمن النفسيّ والاجتماعيّ والماديّ للمواطن، أيّ أبسط حقوقه الأساسيّة في العيش الكريم كإنسان في المجتمع. وبمعنى أوضح وأوسع، منح المواطن الشعور بأنّه يعيش آمنًا داخل دولة صديقة يعنيها وجوده لخلق روح الانتماء الوطنيّ عنده، وليس داخل دولة عدوّة، تقتنص تعبه وتسرق شبابه وترتزق على حسابه وتحرمه طعم الأمن والسلام، وتخلق منه فردًا عدائيًا لها، إن لم يقدر على مواجهتها، فإنّه يطلب النجاة والاحتماء بطائفته ومرجعيّاته وقياداته ظالمة كانت أو عادلة، أو بالإغتراب نحو من يلبّي حاجاته المفقودة. من هنا يمكننا أن نفهم من خلال الأرقام الواردة في التقرير الأوّل عن كثافة أعداد المهاجرين، ومن خلال التحليل العلميّ والحيثيّات المنطقيّة الواردة في تقرير البنك الدوليّ، الدوافع الناشطة والمتناسلة لتهجير الناس من دولتهم ووطنهم.

والأمر الأخطر في هذا المجال، أنّ الدولة تخلّت أيضًا عن توفير ضماناتها الرسميّة لتفعيل اقتصاد وطنيّ حيّ يدعم ثبات وصلابة شبكة الأمان الاجتماعيّ ولجأت إلى "النشاطات الخيريّة"، وكأنها تعرض نفسها للعالم بأنّها دولة فاسدة ومتخلّفة وعاجزة ومعوّقة وغير قادرة على الانتاج. وبالتّالي أتاحت لأيّة جهة ممكنة، أن تتولّى عنها إنشاء المدارس والجامعات والمستشفيات والمصحّات ودور الرعاية وربّما خدمات أساسيّة أخرى كالأمن وللبريد والهاتف والكهرباء والماء والزراعة وما إلى ذلك. والخطورة الكبرى هنا، هي أنّ هذ البدائل ليست خصخصة بالمفهوم الاقتصاديّ التقنيّ المعروف، لكنها ريعيّة بمفهوم عمل الخير والمساعدات والتقديمات والهبات، وبالتّالي، فقد وجد اللبنانيّ نفسه أمام المعادلة الشرطيّة التي تؤكّد أنّ من يتولّ أمنك ونعمتك يتولّ زمام أمرك، ومن يؤمّن لك الدواء والكتاب والعمل يملك مصيرك وقرارك، وهكذا تكون الدولة قد باعت شعبها ومناطقها وقراها ومدنها، وأمنها وحرّيّتها وسيادتها إلى جهات متعدّدة، ما أنهى الانتماء الوطنيّ مقابل تعزيز الانتماء الطائفيّ والمذهبيّ والمناطقيّ والطبقيّ، فانعدمت بذلك إمكانيّة نهوض المجتمع المدنيّ وتكرّست قوّة وزعامة رموز المناطق والطوائف مقابل انهيار قوّة الدولة. أليس هذا هو واقع الحال في لبناننا العظيم؟...

أمّا المؤشّر الآخر الذي يتقاطع عنده التقريران، فهو المتعلّق بأموال المغتربين، ففي حين حدّد الأول حجم هذه الأموال المتدفقة وتواصلها على مدى سنوات، جاء الثاني ليؤكّد أنّ تحويلات المغتربين هي المعيل الأساسيّ لميزان المدفوعات كما أشرنا سابقًا. وهذا يعني بالطبع أنّ هناك خطّة مبيّتة متّفقًا عليها بصمت، بين مختلف الطبقات الحاكمة والمسيطرة، التي تعمل أجهزتها في الخفاء وتحت الستار، من أجل الإمعان في ممارسة سياسة القهر والقمع

والتجويع والإذلال على المواطن، وتشجيع أزلامها وأتباعها على الانغماس أكثر فأكثر في طرق الفساد والرشاوى والاحتيال ونهب مال الدولة ومداخيلها، بغرض تحقيق جملة من المآرب دفعة واحدة، وإصابة عدّة عصافير بحجر واحد، وهي: تركيز السلطة والقدرات خارج نطاق الدولة، تشريع الأبواب أمام النشاطات الخيريّة، خلق الاستعداد لقبول شبكة أمان خارجيّة، وتهجير الناس وإغلاق الأبواب في وجوه عودتهم لضمان تدفّق تحويلاتهم الماليّة. ولا يمكننا تقديم تفسير آخر لهذه الحالة طالما بقيت الجهات المفترضة أنّها مسؤولة عن الاصلاح، تضرب بعرض الحائط كلّ المحاولات والمقترحات المقدّمة إليها في هذا الشأن على ما جاء في النقطة الأخيرة من التعليق على تقرير البنك الدوليّ. ومن مهازل القدر في لبنان، أنّ ما ورد نصًّا في موضوع الترابط بين أموال المغتربين وميزان المدفوعات في أيّامنا هذه (2009)، ورد أيضًا بالنصّ نفسه في أربعينيّات القرن الماضي، أي قبل لأكثر من نصف قرن من للزمان، عندما حاولت لجنة خبراء بلجيكيّة أن تفتّش عن المصدر الأساسيّ للأموال التي تغطّي العجز في ميزان الدولة اللبنانيّة، فلم تعثر آنذاك إلا على هذا الكنز الفوّار المعروف بتحويلات المغتربين الماليّة.

من هذين العاملين، الأمن الاجتماعيّ، وأموال المغتربين، أودّ أن أدخل لأستلهم اقتراحاتي في مسألة المعاناة عند المغترب الشيعيّ تحديدًا.

أوّل ما يستدعيني هو العودة قليلاً بالذاكرة، إلى أنظمة شبكة الحمايات المستوردة عبر التاريخ اللبنانيّ لتكون بديلاً عن شبكة الدولة، والمعروفة تاريخيًا "بالأيدي الأجنبيّة" النافذة في لبنان والتي احتمت بها الطوائف والملل وجعلتها سقوفًا لأمانها السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، لكنّها مع الأسف،

بقيت سقوفًا مستعارة، لم تتمكّن من الوصول إلى غاياتها القصوى في التفتيت والتقسيم والإلغاء على مستوى الكيان الوطنيّ، ولا إلى الاستمرار في منح تقديماتها وامتيازاتها وغطائها للجهات المرتبطة معها، لأنّها قامت أساسًا على قاعدة مصالح أصحابها وأطماعهم.

ولكي لا أعود بعيدًا في التاريخ، أكتفي بالتذكير بشبكة الحماية، التي أقامها الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني (1572 – 1635م)، في عهد الأمراء المعنيّين، بالاتفاق مع أمير توسكانا في إيطاليا بهدف التفرّد والانفصال عن السلطنة العثمانيّة، على غرارما تكرّر في عهد الامارة الشهابيّة، مع الأمير بشير الشهابيّ، الذي وطّد شبكة تحالفاته هو أيضًا مع والي مصر محمد علي باشا لمواجهة السلطة العثمانيّة نفسها. ثمّ إرتباط كلّ من طائفتي الدروز والموارنة، أثناء الحوادث والمجازر التي وقعت بينهما (1840 – 1860)، مع الإنكليز والفرنسيّين، ما أنتج تحوّل جبل لبنان إلى نظام المتصرّفيّة، ثم الاعتماد على الغطاء الفرنسيّ في إعلان دولة لبنان الكبير (1920) وتسليم زمامه إلى نظام الحماية والرعاية الفرنسيّة التي أعلنت بلسان "روبير كولوندر"، رئيس البعثة السياسيّة الفرنسيّة في بيروت، غداة انتهاء الحرب العالميّة الأولى، "أن مجيئها إلى لبنان هو لحماية أصدقائها الموارنة وضمان مصالحهم" (راجع: طوائف لبنان...والمشي فوق الألغام. د. نهى قاطرجي)، ومن ثمّ الانتقال إلى نظام الحماية الناصريّة المصريّة إبّان أحداث 1958، وإلى نظام الحمايات الفلسطينيّة والاسرائيليّة والأميركيّة والعربيّة والسوريّة، التي لجأت إليها مختلف الطوائف في لبنان، منذ اندلاع الحرب الأهليّة وخلالها وما بعدها (1975 – 1990)، وصولاً إلى شبكات حماية مشتركة ومتعدّدة الأطراف والجهات منذ الزلزال الذي ضرب لبنان إثر اغتيال الرئيس الشهيد رفيق

الحريري (2005)، والانقسام العاموديّ والنفسيّ والوطنيّ الحادّ الذي فصل المواطنين بين شارعين متصارعين حتّى العظم، ومتناقضين حتّى العظم، متوزّعين بين فريقي 8 و 14 آذار السياسيّين، كلّ منهما يلتحف بغطاء خارجيّ خاصّ يمتدّ من أميركا إلى إيران مرورًا بسوريا ومصر والمملكة العربيّة السعوديّة، وما رافق ذلك من أزمات وصراعات وحوادث سياسيّة وأمنيّة ودستوريّة وحكوميّة، إضافة إلى الحرب التدميريّة على لبنان(2006). وما يزال العرض مستمرًّا حتّى تاريخ كتابة هذه السطور.

إنّ المتمعّن في تاريخ لبنان، منذ الحكم العثمانيّ حتّى اليوم، يمكنه أن يكتشف ببساطة أنّ هذا البلد يجمع بين أكبر متناقضين عرفتهما البشريّة في تاريخها القديم والحديث، أولهما أنّ لبنان يقدّم نفسه دائمًا لمحيطه الاقليميّ والعربيّ وللعالم أجمع، بتميّزه عن جيرانه، وبأنّه البلد الوحيد في منطقة الشرق الأوسط، وربّما هو واحد من بين البلاد القليلة في العالم، الذي يتباهى بتنوّعه الطائفيّ والمذهبيّ والعرقيّ، الذي منحه غنىً ثقافيًا وحضاريًا مشرقًا، وانفتاحًا مذهلاً على ثقافات العالم، وكمًّا من الحرّيات والديموقراطيّة، ما جعل منه سويسرا الشرق ورئة العرب ومحطّ أنظار العالم، في الوقت الذي كان هذا التنوّع نفسه وراء أكثر مصائبه كارثيّة في تاريخه، وسببًا رئيسًا لكلّ ما تعرّض له من ويلات وصراعات وحروب، وذريعة دائمة لنفاذ الأيدي الأجنبيّة المتسلّلة للتدخّل في شؤونه تحت مسميّات الحماية والرعاية والوصاية والحفاظ على الطوائف.

علّتان اثنتان متلازمتان كالقضاء والقدر، تفتكان في روح هذا البلد وجسده، وهما الطائفيّة السياسيّة والتدخّلات الأجنبيّة.

وعلى الرّغم من توصّل زعماء السياسة والحرب في لبنان، إلى وضع الإصبع على الجرح النازف في مؤتمر الطائف (1989)، وإقرارهم إلغاء الطائفيّة السياسيّة، وإدراج هذا القرار بندًا في الدستور اللبنانيّ الجديد، في محاولة للقبض على رأس الأفعى التي تسمّم الكيان وتهدّد حياته، وتقضي على أي أمل في قيام دولة المواطنيّة والقانون والمؤسّسات، إلاّ أنّه وبعد مرور أكثر من عشرين عامًا على هذا الاتفاق، فما تزال القوى الفاعلة والممانعة والمتحكّمة على الأرض، تقف سدًّا منيعًا في وجه تطبيق هذا القرار، وبالتالي فإنّ كلّ التداعيات التي يمكن أن تنشأ بسبب تجذُّر الطائفيّة وترسُّخها وتغلغلها في الحياة السياسيّة من إحتقانات وعداوات وكراهيات وتشنّجات بين أبناء الوطن، إضافة إلى فتح أبواب التدخّلات الخارجيّة على مصراعيها، تبقى واردة الحصول بمختلف أحجامها وأشكالها الصغيرة والكبيرة والخطيرة.

من هنا أريد أن أؤكد ما جاء على لسان العقلاء والحكماء من رجالات الوطن، وما نادوا به منذ سنوات، بضرورة الانتهاء من هذه الآفة المستحكمة التي تدعى الطائفيّة السياسيّة، وتكثيف الجهود للقضاء عليها، واجتراح الوسائل الكفيلة للتخلّص من هذا المرض التاريخيّ القاتل، والذي يعتبر سببًا لكل مآسينا وحروبنا ولكلّ ما يرتكب من فساد وظلم وتجاوزات وتعطيل للتنمية واستغلال السياسيّين ومخالفاتهم.

ولن أطيل في هذا الجانب لأنّ معركة الاصلاح السياسيّ والاداريّ والاجتماعيّ والتعليميّ والاقتصاديّ، تتعلق كلّها بهذا الجانب الأساسيّ الذي يعرف بالطائفيّة السياسيّة. والتي بزوالها يمكن أن نتأملّ في تأمين الاستقرار السياسيّ للبدء في إعادة البناء والتخفيف من الضائقة الماليّة والاقتصاديّة وتحقيق

التنمية الشاملة والمستدامة وتدعيم أسس المجتمع المدنيّ وتقليص أسباب الهجرة ووقف النزف البشريّ من الوطن ودفع حركة الاصلاح ومكافحة الفساد والاقلاع بالادارة النظيفة والحديثة.

ويجدر أن نذكّر في هذا المجال بما قاله الامام الكبير موسى الصدر، قبل ما يزيد على عشر سنوات من إقرار دستور الطائف، حيث استطاع برؤيته وفكره واعتداله وصفاء استشرافه للمستقبل، أن يحدّد موضع العلّة اللبنانيّة وأسبابها، فأطلق دعوته للالتقاء في رحاب الوطن وليس في حضن الطائفة: "عندما نلتقي في الله تكون الأديان واحدة. وهدف الإنسان هو الطريق إلى الله...وإنّ التغيير المنشود في لبنان يجب أن يكون وطنيًا لا طائفيًا، والهدف يجب أن يكون واضحًا أمامنا وهو وحدة الشعب"، مشدّدًا على أن "تكون مواطنين في وطن وليس مواطنين في طائفة."

-22-

تعلّمت من الحسين كيف أن أكون مظلومًا فانتصر

المهاتما غاندي محرّر الهند

إنطلاقًا من معضلة الطائفيّة السياسيّة التي تمثّل السرطان الذي ينهش في جسم الوطن اللبنانيّ، ومن مسألة شبكة الأمان الاجتماعيّ والحماية المستوردة من خارج الحدود بهدف تغطية الطوائف وتقويتها على بعضها، أودّ أن أدخل إلى طبيعة المسألة الشيعيّة في لبنان نظرًا لارتباطها الوثيق بهذين الجانبين.

لم يعد سرًا، أنّ "حزب الله"، ومنذ ما قبل تاريخ التحرير عام 2000، إحتكر حركة المقاومة ضدّ إسرائيل وحوّلها إلى حركة "مقاومة إسلاميّة شيعيّة"، وأخذ زمام الأمور على كاهله ليتحمّل الشيعة عبء تحرير الأرض ويقدّموا شبابهم قرابين للوطن. وأضحت المقاومة مقتصرة على أبناء الطائفة الشيعيّة فقط وبعد انتصار عام 2000 أصبحت سيطرة الحزب مطلقة على مناطق الجنوب والضاحية الجنوبيّة من بيروت وبعض مناطق البقاع الشيعيّة.

وبعد انخراط "حزب الله" في الحياة السياسيّة اللبنانيّة ودخول ممثّليه إلى مجلسي النواب والوزراء، إستكمل وحركة أمل تثبيت الهيمنة التامّة على الصوت الشيعيّ والرأي الشيعيّ، وفرض خطابه وثقافته وتوجّهاته وخططه على الشارع الشيعيّ. والحقّ يقال إنّ الطائفة الشيعية أعلنت ولاءها شبه الكامل كما أظهرت استعدادها الدائم لتقديم الغالي والنفيس لتحقيق شعارات الحزب ودعواته في المجالات العسكريّة والسياسيّة والاجتماعيّة.

ولم يعد سرًا أيضًا، إرتباط "حزب الله" عقيديًا بنظريّة ولاية الفقيه الإيرانيّة، واعتماده الكليّ في نشر شبكة أمان وحماية إجتماعيّة وعسكريّة، وإيديولوجيّة عقائديّة هذه المرّة، على إيران وسوريا بشكل أساسيّ، وتحوّله، إلى حدّ كبير، المدافع عن مصالح هاتين الدولتين وتبنّي سياستيهما ليس في لبنان فحسب بل أمام العالمين العربيّ والغربيّ، كما تحوّل الوطن باكمله إلى مجمّعات مذهبيّة تعجّ بالمرسلين و"المبعوثين" الدينيّين المقيمن والمتناوبين، للاشراف على مهمّات التنظيم والاعداد، كما لمتابعة إنشاء وتوسيع شبكة الحماية عن طريق المؤسّسات "الخيريّة"، التربويّة والصحيّة والرعائيّة الأخرى.

وهنا يمكن لأيّ مراقب أن يلمس التشابه الكبير بين هذا الواقع وبين التنظيمات الفلسطينيّة في السبعينيّات، التي ما أن اطمأنّت إلى استيعاب التأييد الوطنيّ والسنيّ بشكل خاصّ، واستكملت تعبئتها العسكريّة عدّة وعديدًا، حتّى راحت تفرض سيطرتها وهيمنتها على الشارع والمواطنين، ما حدا بزعيمها المرحوم ياسر عرفات، أن يعلن على الملأ بأنّه "حكم لبنان". دون أن تحسّن، هذه القوّة وهذه الهيمنة، من وضع الفلسطينيّين ولو بإحداث بنية تحتيّة في حدّها الأدنى، لمياه الصرف الصحيّ، من أجل تأمين الحماية الصحيّة لسكان المخيّمات من الأمراض، علمًا بأنّ أمرًا كهذا، كان ممكنًا إنجازه في أسبوع واحد آنذاك، وبوسائل بدائيّة كالمعول والمجرفة لو طلب عرفات ذلك من أنصاره.

وهذا الأمر يعيد نفسه بشكل كالح في ضاحية بيروت الجنوبيّة، حيث إنّ مياه الآبار التي يستعملها أهلنا في أحيان كثيره، ملوّثة بمياه الصرف الصحيّ، بينما لا تبعد مياه بيروت سوى أمتار عدّة، ما يلزم الناس على دفع ثمن المياه مرّتين على الأقلّ، مرّة لمياه الاستعمال المنزليّ وأخرى لمياه الشرب والطبخ.

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوّة في هذا الاطار، هو لماذا لم تتمّ أيّة مبادرة إنسانيّة كهذه؟ ولماذا لم يحصل أيّ أمر تنمويّ مماثل على مدى كلّ هذه السنوات؟

ألم يفكر جهابذة الحوار في الطائفة الكريمة والذين يبرمون الإتفاقات الرباعيّة وورقات التفاهم، أن يطالبوا مقابل آلاف الأصوات المبعوثة إلى صناديق الاقتراع، محمّلة بالحكم الشرعيّ، بـ"ماسورة" مياه تصل بين مياه مدينة بيروت ومياه ضاحية الإهمال والمرارة والصبر؟ أم أنّ الضاحية ليست جزءًا من بيروت؟

إنّها المعادله التي أرسيت قواعدها إبّان حرب تموز، حيث هُدّدَ العدوّ بمهاجمة تل أبيب إذا ما هاجم بيروت، وكانت الضاحية أنذاك شبه مدمرة تمامًا. ونكرّر السؤال نفسه، ألم تكن الضاحية حينها هي ضاحية بيروت الجنوبيّة؟

بالله عليكم أن تخبرونا ماذا أخذتم مقابل أصوات أهلنا؟ سوف تقولون دعم المقاومة، وأنا أقول إنّ دعم المقاومة يتجسّد فعلاً عندما ترسل كلّ الطوائف اللبنانيّة أبناءها للدفاع عن الوطن، وإنّه لمن الإجحاف أن نزجّ بطائفة واحدة في أتّون الحرب وأن تبقى حياتها أسيرة لحالة الحرب التي لا نعرف لها نهاية.

أنا أعلم أنّ الردّ سيكون بأنّ مثل هذه الخدمات هي من مسؤوليّة الدولة اللبنانيّة. صحيح ذلك جدًّا، ولكنّ الطائفة الشيعيّة تحتلّ الكرسيّ الثانية في سلطة الدولة، وهي أكبر طائفة في لبنان، ولديها ممثّلون في السلطتين التشريعيّة والتنفيذيّة، ومن الواجب ألاّ نستجدي من أحد، بل أن نرفع الصوت لنتساوى بالآخرين، ولا نتلطّى وراء الثرثارين والفاشلين من الطوائف الأخرى.

لماذا لا يرفع سياسيّونا الصوت والمطالبات وممارسة الضغوط لتوفير هذه الحاجات الحياتيّة الأساسيّة، وقد منحناهم ثقتنا كما لم تمنح أيّة طائفة أخرى، وولّيناهم أمرنا منذ أمد بعيد.

بدأ "حزب الله"، باسم المقاومة وتحرير الأرض، باحتكار حماية الوطن كلّه من الاعتداءات الإسرائيليّة (مهمّات الجيش الوطنيّ)، وتبنيّ استراتيجيّة تحرير ما تبقّى من الأراضي اللبنانيّة المحتلّة، وإقامة الاحتفالات تحت شعار "يا قدس إنّا قادمون" (المهمّه المنوطة بالجيوش العربيّة) الغارقة في سبات عميق، والمتربّعة في ثكناتها تأكل وتشرب وتنتج الدكتاتور وتقدّم له الحماية ويقدّم لها الامتيازات. فهل من باب الصدفة أن يكون أغلب زعماء العالم العربيّ من ذوي الرتب العسكريّة؟ كما أنّ ذلك هو من المهمّات المنوطة (بالأمم المتحدّة والدول العربيّة وجامعتها وقرارات قممها.

أصبح الشيعة في حالة حرب دائمة مفتوحة، وعمّ الشعور بأنّها مستهدفة من العدوّ أكثر من الفلسطينيّين أنفسهم. وتحوّل المجتمع الشيعيّ في كلّ مناطقه، وهذه نتيجة حتميّة، إلى مجتمع أمنيّ، حيث شكّل موضوع الأمن (أمن المقاومة، وأمن الشخصيّات والقيادات، وأمن المواقع والأجهزة العسكريّة، وأمن المراكز والمؤسّسات الحزبيّة...) هاجسًا أرخى بظلاله الضاغطة على الشيعة كمجتمع وعائلات وأفراد، يعيشون في ساحة المعركة وبين المقاومين. فسادت حالة من الشك والظنون والريبة القاتلة تحكّمت في طبيعة العلاقة بين "الحزب" من جهة وبين عامّة الناس من جهة أخرى، خصوصًا مع أيّ غريب أو مغترب يدخل حدود هذا المجتمع.

وأضحى الناس يعتقدون أنّ هناك رسائل موجّهة من "حزب الله"، إلى جميع أبناء ومؤسّسات الوطن ، بأنّ أمن الحزب فوق كلّ اعتبار، وأنّه بات، حتّى على المؤسّسة العسكريّة اللبنانيّة، أن تنسّق مسبقًا مع قيادة الحزب، قبل الشروع في أيّ نشاط .

إن المعضلة الكبرى في هذا الجانب، هو عدم وجود أفق أو حدود زمنيّة أو موضوعيّة لانتهاء هذا الوضع الضاغط والخطير، لأنّ "حزب الله"، وكما يعتقد الكثيرون (بناء على خطابه وتأكيداته)، أعلنها حربًا على إسرائيل، وإسرائيل بقدرة القوى التي خلقتها وأوجدتها وحمتها، وبمباركة عربيّة شبه كاملة، باقية إلى أجل غير مسمّى، على احتلالها وتهديداتها واستفزازاتها للبنان وفلسطين. والشيعة طبعًا عالقون في عنق الزجاجة الحربيّة والأمنيّة.

أضف إلى ذلك، الانعكاسات الخطيرة لهذا الوضع على حياة الشيعيّ في الخارج وتعرّضه شخصيًا إلى جانب المؤسّسات الإسلاميّة التابعة للطائفة، لمضايقات وصعوبات وإجراءات. أمّا في الداخل، فبعد أن تسلّم زمام الأمور أشخاص ليسوا من أهل الاختصاص في أكثر الأحيان، وفي أحيان أخرى قدّموا مصلحتهم الشخصيّة والعائليّة على مصالح المجتمع الحاضن والصادق والصابر، ما خلق نوعًا من النفور والخوف من ظهور دكتاتوريّة حزبيّة، تلقي بغيمة سوداء، تخفي تحتها العقول العلميّة وتشلّ حركة الطاقات الواعده بإنقاذ المجتمع الشيعيّ من براثن الجهل والفقر والتخلّف.

نعم، التخلّف في القرن الواحد والعشرين، هو ألا تجد ما تفعله بأموال جمعتها بشقّ النفس، سوى أن تبني بيتًا، مع أنّ الدراسات تقول إنّ أفضل ما يقوم به الإنسان أولاً هو إيجاد مصدر للرزق يؤمّن من خلاله عملاً له وللآخرين،

وشبكة حماية للعائلة تبعدها عن الحاجة التي هي الطريق الأقصر لكثير من الموبقات، كما أنك تستطيع بما تكسبه من هذا العمل أن تبني بيوتًا لك ولغيرك من أهلك.

هذه صورة مختصرة عن واقع المجتمع الشيعيّ في لبنان هذه الأيّام، والذي أسفر عن أخذ جزء كبير من الشيعة اللبنانيّين ووضعهم في جانب، وجعلهم في مواجهة مع العالم، وحتّى مع بعض الشيعة الذين لا يتبنّون نظريّات وطروحات وخطط الاحزاب الفاعلة، كما عرض نمونجًا لـ"التأديب" و"التطويع" و"التقريع" ضربًا وحرقًا وتحطيمًا لمن تراوده نفسه الترشّح للانتخابات النيابيّة من غير موافقة ومباركة تلك الأحزاب. وهل غير الشيعة في لبنان اليوم يعيشون مثل هذا الواقع الأليم والمحزن، ويتحمّلون ظلمًا وعدوانًا، ويدفعون ثمن هذه الحالة في بلادهم ومغترباتهم والعالم أجمع؟...

-23-

الشّيعة الطّائفة المُستَهلَكَة والمُستَهلِكَة

لقد بقينا حتّى كتابة هذه السطور الفئة المستهلِكة التي تضخ أموالها في جيوب الجشعين المستغلّين، وتحت أيّ ظرف دون حياء أو خجل. وعلى سبيل المثال، ولكي لا نبقى في العموميّات:

بعد حرب 2006 والدمار الهائل الذي أصاب المناطق الشيعيّة، قامت شركات إنتاج الترابة، المادة الأساسيّة للبناء، برفع الثمن بنسبة 8 بالمئة، دون الاكتراث بالدماء التي لم تجفّ بعد، ودون التطلّع إلى المأساة. ونحن نعلم أنّ عوائد هذه الشركات تصبّ في جيوب السياسيّين الذين كانوا يظهرون الودّ أو الخصام للشيعة في تلك الساعات العصيبة. وهنا أتساءل أين هي زعامات الشيعة؟ وأين هم رجال الدين؟ ولماذا لم يقوموا بفرض نفوذهم؟ وإلغاء ذلك القرار الجائر بمنع الاستيراد الذي يصبّ في مصلحة أناس فاقدي الأخلاق والحسّ الوطنيّ ليتحكّموا بالسوق؟ في الوقت الذي تمكّنوا فيه من إلغاء قرارات أو الحؤول دون تنفيذها، كانت أخطر وأكبر وأشدّ أهميّة من ذلك؟ وقبل ذلك، سؤال آخر أيضا، وهو لماذا لم يقم الشيعة، حتّى اليوم، بإفساح المجال أمام المستثمرين من أبناء الطائفة لإنشاء معمل لإنتاج الإسمنت؟ ألم يعمل المرحوم كمال جنبلاط، المستحيل للحصول على التراخيص اللازمة لمعمل سبلين؟ وأكثر من هذا أيضًا، فهل يقدّر أيّ من المسؤولين وأصحاب القرار والنفوذ الأثر الإيجابيّ الطيّب لإلغاء مثل هذا القرار الجائر وانعكاسه على مصالح الناس وحياتهم، أم أن ذلك من آخر هموم المسؤول واهتمامه؟

وهنا أريد أن أنقل ما ورد في جريدة الأخبار اللبنانيّة بتاريخ 8 كانون الأول 2009، تحت عنوان "كارتيل الذهب الأسود يحافظ على دجاجته التي تبيض ذهبًا".

"تسيطر ثلاث شركات على صناعة الترابة أو الإسمنت في لبنان، وتتقاسم السوق محدّدة مستويات الأسعار، بما يمثّل "كارتيل" يتحكّم بسعر المبيع في السوق المحليّة، من دون أيّ منافسة، علماً بأنّ هذه الشركات بحمايات سياسيّة، نظرًا إلى وجود تداخل بين ملكيّتها وأصحاب النفوذ في السلطة.

في عام 1993 منعت الحكومة استيراد الإسمنت من الأسواق الخارجيّة، بذريعة حماية استثمارات مصانع الإسمنت في لبنان لزيادة قدراتها الإنتاجيّة، إلا أنّ التجربة أوصلت إلى تحكّم هذه القلّة بالسوق ومستويات الأسعار فيها، إذ بدأ مسلسل زيادة سعر طن الإسمنت زيادة متكرّرة ومن دون أيّ أسباب مقنعة

وعلى أثر حرب تموز 2006 والتدمير الذي أصاب الضاحية الجنوبيّة والجنوب، وما تلاها من حرب وتدمير في مخيّم نهر البارد، بدأت الشركات المحتكرة ترى في إعادة الإعمار فرصة لتحقيق الأرباح في ظلّ منع استيراد الإسمنت، فطالبت بزيادة السعر وتمكّنت من انتزاع 8 دولارات للطنّ الواحد، وبلغ السعر في نهاية 2006 نحو 71.4 دولارًا، بحسب مؤشر نقابة المقاولين، لكنّه لم يتوقّف عن الزيادة، فقد ارتفع في مطلع عام 2008 إلى 82.5 دولارًا، ثم بلغ في نهاية 2008 نحو 96.8 دولارًا، ولا يزال السعر مستقرًا عند هذا المستوى حتّى اليوم، على الرّغم من تراجعه في الأسواق العالميّة والإقليميّة بوتيرة دراماتيكيّة.

وترافق هذا الأمر مع زيادة القدرة الإنتاجيّة لـ"كاريتيل"، فقد بلغت القدرة الإنتاجيّة الإجماليّة في نهاية عام 2008 نحو 5.5 ملايين طنّ، يستهلك منه في لبنان نحو 4.25 ملايين طنّ، فيما بلغ حجم الصادرات 1.256 مليون طنّ، بحسب إحصاءات الجمارك اللبنانيّة.

يثار بين المقاولين والمتعهّدين السؤال الآتي: لماذا لا تزال السوق مغلقة أمام الاستيراد في ظل الاحتكار الذي تمارسه الشركات والتحكم بالأسعار، علمًا بأنّ الاكتفاء الذاتيّ في السوق محقّق وأنّ الشركات باتت تصدّر إلى أسواق جديدة مثل سوريا والعراق؟

يجيب بعض هؤلاء بأنّ سعر طنّ الترابة يبلغ اليوم في تركيا 55 دولارًا (على أرض المصنع)، ويبلغ سعره على ظهر الباخرة (أي مع كلفة النقل والرسوم وغيرها) 62 دولارًا، فيما سعر طنّ للترابة السوداء المستوردة لمصر يبلغ 80 دولارًا... وبالتالي فإنّ الأسعار في لبنان أعلى بأكثر من 15 دولارًا للطنّ الواحد ويصل إلى 34 دولارًا، أي إن فتح باب الاستيراد في هذه الحالة ستكون له تأثيرات كبيرة على سوق المقاولات والإنشاءات التي يموّلها القطاع الخاصّ أو الدولة أو أيّ جهات أخرى."

لقد أظهرت الأيام الأخيرة أنّ الشيعة لديهم من الأموال ما يكفي لإقامه المشاريع، حيث استطاع معرّف في إحدى حملات الحجّ، دون أيّ خبره صناعيّة ولا تجاريّة، أن يجمع مئات الملايين بعد أن دثّر نفسه بعباءة الموثوقين.

لقد كان باستطاعه رجل أعمال خبير ومجرّب أن يقيم بهذه الأموال عشرات المصانع التي تحقّق أرباحًا طائلة وتؤمّن فرصًا للعمل لآلاف الشباب والشابات

من مناطقنا، شريطة أن يتمّ حمايتها وإبعادها عن أيّ تدخّل سياسيّ أو حزبيّ، وأن تكفّ عنها أيادي الطامعين والمبتزّين.

فهل يجوز أن يزرع الشيعيّ القمح في الجنوب والبقاع، وينتظر الطحين من مطاحن بيروت الكبرى، فيدفع ضريبة الاستغلال على الرغيف مثقلة بنفقات النقل؟ لماذا لا يوجد مطاحن "الجنوب الكبرى" على سبيل المثال؟

نزرع شتله التبغ، شتله الشقاء والضنى، ويعمل أفراد العائلة جميعهم طوال العام، حتّى تأتي شركات جشعه متدثره بأثواب السماسرة لتجني الأرباح والعائدات دون رأفة ولا رحمة، ودون أن تشبع بطونها المتخمة. فلماذا لم يقم في الجنوب، ومنذ كلّ تلك السنوات، مصنع لصناعة (السيكارة) الجنوبيّة؟

نشرب المياه القادمة من "صنين" و"تنّورين" معبّأة، ونفتقر إلى المياه النظيفة والصالحة للاستعمال المنزليّ، بينما تعتبر مياهنا في إقليم التفاح من أفضل مياه لبنان، دون أن تلفت انتباه أحد.

في منطقتنا مصفاة الزهراني ومرفأ صور الذي لم يشهد أيّ تغيير منذ أيام الفنيقيّين، إلاّ اندثار صناعة السفن بعد 5000 سنة. العالم يتقدّم ونحن نتأخر، ولدينا شاطئ من أجمل شواطىء العالم مهمل ومصادر!..

عندنا مياه الصرف الصحيّ تتدّفق في الأودية حاملة معها الأوبئة المسبّبة للأمراض الخطيرة، كما أنّنا نعلم أنّ الوديان هي المكان المناسب للزراعة، ولديّ أمثلة وما أكثرها في طول لبنان وعرضه. ولكن أريد من المسؤولين تحديدًا أن يسألوا أين تذهب مياه الصرف الصحيّ لمدينة النبطيّة؟ وفي أيّ

الأودية تسير؟ متحدّية وغير آبهة بالمسؤولين أصحاب السيّارات الفارهة ذوات الدفع الرباعيّ.

ماذا يستفيد الشيعة من السياحة في بلد السياحة، ومن القادمين لصرف المليارات؟ من النقل الجويّ إلى الفنادق إلى المطاعم إلى المناطق السياحيّة؟ لا شيء طبعًا. بل نكتشف أنّ هناك عددًا كبيرًا من الناس في الوطن كلّما ارتفع منسوب الضخّ الهادر في مجارير الصرف الصحيّ المسكوبة على شواطئ الأوزاعيّ.

وهنا أريد أن أشير بالبنان إلى أولئك الأوغاد المتسلّطين، الذين كانوا وراء إفلاس الكثير من المغتربين، وإقفال العديد من المصالح والمطاعم لمستثمرين شيعة، بعدما تسلّطوا عليهم،

وقفت مدهوشًا في بلاد الإغتراب وأنا أتابع تدشين المشروع المائيّ الكبير الذي يقام في البقاع الغربيّ، والمؤمّل أن يغذّي بمياه الشفة نحو ستين قرية وبلدة في المنطقة. كانت فرحتي عارمة وأنا أتابع وقائع هذا المشروع الذي يحلم بأمثاله اللبنانيّون جميعًا، وقلت في نفسي إنّ أوّل الغيث بدأ بالانهمار فوق مناطقنا الشيعيّة المحرومة وربّما يكون مقدّمة لمشروع الليطاني، فتنتهي، مرحلة بعد مرحلة، معاناة أهلنا في وصول المياه النظيفة والطاهرة والسليمة إلى منازلهم.

إنّ أكثر ما أخذني في هذا الحدث المنتظر والمميّز، هو تأكيد قياداتنا وزعمائنا والقائمين عليه، أنّ سلسلة من المبادرات المتلاحقة سوف تتمّ قريبًا من أجل القضاء على العطش وتقنين الكهرباء في مناطقنا بخاصّة وفي لبنان بعامّة،

لنصبح فعلاً أمام جملة من المواعيد التي تبشّر بالخير والتنمية للاستفادة من أرضنا ومياهنا وبحورنا.

وبعد مزيد من متابعتي لهذا المشروع الهامّ، وجدت أنّ القرى الشيعيّة المستفيدة منه والتي يمكن أن تحظى بنعمة مياه الشفة الصالحة، بسيطة للغاية ولا تكاد تتعدّى أصابع اليدين. وقفت متعجّبًا إزاء هذه الحقيقة ومتسائلاً عن مدى الاهتمام والرعاية والملاحقة التي تمّت من قبل الهيئات والمجالس المكلّفة إنماء الجنوب والمناطق الشيعيّة لولادة هذا المشروع الكبير، وإيلائه الأولويّة على مشروع الليطاني، رغم توفّر المساعدات من الجهات المانحة. وخلصت بالحقيقة إلى تفسير واحد، وهو أنّ زعماء طائفتنا الكريمة اطمأنّوا تمامًا إلى التأييد المطلق الذي يحظون به من أبناء الطائفة الذي استمرأوا طعم الصمت المطبق أمام إذلالهم، والقبول بالقليل الذي يتكرّم به أولياء الأمور عليهم، من غير اعتراض ولا مساءلة ولا محاسبة، ما وفّر لهؤلاء الزعماء الراحة والوقت والظروف للاتّجاه نحو الطوائف الأخرى بهدف استمالتهم وكسب تأييدهم وضمان مناصرتهم لهم في معركتهم الكبرى، ومدّ أنوار نجومهم لتلمع على مساحة الوطن كلّها!...

لا أريد أن يفهم من كلامي أنّني طائفيّ أو مذهبيّ أو مناطقيّ، ولا أبحث عن الخير إلاّ لأهلي وطائفتي دون الآخرين. بل على العكس تمامًا، فأنا مؤمن بأنّ كلّ مشروع يقام في الوطن هو مكسب لكلّ أبناء الوطن، وأنّ كلّ قطرة ماء تروي أرضًا أو منزلاً في لبنان هي بركة وخير لكلّ لبنان. ولكن، وكما قام رئيس الجمهوريّة السابق إميل لحود، وكان حليفًا للمقاومة، بوضع حجر الأساس ونفّذ سد شبروح وليس سدّ الليطاني، لأنّه يعلم أنّه يشغل كرسيّ الرئاسة باسم الطائفة المارونيّة، وكما أنّ حليف "حزب الله" الآخر، العماد

ميشال عون لا يخجل، لا هو ولا سائر الزعماء الآخرين، من المناداة ليل نهار، ورفع الصوت للمطالبة في المحافل المحليّة والدوليّة والإقليميّة، باستعادة حقوق المسيحيّين، فقد كان الشيعة ينتظرون أن يأخذ زعماؤنا الدروس والعبر، ليرفعوا الصوت ولو لمرّة واحدة، مطالبين هم أيضًا، بالمحافظة على حقوق الشيعة واستردادها! أو بالتوقّف عن تزويد الآخرين، ببطاقات العبور على ظهر الطائفة، وحتّى بالتحدّث باسمها في مناسبات كثيرة.

في الوطن يستهلك أهلنا على مذبح التحرير والاستهداف. وفي بلاد الإغتراب تستهلك أدمغتنا الهاربة من بلد لا أفق فيه. والجشع والابتزاز يستهلكان أموال المغتربين المرسلة بشقّ النفس، لعدم وجود خطّة في مناطقنا تنتج وترحم شعبنا.

-24-

هل أصبح المغترب مشروع عميل؟

إنّ مشكلة المغترب الشيعيّ الأكثر خطرًا في هذا الإطار بالذات، إضافة إلى كلّ ما ذكرناه سابقًا من العناء والمعاناة والعذاب، أنّه أصبح مشروع عميل، تشبه قصته مصيبة ذلك البدويّ المسكين الذي كان يعيش مع ابنته الجميلة في وسط الصحراء، بعيدًا عن مظاهر المدنيّة والثقافة والتحضّر، فيمنع عن ابنته الشمس والهواء، ويخفيها وراء ستار سميك خوفًا عليها من عيون الفاسقين والحاسدين والمتطفلين، وكي لا يتجرأ أحد على رؤية وجهها وقدّها وذؤابة شعرها الفتّان. فكلّ ما كان يراه في ابنته أنّها صورةَ "للعجز" ومصدر "للعار والفقر". إلى أن جاءت فرصة أتاحت للفتاة الجميلة والذكيّة أن تخرج إلى عالم متقدّم منفتح ومتمدّن وأن تنال نصيبها من التعليم والتنوير والثقافة، فما كان من الأب، الذي كاد يقتله القلق والشكّ ممّا يمكن أن تتعرّض له ابنته، إلاّ أن سارع بملاحقتها حاملاً نصائحه وستار البدويّة ليلحّفها به ويخفيها عن أعين الآخرين. لأنّه كان يعتقد أنّ ابنته، في كلّ مرة تخرج فيها إلى الجامعة أو إلى السوق أو إلى الشارع، سوف ترتكب الفاحشة التي عقابها القتل. وكان النوم يهجر عينيه بعد أن صوّرت له ظنونه وأوهامه أنّ علاقات الصداقة لابنته في الجامعة أو العمل، قد تشعّبت وأصبحت معروفة في الأوساط الاجتماعيّة. ولمّا واجهته بفكرها وعقلها وعلمها، الذي لم يستوعبه ولم يفهمه، تبرّأ منها وهدّدها بالويل والثبور وعظائم الأمور، ثم ألقى عليها الحرم ولعن الساعة التي سمح لها بالخروج من الصحراء، وتمنّى لو اتّبع سنّة أجداده بوأدها حيّة قبل أن تسلّط الأنوار على خفايا خيمته الكريهة.

وهكذا نحن، المغتربين الشيعة، فقد كانت لدينا الشجاعة أن ننطلق في مناكب الأرض، وأن نقتحم المجاهل دون خوف أو وجل، خرجنا من صحراء الظلم والقهر والظلام، نحمل قليلاً من الثياب وقليلاً من المال وكثيرًا من الأمل، لنبحث عن النور والعدالة والحريّة، فأصابنا ما أصاب ابنة البدويّ. أراد العاجز الراكع أمام سلطان الفقر والجهل، والمثابر على تلميع صورة الزعيم المعلّقة في الركن المضاء من غرفته المظلمة التي يقيم فيها، والتي تفتقر إلى الماء النظيف والهواء النقيّ والكهرباء المشعّة، أن يوجّهنا ويرشدنا إلى ما يجب علينا عمله، ويحدّد لنا قائمة الناس والأجناس والشعوب التي يمكن أن نتحدّث معها ونخاطبها. أراد ذلك الأعمى الغارق في دياجير جاهليّته وعبوديّته، أن يقود مواكب المبصرين الأحرار ويضع لهم دليلاً بتصنيف الأديان السمويّة والفئات الاجتماعيّة التي يحظّر علينا التعامل معها، تحت طائلة التعرّض لعقوباته القمعيّة، التي اكتسب بها خبرة طويلة وفاحت روائحها داخل الوطن وخارجه، في إجراء المحاكمات وإصدار الأحكام وتنفيذها، كما في أيام الحروب المظلمة. والشواهد الحيّة الكثيرة والمتكرّرة لمثل هذه الارتكابات المشينة ما زالت ماثلة في ذاكرة الناس وأمام عيونهم، وتنغرز لطخات سوداء فاحمة في تاريخ الطائفة وكرامتها.

ولهذا البدويّ وأمثاله، وللزعماء وأزلامهم، نقول أنّ "الجعل" الذي يميته ريح الورد لن يقوى على خنق الأريج الذي يعطّر صباحات العالم ويحلّيها، وأنّ "عبد الحميد" الذي يقتله ريح الحريّة، لن يتمكّن من قمع الأصوات الحرّة التي تهزّه في قبره. ولو كان البدويّ يحبّ ابنته حقًّا ويريد أن يحافظ عليها، كان عليه ألاّ يخفيها داخل صناديقه المعتمة لتموت اختناقًا كالجرذان، بلّ أن يحصّنها بالعلم والوعي والقيم، ويوفّر لها مقوّمات الحياة الكريمة في بيتها وعند

أهلها. وكذلك الذين يعتقدون أنّ كل شيعيّ مهما عظم شأنه ومهما نال من التقدير والاحترام في بلاد الإغتراب، هو مشروع فتنة ومشروع عمالة ومشروع خروج على النهج، طالما أنّه يتجرّأ على أن يخاطب جاره اليهوديّ وزميله المسيحيّ ورفيق دراسته البوذيّ، ويشاركهم كما يشاركونه في أفراحهم وأحزانهم ومناسباتهم. قد أستطيع مثلاً، أن أفهم أن هناك من يتعامل ضد بلده من أجل المال، أو أن يتعامل ضد بلد ما لأنّه يكره ذلك البلد وأهله، وهذا أمر شائع في التاريخ، لكنّ المغترب الشيعيّ اللبنانيّ ليس من هذه الفئة ولا تلك، لأنّه بسبب إغترابه وانقطاعة عشرات السنين عن وطنه، وانغماسه في شؤون حياته ومستقبل أبنائه، من أين له أن يملك الأسرار العظيمة والخطيرة ليبيعها للآخرين؟ وكيف له أن يدرك أسرار الزعيم وخططه وحركة تنقلاته وحجم سلاحه ليفشيها لقاء حفنة من المال؟ فلا هو على الأرض، ولا هو منخرط في أيّ حزب أو مؤسّسة، والأنكى من هذا كلّه، أن تتوجّه التهم ويتنزّل غضب الآلهة والملائكة وأهل البيت على أحدهم ليس بتهمة أنه قبض واستفاد بل لأنّه دفع وتبرّع وساعد وساهم في مشروع إنسانيّ واجتماعيّ معيّن. فهل نتّقي الله في المغتربين ونكفّ عن إطلاق مثل هذه السخريات والهلوسات بحقّهم بغرض الابتزاز والتطويع والاخضاع، ونبعد عنهم أيادي السفهاء والفاشلين المحميّين من الأحزاب والزعماء، ونتخلّى عن التعاطي معهم على قاعدة نظريّة الخوف والشكّ والارتياب؟ وليأخذ واحد ممّن نُصّبوا أولياء على عباد الله، الزمام والمبادرة مرّة واحدة، لكي يتحدّث بتواضع ومحبّة في خطاباته الماراتونيّة ويعترف لكلّ زعماء الطائفة الشيعيّة أنّ أبناء الطائفة الذين هربوا من العبوديّة الفكريّة هم شرفاء الوطن وملحه وخميره، وقد بلغوا سنّ الرشد، وانطلقوا متسلّحين بالعلم والعقل، وخاضوا كلّ المجالات بشرف وكرامة وإباء، وأصبح منهم نواب وأعضاء في مجالس الشيوخ اختارتهم شعوب العالم على اختلاف

أديانها وأعراقها، كما أصبح فيهم الطبيب والمهندس ورجل الأعمال والتاجر والمحاميّ، فلا ترتكبوا فيهم إثمًا وتضعوا لهم "العصيّ في الدواليب" وتعيدوهم إلى الجاهليّة الأولى، يكفيهم ما عانوه وما تحمّلوه وما واجهوه في غربتهم، ويكفي ما فعلتم بالمفكّرين والمثقفين والمتنوّرين، يكفي ما اقترفتم بحقّهم من آثام وعرّضتموهم للذلّ والهوان وتركتموهم، لأنّهم صوت الطائفة وضميرها وعقلها وساعدها، يتسكّعون على أبواب السفارات، ويغلقون عياداتهم الطبيّة ومكاتبهم ومؤسّساتهم ليعملوا سائقي تاكسي في بلاد الاغتراب، ليأكلوا لقمتهم بالحلال في أجواء الحريّة والكرامة. إننا كمغتربين، نرفع الجبين عاليًا ونقدّم كلّ آيات التقدير لمثل هؤلاء المكافحين الصابرين الشرفاء، الذين رفضوا البقاء تحت سنابك الموتورين، الذين أفرغوا ساحات الطائفة وبيوتها من كلّ صاحب فكر أو قلم أو صوت حرّ من أجل أن يتربّع، في كثير من الأحيان، الجهلاء والسفهاء والرعاع. فهل مَن يتجرّأ من أئمّتنا الأفاضل على رفع مثل هذا الخطاب؟ هل من يقدم على إنصاف أبنائكم؟... قبل أن تخرج الفضائح على الملأ ممهورة بالأسماء والوقائع لتنتشر أمام شعوب العالم.

هذه هي مصيبة المغترب الشيعيّ الذي ما كاد يتحرّر من كلّ أسباب جهله وفقره وتخلّفه وينطلق لبناء مستقبل واعد له ولأبنائه، حتّى وجد نفسه عرضة للابتزاز واتّهامات الخروج عن مألوف الطائفة وإجماعها، و"الانكشاف على الغريب"، وعليه، إذا ما أراد نوال الرضوان أن يعود إلى "المظلّة الواقية"، وينسى فكره وعلمه ليعود إلى "شتلة الفقر والذلّ"، شتلة الدخان التي أكلت شبابنا وشباب آبائنا، لتدرّ خيراتها على أصحاب النفوذ والبركات.

إن من أسبق ما أراه من حلول لمعضلة الشيعيّ المقيم والمغترب، هو أن نسارع بالعودة الأمينة إلى الوطن، وأن نقوم بدورنا كاملاً داخل مؤسّسات الدولة لأنّنا نحن المكوّن الرئيس في هذه الدولة.

ونتساءل مع الدكتور كوثراني عندما يقول: "هل تعي قيادات الأحزاب الإسلاميّة المعاصرة، سواء كانت شيعيّة أو سنيّة، ولا سيّما تلك التي تنطلق في عملها السياسيّ من قناعة الدمج بين الدين والسياسة، بل من تأسيس الموقف السياسيّ على "الشرعيّة الدينية" وبالتالي على "التكليف الشرعيّ" (هل تعي) مأساة ماضيها، أي مأساة الفتن وحروب التكفير بين القوى الإسلاميّة." (بين فقه الإصلاح الشيعيّ وولاية الفقيه) – ص: 39).

ويتابع كوثراني تساؤلاته فيقول: "قد يسهل على أصحاب الخطاب الدينيّ أن يعبئوا ويقودوا العامّة إلى ما يريده خطابهم السياسيّ، بل يسهل عليهم أن ينشئوا استشهاديّين تأسيسًا على حقائق إيمانيّة مطلقة ووعدًا بالجنّة، بل ويسهل عليهم أن يُعمّموا على الاتباع والمحازبين، وعلى جمهورهم العريض أنّهم الأنقى والأطهر والأشرف (...) أي أنّهم بتعبير سلفيّ قديم "الفرقة الناجية" الوحيدة."

ليس غير الدولة العادلة وأجهزتها ومؤسّساتها، مهما ضعفت أركانها ووسائلها، أقدر على احتضان الشعب وضمان الأمن والخدمات له، ومهما توسّعت رقعة نفوذ وقوى و"خَيمة" العطاءات الخيريّة والعسكريّة للأطراف الحزبيّة والتنظيميّة. إنّ الأحداث والوقائع تؤكّد باستمرار أنّ لا سلطة، مهما كان منشؤها ومصدرها، يمكنها أن تحلّ مكان سلطة الدولة، أو يمكنها أن تواجه الجماهير بالمسؤوليّة الناتجة عن المخالفات والتجاوزات والأخطاء.

وهذا ما ألحّ عليه سابقًا وفي كلّ خطاباته وتوجّهاته، سماحة الإمام المرحوم محمّد مهدي شمس الدين، وضمّنه وصاياه إلى أبنائه في المجتمع الشيعيّ اللبنانيّ.

كتب تركي الدخيل في جريدة "الإتحاد الإماراتيّة" في السابع عشر من تشرين الثاني 2009، تحت عنوان "وصايا الشيخ الشيعيّ العظيم"، تعليقًا على هذا الجانب:

"يعتبر الشيخ محمّد مهدي شمس الدين، من رموز الشيعة في لبنان، الذين حاولوا قدر الإمكان ترسيخ فكرة الدولة في الفكر الشيعيّ، فهو ضدّ الرجوع سياسيًا إلى الخارج، بل يعتبر لبنان هو المشروع، ويرفض أن يميّز شيعة لبنان أنفسهم عن الآخرين في الأوطان التي يذهبون إليها."

ويشير الكاتب الدخيل إلى مدى اهتمام سماحة الإمام شمس الدين بمسألة ربط الشيعة في لبنان بالدولة، مستدلاً بما ورد في وصاياه التي يقول فيها: "أوصي أبنائي وإخواني الشيعة الإماميّة في كلّ وطن من أوطانهم وفي كلّ مجتمع من مجتمعاتهم، أن يدمجوا أنفسهم في أقوامهم...وأن لا يميّزوا أنفسهم...وأن لا يخترعوا لأنفسهم مشروعًا خاصًا...لأنّ المبدأ الأساس في الإسلام، الذي أقرّه أهل البيت المعصومون عليهم السلام، هو وحدة الأمّة."

ويتابع الدخيل محلّلاً وصيّة الإمام الجليل فيقول: "هذه الوصيّة لو كانت حاضرة في ذهن كلّ الشيعة في لبنان وخارج لبنان لأثمرت عن وعي في حدود الانتماء، فالانتماء إلى سلوك دينيّ معيّن، لا يعني تأسيس مشروع مضادّ للدولة القائمة.

25

طاولة حوار عائليّ

إنّ استلهام مبادئ الثورة الحسينيّة الساميّة النابعة من أرض الثورة المحمديّة الطاهرة، والعودة إلى قواعد اليقظة الشيعيّة الحديثة الناهضة على يدي الإمام التاريخيّ المؤسّس موسى الصدر، وتتبّع الإشارات الهادية لوصايا الإمام الكبير محمّد مهدي شمس الدين، والاستماع إلى نداءات وطروحات ورؤى وأفكار الكثيرين من أبناء الطائفة الشيعيّة المتنوّرين والمخلصين، كلّ ذلك كفيل بأن يحدث الانفراج في الاحتقان الذي تعانيه طائفتنا منذ عدّة سنوات، لا بل هو السبيل الأنجع والأسرع للتخفيف من حدّة الخطاب وتهدئة النفوس ووأد التوتّرات عند شركاء الوطن الآخرين.

نحن في الواقع، لسنا بحاجة إلى طاولة حوار وطنيّ، تعقد خصّيصًا وحصرًا من أجل المشكلة الشيعيّة، لا يكون عليها إلاّ موضوع واحد وبند واحد وهو سلاح "حزب الله" والاستراتيجيّة الدفاعيّة، ما يرسّخ في أذهان الجميع أنّ مشاكل لبنان كلّها قد حُلّت ولم يتبق إلاّ مشكلتنا الشيعيّة، أو ما بات يعرف بمشكلة الشيعة مع الدولة اللبنانيّة والكيان اللبنانيّ!؟...

ولسنا بحاجة إلى مؤتمرات جديدة في الدوحة أو في الطائف أو في أيّ بلد آخر.

نحن بأمسّ الحاجة اليوم إلى طاولة حوار عائليّة، ولا أقول طائفيّة أو مذهبيّة، أجل طاولة يجتمع حولها أهل العائلة الشيعيّة اللبنانيّة الكريمة، على مختلف

انتماءاتهم وأحزابهم واتّجهاتهم وأطيافهم، ليعلنوا أمام العالم أنّ الثورة البيضاء انطلقت اليوم، في وجه الظلم والجهل والفقر والعبوديّة، لتعيد بناء الوطن وبناء المواطن وبناء الدولة وبناء المؤسّسات كما أرادها الكبار، وكما أرادها الشهداء، عادلة مدنيّة ونظيفة.

هل تراني أحلم في ما أقول، أم أنّني جاهل ومغفّل وبعيد عن عالم السياسة ودهاليز شياطينها؟ ربّما أكون واحدًا من هذه الفئات في معاجم السياسة اللبنانيّة، ولكنّني واثق تمامًا أنّ الحسين لم يكن داهية سياسيّة، كما أنّه لم يكن غارقًا في حلم صبيانيّ عندما أعلنها ثورة بالصدور العارية أمام جحافل الظلم ورماح القهر وسيوف الغطرسة، ومع هذا فقد انتصر ونصرنا معه ونصر المظلومين بنقاء ثورته وقرآنيّتها.

ولنجرّب هذا الحلم مرّة، فإن لم يجدِ، فلا ضرر منه ولا ضرار، ولا دماء ولا قتال. إنّه مجرّد دعوة إلى كلمة من كلمات الحسين، نجتمع حولها، لنخرج بعدها محصّنين بوحدة الصوت والهدف والمصير، بأنّ مجتمعنا هو مجتمع لبنانيّ راسخ ومتجذّر في وطنيّته ولبنانيّته وعروبته. وأنّ الشيعة في لبنان، بما لهم من ذخيرة التقوى والإيمان، ومن تجارب الحرمان والتحرّر والعيش المشترك، هم ضمان السلام والمحبة والوئام، هم دعاة الوحدة والوفاق، هم مع قيام الدولة القويّة والعادلة والحاسمة، لأنّها من مصلحتهم وعلى رأس أولويّاتهم، ولأنّهم كانوا في طليعة الخاسرين والمتضرّرين والمظلومين والمحرومين يوم غابت مثل هذه الدولة عنهم. هم مع كلّ لبنان ومع كلّ المظلومين والمحرومين والمقهورين فيه، هم مع مناطقه المنكوبة كافّة من عكّار إلى البقاع إلى الجنوب، هم مع كلّ مثقّفيه ومفكّريه ونخبه العلميّة والثقافيّة والأدبيّة، لأنّ جميع

هؤلاء يشكّلون الصورة المكبّرة لما عرفه وعاشه المجتمع الشيعيّ اللبنانيّ في أزمنته التاريخيّة المتعاقبة. وهم أولاً وأخيرًا الرباط الحكيم والأمين، القادرون على إعادة بناء الجسور المتهدمة مع أشقائنا وأهلنا في العالم العربيّ، ونزع فتيل الفتن والخلافات المذهبيّة وبناء الثقة التي بدأت تنهار منذرةً بأوخم العواقب على أمّتنا الإسلاميّة وعلى مصالحنا المشتركة.

أمّا إذا تحقّق الحلم، وهذا ما أصلّي وأدعو لأجله، فآمل أن نطلق بعدها ورش العمل التالية:

ان نوجه نداء الى اخواننا في الوطن لكي يصار الى :

إقامة الحجر التامّ، على طبقة الامّعات والمتزلّفين والمبتزّين والوصوليّين المتسلّقين على ظهر الأحزاب وبطنها، وكمّ أفواههم ومنعهم من الخروج إلى الرأي العام، رأفة ورحمة بأبناء الطائفة ومغتربيها وأعصابهم وسلامة نفوسهم وعقولهم، وحرصًا على نقاوة الهواء والأجواء من موجات التلوّث والفيروسات التي تتطاير من أشداقهم وحناجرهم الحجريّة الخشنة، وهم يتصدّرون الشاشات وصحف الجرائد، بأوامر وتوقيت من أسيادهم، ليفرغوا في وجوه الخلق وآذانهم بقايا أحشائهم العفنة، عن طريق ما يسمّونه تصريحات وخطابات ناريّة قراقوشيّة موتورة، غريبة عن ثقافتنا ومعجمنا وتقاليدنا وقيمنا، لا تعرف إلاّ تقيؤ الشتائم والتهديد والوعيد، مخلّفة وراءها زوبعة من الأحقاد والضغائن والأفخاخ، داخل الوطن وفي المغتربات، وتاركة في نفوس السامعين والمشاهدين صورة بشعة كالحة، وامتعاضًا واستنكارًا وتقزّزًا ممّا آلت إليه حال زعمائنا وقادتنا وشعوبنا.

وحبّذا يتمّ الاتفاق على ميثاق وطنيّ مهنيّ عام، يحرّم على وسائل الاعلام الحرّة والمستقلّة والوطنيّة، إستضافة أيّ من هذه النماذج المتخلّفة عن التاريخ والجغرافيا، أو نقل تصريحاتها أو عرض صورها، أو منحها فرص الظهور أو الادلاء بآرائها، حفاظًا على شرف المهنة ورسالتها، وصونًا لكرامة الناس وحمايتهم من الأمراض والعاهات والتشوّهات، ودرءًا للمخاطر الكبيرة التي تسبّبها للمجتمعات والأوطان.

• إستنفار كلّ الجهات القضائيّة والقانونيّة والرسميّة، من أجل إيجاد حل سريع وعادل لجميع أهلنا وأبنائنا المتّهمين بأنّهم خارجون على قوانين الدولة، والهاربين والطّفار ، بما يضمن عودة هؤلاء الرجال الى وطنهم وعائلاتهم بعد محاكمات عادلة يطلق فيها كلّ بريء إذا كان من الموقوفين، لأنّه من العار على أيّة أمّة أن يُظلم فيها مواطن من أبنائها، كما يعفى عن الكثيرين لمرور الزمن أو بقرار عفو عامّ، وبهذا يتمّ وضع حدّ لمآسيهم العائليّة والاجتماعيّة المعمّرة منذ عشرات السنين، أسوة بكلّ قرارات العفو التي صدرت بعد الحرب الطاحنة، والتي أعادت الحريّة والاعتبار والحياة الطبيعيّة لمختلف العناصر والفئات.

• إطلاق حملة توعية، داخل مراكزنا ومؤسّساتنا وبيوتنا ومجالسنا ضدّ المخدّرات وآثامها ومخاطرها، تاركين الأمر برمّته لأجهزة الدولة الأمنيّة والقضائيّة لملاحقة المتاجرين والموزّعين لهذه المواد السامّة التي تفتك بأجيالنا وتحوّلهم إلى مجرمين ومعاقين.

• العمل بجدّ وموضوعيّة، على مختلف المستويات والمجالات، من أجل المساعدة على قيام جمعيّات ومؤسّسات المجتمع المدنيّ، لتكون مساندة ومعينة

للدولة، ولتعويد شبابنا على الانخراط في مناخ المسؤوليّة والحريّة والديموقراطيّة والحوار والتفاهم، وبهدف إشاعة أجواء الانفتاح الكامل، دون خوف أو تهيّب، أمام كلّ الثقافات والأفكار والآراء.

• تعزيز جميع المراكز الرسميّة، والتوقّف عن الاعتماد على المشاريع "الخيرية" ذات المصادر الخارجيّة المختلفة، فدعم المدرسة الوطنيّة والجامعة الوطنيّة والمستشفى الوطنيّ والمستوصف الوطنيّ وإقامة الأندية الثقافيّة والرياضيّة والاجتماعيّة وما إلى هنالك، يجب أن تكون على رأس أولويّاتنا جميعًا، ولا مانع من توظيف واستثمار الأموال التي ندّخرها من الاعانات والمساعدات لهذه الغاية. ولا بدّ أن نصل إلى يوم نتخلّى فيه عن الاقتصاد والمؤسّسات الريعيّة الدينيّة إذا كنّا صادقين في التأسيس لمجتمع مدنيّ صحيح.

• تعميم ثقافة السلام بين أبنائنا وأطفالنا وأجيالنا، لأنّ من حقّهم أن يعيشوا طفولتهم وشبابهم وحياتهم كما يرغبون ويحلمون، من حقّهم أن يعيشوا زمانهم وظروفهم بقيم تراثنا الدينيّ والاجتماعيّ، لا زماننا التاريخيّ نحن بما له وما عليه، أسوة بأطفال العالم المتمدّن. وكم كان الإمام عليّ عليه السلام مستشرفاً لآفاق المستقبل وقارئًا لظروف التغيّرات وعواملها عندما وجّه الناس قائلاً: "ربّوا أبناءكم على غير أخلاقكم، فإنّهم خلقوا لزمان غير زمانكم."[5] وها هو نبيّ الأدب والفكر اللبنانيّ جبران خليل جبران بعد قرون يؤكد القول والحكمة فيقول: "أبناؤكم ليسوا لكم، أبناؤكم أبناء الحياة."

ولنستمع إلى مقتطفات من البيان السياسيّ الشهير الذي أطلقه شاعر الحريّة والانفتاح نزار قبّاني حيث
يقول

"في بلاد يُغتال فيها المفكّرون ويُكفّر الكاتب وتُحرق الكتب، في مجتمعات ترفض الآخر، وتفرض الصمت على الأفواه والحجر على الأفكار، وتكفّر أيّ سؤال، كان لا بدّ أن أستأذنكم أن تسمحوا لي:

هل تسمحون لي أن أربّي أطفالي كما أريد وألاّ تملوا عليّ أهواءكم وأوامركم؟

هل تسمحون لي أن أعلّم أطفالي أنّ الدين لله أولاً وليس للمشايخ والفقهاء والناس؟

هل تسمحون لي أن أعلّم صغيرتي أنّ الدين هو أخلاق وأدب وتهذيب وأمانة وصدق؟

هل تسمحون لي أن أقول إنّ الله حرّم قتل النفس البشريّة، وإنّ من قتل نفسًا بغير حقّ كأنّما قتل الناس جميعًا، وإنّه لا يحقّ لمسلم أن يُروّع مسلمًا؟

هل تسمحون لي أن أجاهر أنّ الله لم يوكّل أحدًا في الأرض بعد الرسول لأن يتحدّث باسمه، ولم يخوّل أحدًا بمنح صكوك الغفران للناس."

أنادي أنا أيضًا بأن نتّقي الله بأولادنا، لأنّ التهديد الدائم بالحرب، وقتل نزعة السلام في نفوسهم، وسجن عقولهم وطاقاتهم في دائرة ضيّقة مغلقة، يعطّل الاستقرار ويقضي على التنمية ويشلّ الحياة ويجعل الطائفة الصغيرة تتحمل وحدها كتلة اللهب. ولا بدّ أن نتذكّر هنا، حالة اللاّحرب واللاّسلم والحرب

الباردة التي تحكّمت لسنوات في شعوبنا ودولنا واستنزفت مواردها وخيراتها وشبابها، وحوّلت أيامها إلى بؤس وشقاء وتوتّر.

• العمل الحثيث على تنقية المجتمع ونزع الأعشاب الطفيليّة السامّة من ترابه والتي تعوّدت أن تتغذّى على حياة غيرها، وتطهيره من جميع الوصوليّين والمبتزّين والصاعدين على صهوة الأحزاب لتحقيق مآربهم ومصالحهم.

• البدء فورًا في تقرير مصير مئات المدرّسين والموظّفين المتعاقدين في لبنان الذين ألزموا بالخضوع لامتحانات تقييمية جديدة وأنهيت عقودهم بعد سنوات طويلة من الخدمة دون أن يعترف أحد بخبراتهم ونجاحهم، بينما لم يطالب أحد بسحب ومقاضاة آلاف الموظّفين الوهميّين المسجّلين على قوائم وزارات الدولة منذ عشرات السنين، والذين يتقاضون رواتبهم ويتلقّون علاوات التدرّج والتقدّم، من غير أن يعرف أحد منهم مقرّ عمله، ومن غير أن يداوم يومًا واحدًا في وظيفته، وكلّهم محميّون بالقوى السياسيّة والطائفيّة.

• العمل والضغط بكلّ الوسائل والأساليب من أجل إعادة إحياء وزارة التخطيط في البلاد، وإلاّ فإنشاء مركز للتخطيط، على الأقلّ في مناطقنا وبلديّاتنا، والمباشرة في رسم الخطط والبرامج من أجل تنفيذ البنية التحتيّة الضروريّة والهامّة، من مرفأ إلى طرقات إلى كهرباء إلى شبكات المياه الصالحة للشرب والصرف الصحيّ إلى بناء الملاجئ وفرق الدفاع المدنيّ وتجهيزات الاطفاء والاسعاف اللازمة لأزمنة الأزمات والحروب، وإفساح المجال أمام الشركات الأجنبيّة للقدوم والاستثمار والشعور بالأمان. فقد آن الأوان ونحن في القرن الواحد والعشرين، أن ننتهي من مهازل الماء والكهرباء والطرقات والجسور وفضائحها وصفقاتها ومافياتها. ولا بدّ أن نعثر على شركة تستثمر حتّى في

توليد الكهرباء وإيصال الماء الطاهر والنظيف إلى بيوتنا. فالجنوب محروم من أدنى مقوّمات الحياة، حيث نشرب الماء الملوّث وغير الطاهر، ومجارير زحلة والقرى المجاورة ودير ميماس والقرعون والقليعة تصبّ حممها في نهر الليطاني، الذي هو المصدر الرئيس للوضوء والشرب والطبخ والاغتسال والتطهر وقضاء الحاجة، حيث أظهرت الدراسات التي أجريت مرارًا وقُدّمت بشأنها التقارير إلى جميع المؤسّسات والشخصيّات المعنيّة، أنّ النهر من أوسخ أنهار لبنان. وقد نشرت جريدة السفير اللبنانيّة مؤخرًا دراسة مخيفة عن حجم الملوّثات والميكروبات ومياه الصرف الصحيّ التي تصبّ في هذا النهر. فاسمحوا لي أن اقول إنّه لا يصلح حتّى للريّ أو للحيوانات، لأنّه يحوي من الجراثيم والأوبئة ما لا يعلم بها إلاّ الله. فمن وجهة نظر إسلامية وأخلاقية، فإنّ الجهاد هو أن نبعد الأمراض والأوبئة عن الناس، وأن نضمن لهم عبادةً طاهرة وسليمة. وإذا كان لبنان وطن الجميع، وإذا كان واجب الجميع أن يدافعوا عنه، وإذا كانت الجغرافيا قد فرضت على الشيعة أن يقدّموا ضريبة الدم وقد قدّموها من أولادهم وأملاكهم عن طيب خاطر، ولكنّ السؤال الذي يحيّرني ألا يستحقّ هذا الشعب المؤمن، الماء الطاهر والنظيف، ونحن نعلم أنّ جبل عامل يتزوّد بالمياه من نهر الليطاني؟

وإذا كان المواطن الشيعيّ، مقيمًا ومغتربًا، قد قام بواجبه كاملاً تجاه شعبه ووطنه، فليس من العدل ألاّ تواكبه القوى الشيعيّة المسؤولة بتقديم الخدمات الضروريّة للحياة الانسانيّة الكريمة، ولممارسة عباداتنا مطمئنين.

-26-

المغترب وحيّة الذهب

أمّا بالنسبة للمغتربين، فإنّ ما سوف أقترحه في ما يلي من الصفحات، أريده أن يكون نداءات ودعوات ومبادرات، نظرًا للحجم الكبير للمغتربين المنتشرين في قارات الدنيا، ونظرًا لما يمثّلونه من وزن معنويّ وماديّ هامّ داخل الأوطان التي يستقرّون فيها كما بالنسبة لأوطانهم الأمّ، ونظرًا أيضًا، وهذا هو الأهمّ، لما يرزحون تحته من عوامل الضغط والمعاناة والعناء.

قبل أن أبدأ بتفصيل ذلك، أحبّ أن أقصّ عليكم حكاية تعبّر تعبيرًا واضحًا عن واقع المغترب وعلاقات أسياد الوطن به، بقدر ما فيها من الطرافة والحكمة والعبرة لمن يريد أن يعتبر.

يحكى أنّ راعيًا فقيرًا معدمًا، كان يقود قطيعه كلّ يوم إلى هضبة عالية، فيستند إلى صخرة هناك، ويترك لقطيعه حريّة التنقّل بين الأشجار والأعشاب.

وفي يوم كان فيه الراعي مسترخيًا يعزف على شبّابته، إذ بحيّة رقطاء كبيرة تخرج من فجوة في الصخرة، وراحت تتلوى متراقصة على أنغام الراعي، وكأنّها فنّانة بارعة تؤدي عرضًا أمام جمهور كبير. دبّ الذعر في قلب الراعي لأوّل وهلة، لكن ما أن رآها في عرضها الراقص الفنّان حتّى تابع عزفه وقد عاد الاطمئنان إلى نفسه. ولمّا توقّف الراعي عن العزف، دخلت الحيّة حجرها سريعًا ثم عادت ورمت للراعي ليرة ذهبيّة، وكأنّها تشكره على أدائه وإدخال السعادة إلى نفسها. واختفت داخل الصخرة الكبيرة.

ذهل الراعي، وأمسك بالليرة الرنّانة غير مصدّق، ودسّها في جيبه وهو في غاية الفرح والسعادة.

وتكرّر عزف الراعي وتكرّر معه رقص الحيّة ونقده أجره الذهبيّ قبل أن يجفّ عرقه.

تكدّس الذهب في صندوق الراعي، وبدأت ملامح الغنى تظهر على حياته وطريقة عيشه وطعامه وشرابه، ولكن دون أن يبوح بسرّ الحيّة إلى أحد.

ومضت الأيام رائعةً بالنسبة إلى الراعي وعياله، إلى أن جاء يوم قرّر فيه الراعي أن يتقاعد ويوكل المهمة إلى ابنه البكر. فأتى به وحكى له قصّته مع الحيّة، وطلب منه أن يداوم على إسعادها والعزف لها ليحافظ على مصدر الكنز الذي يمطر عليهم ذهبًا.

نفّذ الابن ما طلب منه الوالد. لكنّه بعد مرور عدّة أيام، راوده الطمع وتحكّم به، فقرّر أن يقتل الحيّة، ويحطّم الصخرة ليقبض على كنز الذهب دفعة واحدة.

وجاء يوم التنفيذ، وما أن أطلت الحيّة تتمايل أمامه، حتّى غافلها بفأسه ووجّه إليها ضربة أخطأت الرأس وقطعت الذنب، فما كان من الحيّة المغدورة إلاّ أن ارتدّت عليه وأفرغت سمّها في جسده فقتل على الفور، وغابت هي داخل الجحر.

ولما طالت غيبة الولد، جاء الراعي ليستطلع الأمر فوجد ابنه مرميًا والفأس بجانبه، فعرف الحكاية. ولأنه كان عاقلاً ومدركاً فقد رضخ لمصير ولده، لكنه لم يرد أن يفقد مصدر الثروة.

وجاء بعد عدة أيام مع القطيع، وراح يُسمع الحيّة أنغام شبّابته القديمة، فأطلّت برأسها من داخل الصخرة وحدّقت في عينيّ الراعي وقالت بصرامة وحسم: إسمع يا هذا، إنّ شهر العسل الذي كان بيننا قد انقضى، فلا أنت قادر على نسيان إبنك، ولا أنا قادرة على نسيان ذيلي. فاترك هذا المكان قبل أن أقضي عليك أنت أيضًا.

وغادر الراعي المكان إلى غير رجعة.

أوردت هذه الحكاية، لأقول بداية، إنّ المغتربين أمثالنا، والذين كانوا على مدى سنوات العمر، يبيضون ذهبًا وفضّة للوطن والأهل وأولياء الأمور والزعماء، على أنغام الطائفة والدين والخطر المحدق بنا، تحوّلوا بين ليلة وضحاها إلى حيّة تحت فؤوس الرعاة الذين لم يكتفوا بما ينعمون به من عطايا جهد المغترب وعرقه ومعاناته، فسعوا إلى وضع يدهم كلّها على مكتسباته ومدّخراته كأنّها حقّ لهم، متوسّلين بذلك كلّ رماح الغدر ، من أجل إفراغ جيوب المعذّبين العائدين. لكنّهم لم يدركوا لحظة، لقصر نظرتهم وطول جهالتهم، أنّ "شهر العسل" قد انقضت أيّامه، وأنّ ما يمكنهم القيام به لا ينطبق علينا، ولا يمكنهم تمرير خبائثهم وألاعيبهم المكشوفة والساقطة على من يعيشون أحرارًا في بلاد حرّة، وعلى أشخاص لا يتوانون عن توجيه النقد والملاحظات لمسؤوليهم بكل جرأة وشجاعة، وعلى من أصبحوا ينتمون إلى أوطان تحمي مواطنيها وتحترمهم وتقدّرهم ولا تقذف بهم إلى فم الذئاب والثعالب، وعلى مواطنين كانوا يعطون بدافع الحبّ والوفاء والانتماء إلى وطن وليس إلى فئة

وإذا كان أمثالنا المغتربين من الجيل الأوّل أو الثاني، قد إستطاعوا أن يحافظوا على روابطهم وعلاقاتهم مع الوطن وعطاءاتهم له، بسبب تربيتهم وعاداتهم

وتنشئتهم وتمسّكهم بأرضهم وتراثهم ومسقط رأسهم، وتمكّنوا من كظم غيظهم مرّات ومرّات حفاظًا على إرثهم الاجتماعيّ والأهليّ، فإنّ أبناءهم من الجيل الثالث، الذين ولدوا وتعلّموا ونشأوا في بلاد الإغتراب، ثمّ شاهدوا بأمّ العين ما يقع على آبائهم وما يدور في بلاد الأجداد التي يسمعون عنها ويرونها في الصور، لا يمكن أن نتوقّع منهم أيّ تعامل مماثل إذا ما بقيت الأوضاع على حالها، وإذا ما بقيت غرائز التسلّط والابتزاز مسيطرة على النفوس بلا وازع ولا رادع.

والأخطر من هذا كلّه، وهذا ما أودّ تسليط الضوء عليه بقوّة كبيرة، هو أنّ المليارات المتوقّع تدفّقها من أموال المغتربين إلى الوطن الأم، والتي تبني عليها الدولة خطط الإنماء وسدّ العجز، سوف تشهد تقلّصًا كبيرًا أقلّه في مناطقنا الجنوبيّة الشيعيّة، نظرًا للأوضاع السائدة، أو بسبب الضغوطات والمضايقات الكبيرة التي تمنع المغترب الشيعيّ تحديدًا من تحويل الأموال والمساعدات خوفا من وصولها إلى جهات محظورة.

من هنا، ومن هذه العلاقة الكارثيّة بين المغترب الشيعيّ وأولياء أمره، أريد أن أدخل إلى نداءاتي التي لا أتوخّى منها إلا إيقاظ الضمائر، وإيصال الصوت إلى من يهمه الأمر، من القادة والحكماء والعقلاء، لإعادة ترميم الجسور وبناء الثقة التي أشرفت على الانهيار، ورفع الصوت وتحكيم الضمائر ليكون نداؤهم ونداؤنا معًا أن اتركوا المغتربين وشأنهم، فلهم ظروفهم وأوضاعهم وحاجاتهم وضروراتهم التي لا يفهمها غيرهم، وأوقفوا حلقات هذا المسلسل الدراميّ السخيف، الذي لا ينتج إلا مزيدًا من عذابات وقهر المغتربين، ومزيدًا من رفضهم وتشبّثهم بكراماتهم وقيمهم وسمعتهم، واتساع الفجوة بينهم وبين وطنهم

الأم، ولنحافظ جميعًا على خلق الفرص المؤاتية والمناسبة لتشجيع المغتربين على العودة واصطحاب أبنائهم وتوليد الثقة لديهم لمتابعة مساهماتهم ودعمهم، وتوفير كلّ أسباب الأمان والاطمئنان لإقامتهم واستثماراتهم والاستفادة من خبراتهم وتجاربهم وعلومهم التي هي ثروة البلاد وذخيرتها ومؤونتها للأيّام الصعبة لا سمح الله. فهل من يسمع النداء؟ وهل من يوصله إلى آذان أصحاب القرار؟ وهل من يُقدم سريعًا على عقد مؤتمر وطنيّ خاصّ بالمغتربين الشيعة وإتاحة الفرصة لهم لإسماع أصواتهم ومعاناتهم وما يتعرّضون له، خفية أو علنًا؟ إنّني وأمثالي الآلاف ممّن يراهنون على تغليب صوت العقل والمنطق والضمير، وممّن كوّنوا في إغترابهم الطويل ومخالطتهم المتشعّبة ومراكزهم وأدوارهم الكبيرة، قدرة واسعة على التحاور بموضوعيّة ومنطق، نأمل جميعًا أن يجد نداؤنا إستجابة سريعة فاعلة لإعادة الأمور إلى نصابها، وتضميد الجراح النازفة قبل فوات الأوان. وخيرٌ للجميع أن يناقشوا ويجادلوا ويحاوروا أمثال هؤلاء المنفتحين الأحرار الصادقين، الذين لا يغدرون ولا يمالئون ولا يخادعون، فينتصر العقل والحوار، بدل حوار الجاهلين فيخسر الجميع. "**ما ناقشت عالمًا إلاّ غلبته، وما ناقشت جاهلاً إلا غلبني بجهله.**" سلام الله عليك يا أمير المؤمنين، إمامنا العظيم وحكيمنا وفيلسوفنا الكبير.

-27-

هل الدماء أرخص من المياه؟
"وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ"

الجنوب محروم من أدنى مقوّمات الحياة، حيث يستعمل أهله الماء الملوّث وغير الطاهر، ومجارير زحلة والقرى المجاورة ودير ميماس والقليعة تصبّ حممها في نهر الليطاني، الذي هو المصدر الرئيس للوضوء والشرب والطبخ والاغتسال والتطهّر وقضاء الحاجة. فقد أظهرت الدراسات التي أجريت مرارًا وقُدّمت بشأنها التقارير إلى جميع المؤسّسات والشخصيّات المعنيّة، أنّ النهر من أوسخ أنهار لبنان. وقد نشرت جريده السفير مؤخّرًا دراسة مخيفة عن حجم الملوّثات والميكروبات ومياه الصرف الصحيّ التي تصبّ في هذا النهر.
فاسمحوا لي أن اقول إنّه لا يصلح حتّى للريّ أو للحيوانات، لأنّه يحوي من الجراثيم والأوبئة ما لا يعلم بها إلاّ الله. فمن وجهة نظر إسلامية وأخلاقية، فإنّ الجهاد هو أن نبعد الأمراض والأوبئة عن الناس، وأن نضمن لهم عبادة طاهرة وسليمة.

وإذا كان لبنان وطن الجميع، وإذا كان واجب الجميع أن يدافعوا عنه، وإذا كانت الجغرافيا قد فرضت على الشيعة أن يقدّموا ضريبة الدم، فإنّ الشيعة، مقيمين ومغتربين، أدّوا واجبهم كاملاً وقدّموا عن طيب خاطر فلذات أكبادهم قرابين لوجه الله وعلى مذبح الوطن، كما اضطروا إلى التضحية بأملاكهم وأرزاقهم، واستطاعوا أن يحرّروا أرض لبنان المحتلّه لأنّها ليست أرضًا شيعيّة بالكامل وأعادوا لكلّ ذي حقّ أرضه دون جزاء ولا شكور.

وإذا كان الشيعة قد وقفوا مع إيران كردّ للجميل لوقوفها مع سوريا إلى جانب لبنان ومقاومته، فإن هناك أسئلة تحيّرنا: هل أنّ الدماء أرخص من المياه؟ ولماذا عندما نؤمّن الدماء الزكيّة لا نستحقّ المياه النقيّة؟ وهنا أسأل زعماءنا الذين يريدون ان يكونوا لكلّ لبنان كي ينزعوا عنهم الصفة الطائفيّة لمصلحة الصفة الوطنيّة، في بلد طائفيّ للعظم. حتّى أنّني أشعر أنّنا أصبحنا دَرَجًا يصعد عليه الطامحون، وجيشًا يعتمد عليه الآخرون، وأصواتًا ينجح بواسطتها حاملو المشاريع الطائفيّة والمنادون بحقوق طائفتهم. فهل أنّ الطائفة الشيعيّة بحاجة لحلفاء لكي تطالب بأبسط الحقوق لمواطنيها من إقامة سدّ الليطاني الذي يؤمّن الماء الطاهر للشعب؟ ولماذا لا تأخذ الطائفة الشيعيّة الرئيس إميل لحود، رئيس الجمهوريّة السابق، مثالاً يحتذى، ونحن نعرف الظروف الصعبة والهجوم الشرس الذي تعرّض له بعد التجديد، ومع ذلك فقد سابق الزمن ووضع حجر الأساس لسدّ شبروح عام 2002، ومع الخلافات الهائله التي تبعت إغتيال الرئيس رفيق الحريري، ومع محاولات البعض وقف التمويل من خزينة الدولة، إلاّ أنّه أصرّ ونجح في افتتاح المشروع عام 2007 وأمّن لمنطقتي كسروان والمتن خزّانًا مائيًّا بسعة ثمانية ملايين متر مكعّب من المياه النظيفة والطاهرة، كما أنّه بدأت القيود على حركة البناء في تلك المنطقه حفاظًا على نظافة المياه.

أمّا مياه الليطاني، ومع العمر المديد لزعماء الطائفة الشيعيّة في الحكم، فقد تمدّد التلوّث إليها كما تمدّد التطاول على الطائفة، وكما أصبح عدد من المنسيّين والمهمّشين والفاشلين من الطوائف الأخرى نجوم المواسم، يأخذون إنجازات الطائفة، ويتبنّون مواقفها ويخطبون باسمها وعلى منابرها، ويحتمون بمظلّتها، ويحقّقون عن طريقها المكاسب السياسيّة والمواقع الحكوميّة. حتّى

بات مستغرباً جداً أن ندفع أبناءنا نحو الاستشهاد ليحقق الآخرون الانتصارات داخل طوائفهم وتجمعاتهم ومناطقهم.

إنني إذ أرفع الصوت إلى الزعماء الحصريين للطائفة، أنه إذا كان المواطن الشيعي، في الوطن أو في الاغتراب، قد قام بواجبه كاملاً تجاه شعبه ووطنه، فليس من العدل ألاّ تواكبه القوى الشيعية المسؤولة بتقديم الخدمات الضرورية للحياة الانسانية الكريمة، ولممارسة العبادات باطمئنان.

أقول لهم إنّ التاريخ لن يرحم، وإن الكتب التي ستكتب بعد رحيلكم عن الدنيا أو عن الحكم بعد عمر طويل، ستعدّد السنوات العجاف الطوال التي قضيتموها في تمثيل الناس والقبض على زمامهم بدون منازع، ومقارنتها بطول الإنجازات التي أنجزتموها.

-28-

اقتراح إلى الرئيس نبيه بري

على سبيل تخفيف الاحتقان، وترطيب الأجواء، ونزع الأحقاد والكراهية من نفوس الناس، والقضاء على مصادر الفتنة التي تهدّد بمخاطر كبيرة، أودّ أن أقدّم اقتراحًا فولكلوريًّا غير مكلّف على الاطلاق، وهو يضاف إلى مهرجان الصور التي تلتقط لزعماء الأحزاب المتخاصمة والمتحاربة، وجلسات الغداء التي تعقد في المقاهي القريبة من ساحة البرلمان، والتحيّات الحارّة التي يتبادلها الأخوة الأعداء أثناء جلسات الحوار، فإنّني أقترح على الرئيس نبيه برّي أن يدعو أسبوعيًّا إلى عقد جلسة برلمانيّة خاصة لمدّة ربع ساعة يتبادل فيها نوّاب الأمّة القبلات والعناق أمام عدسات المصوّرين وكاميرات التلفزيونات، تسمّى "جلسة التبويس" الاسبوعيّة. وآمل أن يؤخذ هذا الاقتراح على محمل الجدّ الكامل، لأنّه، وبعد تجوالي الطويل في أنحاء العالم واختلاطي ومعايشتي لنماذج مختلفة من الشعوب، لم أجد شعبًا مثل شعبي، يرتبط مركز أعصابه بحركات وسكنات زعمائه، ويتأثر مواطنوه بمزاج سياسييه، ويربطون ميزان غضبهم وعشقهم بدرجة حرارة زعيمهم، فيكفي أن يقوم زعيم أحد الأطراف بالتهجّم على زعيم آخر حتّى تعمّ العداوة بين ملايين الأتباع وتمتلئ النفوس بغضًا وكراهية، وتقام المتاريس، وتعلن حالة الحرب، ويغير الشارع على الشارع، وإذا ما قرّر هذان الطرفان مساء اليوم نفسه أن يتصالحا فسرعان ما تعقد حلقات الدبكة والفرح وتوزّع أطباق الحلوى على مفارق الطرقات وكأنّ الدماء التي سفكت قبل ساعة والضحايا التي وقعت والدمار الذي حصل كان مجانيًّا لا أهل له ولا أصحاب. ولنتأمّل ما يحدث هذه الأيّام من انقلابات

وانحرافات على المبادئ والشعارات تحت اسم المصالحات لنتأكد من صوابيّة مطلبنا. فمجتمعاتنا ما زالت مراهقة تتبع زعيمها ظالمًا كان أو مظلومًا، لا تسأله ولا تحاسبه ولا تطلب تفسيرًا لما يقع عليها من كوارث وما يحلّ بها من مصائب بسبب قراريه ومواقفه. ومع الأسف الشديد، فحتّى بعض فئاتنا الشبابيّة المثقّفة والجامعيّة نراها هي أيضًا إمّعة تسير كالقطيع خاضعة مطيعة وراء كرّازها حتّى ولو قادها إلى الهاوية، وتأتمر منصاعة بأوامر قائدها، وترضى أن تتخلّى طواعيّة عن فكرها وإرادتها وحرّيتها إكرامًا لإرضاء وليّ الأمر الذي بغضبه يعمّ الغضب والقحط العام، ويسود الهدوء وتمطر السماء ذهبًا لمجرد انفراج شفتيه عن ابتسامة لطيفة. فإذا عطس الزعيم حمدت الرعيّة ربّها شكرًا وعرفانًا، وإذا ضحك أمير من جماعة لأمير من جماعة أخرى إرتاح البلد وتنفّس الناس الصعداء، واستقرّ سعر صرف الليرة اللبنانيّة ونشطت الحركة التجاريّة، وآتى الرجال نساءهم وقاموا بواجبهم تجاه زوجاتهم وعمّت البهجة والسرور البيوت في الليل كما في النهار، وزادت الولادات التي ترفد الوطن بدماء جديدة والزعماء بأنصار يهتفون مع الصرخة الأولى: "بالروح بالدم...."

أمّا إذا زار أحدهم الآخر أو تناولا الطعام سويًّا، فهذه هي قمّة الطموح والرجاء التي تعني أن كلّ الأزمات قد حُلّت، فينسى الجائع جوعه، وينسى المقهور قهره، وينسى المحروم انقطاع الماء والكهرباء، وتختفي شكوى الفقراء من عجزهم عن شراء الدواء وتأمين التعليم لأطفالهم، وتنسى العائلات المفجوعة أبناءها الذين سقطوا من أجل لا شيء، في لعبة عبثيّة وساحة عبثيّة ومن أجل قضيّة عبثيّة.

ويحضرني في هذا المقام، قصيدة لأحد الشعراء، أقتطف منها هذين البيتين، لدلالتهما على واقع الحال عندنا:

"إذا عطس الأمير، فدته نفسي، أزال الغمّ والتأمت جراحُ

وتضحكُ، إذ يفيق على افترار، ورودُ الحقل وانبلج الصباحُ"

وهناك أيضًا إقتراح عمليّ آخر، وهو أن يقوم زعماء الأحزاب والتيّارات السياسيّة المختلفة، الذين يطلبون من أتباعهم التجمّع في ساحات وشوارع الوسط التجاريّ للتظاهر والتخييم وإقامة المعسكرات، وحرق الإطارات ونشر نيرانها ودخانها وروائحها وملوّثاتها في الأجواء، أن يقوم هؤلاء الزعماء بتجهيز الحافلات لنقل مناصريهم إلى مناطق محرومة ومنكوبة مثل عكّار والجبل والجنوب والبقاع مثلاً، ويطلبوا من كلّ منهم أن يقوم بزرع شجرة في أماكن التظاهر، فنعيد بذلك الإخضرار والجمال للبنان وللجبال والأحراج التي تأكلها النيران العفويّة والمقصودة، بدلاً من تشويه الصورة الحضاريّة الجميلة للمدينة. كما يمكننا بذلك أن ننهي الخلاف والجدل والتحدّيات المثارة حول أعداد المتظاهرين التي يحشدها كلّ فريق لإظهار قوّته وسيطرته على الشارع، وما علينا بعد أن تغادر الجموع، إلاّ ان نقوم بتعداد الأشجار المزروعة، وهنا يصبح الكذب مفيدًا للبلد، حيث إنّه إذا عمد أحد الأفرقاء إلى تضخيم عدد متظاهريه ليصبح مليونيًا، فعليه أن يكلّف كلّ متظاهر بزرع أكثر من شجرة، ويحفّز الفريق الآخر للمبالغة هو أيضًا، وهكذا يستفيد الوطن من حملات التشجير في مواسم المظاهرات التي أصبحت متوالية ومتكرّرة. وكفى الله المؤمنين شرّ القتال.

-29-

الأمم العظيمة تُبنى بالعرق والفكر كما تُبنى بالدمّ والشهادة

في إطار البحث عن الحلول وتلمّس الطريق نحو تجاوز العقبات والخروج من عنق الزجاجة الخانق، بالنسبة للمغتربين الشيعة، أريد التنوير حول السياسة العقيمة المعتمدة في النظرة إلى مغتربي الطائفة وأسلوب التعاطي معهم، والقائمة فقط على مبدأ المنفعة الماديّة ورشق "الأشجار المثمرة بالحجارة" والسطو على ثمارها، من غير شعور بالذنب أو التقصير، أو على الأقلّ الاعتراف بوجودها ودورها وإنجازاتها المشهودة.

سوف أتعرّض سريعًا ودون الدخول في التفاصيل، إلى نموذجين هامّين، كان لي شرف معرفتهما والاطّلاع على أعمالهما ونشاطهما اللامع في كندا، من بين آلاف بل عشرات الآلاف من أهلنا ورجالاتنا الناجحين البارزين، الذين حقّقوا بعلومهم وجهودهم وكفاءاتهم، نجاحات مشرّفة وتبوأوا بفضلها أرفع المناصب والمراكز، في مختلف بلاد الانتشار.

هذان النجمان المتألقان في سماء كندا، من أبناء طائفتنا الكريمة، أحدهما سيناتور عضو مجلس الشيوخ الكنديّ مايك حرب، والآخر نائب عضو مجلس العموم الكنديّ خليل رمال.

لا أظنّ أنّ أحدًا من المتعاطين في الشأن العام، يجهل معنى أن يتمكّن أحد الأشخاص المهاجرين من الوصول إلى اعتلاء منصب سياسيّ مرموق في

بلاد العالم المتقدّم والديموقراطيّ والحرّ. وأريد أن أضع أكثر من خط بارز تحت عنوان العالم "المتقدّم والديموقراطيّ والحرّ"، لأنّ المواطن في هذا العالم لا يقدّم صوته مجّانًا من أجل عيون الزعيم أو بياض وجهه أو سواده، ولا لأنّه غنيّ أو فقير، ولا لأنّه إبن فلان أو علاّن، ولا لأنّه تمكّن من اللحاق "بالبوسطة" أو تخلّف عنها، ولا لأيّ اعتبار آخر ممّا هو ذائع وشائع في بلادنا النامية، بل بناء على قناعته ببرنامج المرشّح أو الحزب التابع له، وتاريخه وكفاءته ونشاطاته السابقة في المجتمع. أضف إلى ذلك أنّ المرشّح في هذه البلاد يمثّل في دائرته مجموعة مختلفة من الجاليات الإثنيّة، منها الكنديّ الأصليّ والعربيّ والكوريّ والهنديّ والإفريقيّ والإيطاليّ واليونانيّ وغيرهم. ولذلك فإنّ اكتساب ثقة هذا المجتمع المتنوّع ليس بسيطًا على الإطلاق، ويتطلّب مهارات وخبرات كبيرة، وجهدًا متواصلاً وعلاقات واسعة ومصداقيّة عميقة.

وعلى الرّغم من جميع هذه التحدّيات، فقد استطاع هذان الرمزان المضيئان، النائب خليل رمال والسناتور مايك حرب على مدى سنوات طويلة، أن يثبتا جدارتهما، وأن يحافظا على الثقة الممنوحة لهما من المواطنين، وأن يقدّما لكندا وللجاليات العربيّة واللبنانيّة خدمات جلّى، نالا بسببها التكريم والاجلال والتقدير من قبل الأوساط الرسميّة الكنديّة وعند الجاليات العربيّة والإثنيّة.

نلتفت إلى أمثال هؤلاء النابغين والمشهورين في الطائفة من السياسيّين والعلماء والمفكّرين، الذين كانت لهم الأيادي البيضاء والمساهمات الكبيرة لنصرة وطنهم ونجدته، فنجد، مع الأسف العميق، أنّ الجميع في الطائفة يريدون أن يأخذوا من يدنا وعلى يدنا، ومن كرامتنا وموقعنا، دون أن يتكرّم أحد بتقديم أيّ

توضيح أو تفسير، وعلينا أن نرضخ لمكائدهم الرامية إلى تغييب الوجوه المغتربة الناجحة وطمس إنجازاتها والقبض على إراداتها وحرّياتها وحلالها!...

لقد سررت كثيرًا، أثناء زيارتي إلى لبنان بعد غياب عشرات السنين، أن أجد ممثل المنطقة في المجلس النيابيّ النائب علي بزّي ورئيس بلديّة بلدتي بنت جبيل المهندس الحاج عفيف بزي ، هما من الذين خاضوا تجربة الاغتراب، وغمرني اعتزاز كبير أمام هذا الانجاز وتمنّيت لهما النجاح، كما تمنّيت أن تتّسع الحلقة لتشمل المزيد من أبنائنا ذوي الاختصاصات العليا الذين يحتاج إليهم الوطن وتحتاج اليهم منطقتنا المحرومة. إنّها رحلة الألف ميل التي تبدأ بخطوة، وإنّها عودة العقول والطاقات والكفاءات لتبني الوطن وتنهض بالجزء المحروم منه. لقد شاهدت في إعادة بناء بلدتي بنت جبيل لمسات ظاهرة في كلّ زاوية، وضعها مهندس شاب آمن بالله والوطن، عمل وأعطاه الله فلم يعد بحاجه إلى المال العام. فتح باب مكتبه للجميع وبدأ ببناء بلدة مدمّرة. إنّنا نعتزّ به لأنّه المثال للمغترب العائد والحجر الذي حرّك المياه الراكدة، إستمدّ من أرقى بلدان العالم فكرة، فحملها في قلبه وأطلقها في أرض أحبها، فكانت حبة أنبتت سنابل. تمنياتنا أن يأخذ زعماؤنا هذه التجربة اليتيمة قدوة ليبنوا عليها في سبيل نهضة الوطن، ويقتنعوا أن الاغتراب عامر بالطاقات والامكانات والشرفاء. فهل من المعقول أن يزرع تجّارنا العالم ويملؤون الأرض دون أن يتركوا سلعة واحدة إلاّ ويتاجرون بها، في الوقت الذي يحتكر فيه بعض المحظيّين في الوطن أكثر من 67 بالمئة من السلع الاستهلاكيّة في لبنان؟!... أي أنّ هناك حفنة من المحظوظين والمقرّبين والنافذين، تربح المليارات بقرار إتّخذ يوم لم نكن نُحسب من هذا الوطن ولا يزال الواقع الشاذّ والظالم سائدًا حتّى اليوم. فهل من يلتفت إلى هذا الأمر ويكسر الاحتكار،

ليأخذ الجميع، بما فيهم المغتربون، دورهم، فيكفّ المتلاعبون والمتحكّمون بقوت الناس، ويربح الوطن والمواطن؟

وهنا، وعلى سبيل المقارنة والموازنة، وبهدف إظهار الصورة التي يتمّ التعامل بها مع الأبناء والرجالات المميّزين من قبل الطوائف الأخرى في لبنان، أريد أن أبارك حقًّا لهذه الطوائف التي تبحث عن أيّ ناجح من أبنائها، "بالسراج والفتيلة" كما يقولون، بهدف تكريمه وتقديره والتعبير عن فخرها واعتزازها بأعماله، ولكي تصنع منه مكسبًا لاسم لبنان والطائفة والقرية والبلدة التي ينتمي إليها، كما أنّها تبادر بكلّ ما أوتيت من قوّة ومقدرة ونفوذ، لتحريك كلّ المواقع والدوائر والمؤسّسات، من أجل أن تحميه وتحفظ كرامته وتبعد عنه الكلاب المسعورة والألسنة المسمومة والأيدي الآثمة، حتّى ولو كان عائدًا لتوّه من اجتماع مع الرؤساء والسياسيّين في الدول الصديقة والعدوّة.

ويبدو للمتمعّن في هذه الحالة المتمادية من إغفال الناجحين والبارزين من أبناء الطائفة، مقيمين ومغتربين، ومحاولة نفيهم عن الصورة العامّة المكوّنة والممثّلة للمجتمع الشيعيّ، أنّها وليدة خطة مركّزة ودقيقة، لاستبعاد أيّ إنجاز ملفت وطمسه وتغييبه عن المشهد السائد، علميًا كان أو اجتماعيًّا أو سياسيًّا أو اقتصاديًّا أو غير ذلك، كي لا يسرق أيّ جزء من الأضواء أو يحتلّ أيّ حيّز في فضاء اللوحة التي يجب أن تبقى مصادرة، ويحظّر إشراك عنصر آخر مهما بلغ دوره وتقديماته وإبداعه في هذا المجال المحجوز. فالصوت والصورة والأضواء والألوان والخطاب ومهرجانات التكريم والتقدير والحفاوة والتمجيد هي فقط لكلّ من ينتسب إلى مسيرة المعركة الكبرى، وما عداها ساقط من التاريخ ومن الجغرافيا ومن كلّ العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة.

وأتساءل في هذا الإطار، أليس في الطائفة الشيعيّة رجل واحد أو إمرأة واحدة يستحقّ التقدير والتكريم؟ فهل وصل الحال في مجتمعنا إلى مرحلة العقم الفكرّي ولم يبق لديه إلاّ مقاتل وشهيد؟ أين موقع الآباء المجاهدين الكادحين الذين كدّوا وسهروا وبذلوا العمر في سبيل تأسيس عائلة شيعيّة كريمة؟ وأين الأمّهات الصابرات المناضلات اللواتي واصلن الليل بالنهار وأخرجن من أبنائهنّ وبناتهنّ، على الرّغم من الفقر والعوز وشظف العيش، المهندسين والأطباء والعلماء والأدباء؟ ألا يستأهل أيّ منهم كلمة أو مبادرة أو لفتة لتقدير إنجازاتهم وتضحياتهم ليكونوا العبرة والمثال للآخرين؟

إنّ المغتربين الذين غابوا عن بلدهم عشرات السنين، توجّه إليهم التهم زورًا وبهتانًا، بسبب مواقفهم المعتدلة والرصينة والمتعقّلة في بلاد الإغتراب، لا سيّما في دول تتّخذ موقفًا من بعض المنظّمات. فهذه البلاد هي بالحقيقة بلادنا ولوطاننا ونفخر بالانتماء إليها وحمل هويتها، ولا يمكننا، بل لا نقبل التصادم مع أنظمتها وقوانينها، فهي مسقط رأس أطفالنا، وهي بلاد وإن اختلفت عنّا في الدين واللغة والعرق، لكنّها استقبلتنا وحضنتنا وكرّمتنا وعلّمت أولادنا ووفّرت لنا الحياة الكريمة والشريفة والآمنة، وكانت ملجأنا ومأوانا ومستقبل أبنائنا، وطبقّت معنا كلام الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم "أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف". لذا يجب أن تسمحوا لنا إذا قلنا إننا سنبقى أوفياء معها كما نحن أوفياء مع أوطاننا الأم، ونرفض أيّ إساءة لها كما نرفضها لبلادنا، حتّى ولو كانت سياسة الدولة في أحيان كثيرة مناهضة للعرب، لأنّ من أسبق واجبات المواطنيّة الصالحة هو أن ندافع وأن نتعاون مع سلطات البلاد لكي لا يسيء إلينا مجنون من المجانين أو متعصّب أو صاحب غاية، للايقاع بيننا والإفساد على جالياتنا والإضرار بمصالحها ووجودها ومستقبلها، وخاصة في مثل هذه

الظروف الحرجة والصعبة، التي تفتح علينا العيون والمراصد وتحصي أنفاسنا وخطواتنا، والتي نحاول بما أوتينا من رويّة وموضوعيّة وتأثير، أن نتجاوزها ونبعد شبهاتها ونزيل أسبابها حرصًا على استمرار العلاقات الوطيدة والمتينة بين هذه البلاد وبين لبنان.

من هنا كان نداؤنا الدائم والمتواصل، أن يتمّ تقدير وتفهّم ظروف المغتربين وأحوالهم، والتعاطي معهم بوعي يليق بهم ويجنّبهم الأضرار والمآسي، وألاّ يتمّ اغتيابهم ورميهم بغير حقّ كي لا نصيبهم بجهالة وبإثم الظن، تنفيذًا لقول ربّ العالمين في سورة الحجرات: "يا أيّها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين."

وحبذا حصر ملف المغتربين بالقيادة مباشرة، وسحبه من التداول في أسواق الابتزاز المكشوف الذي يمارسه الأزلام والأنصار والبطانة حسب أمزجتهم، ضنًّا بكرامة أبنائكم وأهلكم وحرصًا على سمعتهم وتاريخهم، وحسمًا لكلّ الشائعات والأقاويل المتداولة ظلمًا وافتراءً. فآلاف المغتربين الشيعة، يعانون من النمّامين والفاسقين ويقعون ضحية سوء الظنّ وعدم التثبت من حقيقة مواقفهم وأقوالهم وأعمالهم، فتلوك الألسنة أخبارهم من غير تبصّر ولا تمحيص، ما ولّد الكثير من الأحقاد والعداوات والمظالم. وقد حذّر الإمام عليّ رضي الله عنه من شرور هذه الطبقة من الأشرار فقال: **"وكم تجد من الناس من يسارع للشهادة على أمر لم يفقهه، في حقّ امرئ لا يعرفه"**.

-30-

الكنوز الضائعة

إنّ النتائج السيئة المترتّبة على إغفال المغتربين الشيعة وفشل السياسة في التعامل معهم، والتقاعس عن توفير الأسباب والسبل اللازمة لعودتهم، من قوانين وخدمات، كما أنّ حالة اللاحرب واللاسلم بدأت تنعكس عند هؤلاء المظلومين خوفًاوتردّدًا وامتناعًا عن زيارة أوطانهم، أو تشجيع أبنائهم على ذلك. وكان لهذا الأمر أثر بالغ السوء على نفسيّتهم وعلاقاتهم مع وطنهم كما على عائلاتهم الذين حرموا من رؤية أبنائهم والاجتماع بهم وإطفاء الشوق الملتهب في صدورهم، وعلى الوطن نفسه الذي حرم هو أيضًا من موارد أبنائه وتقديماتهم الكبيرة.

إضافة إلى هذا كلّه، وحتّى لو توفّرت ظروف الأمان والاطمئنان واستطعنا أن نتجاوز هذا الواقع المؤلم، فكيف يمكن أن نقنع المغترب، بالعودة والاستقرار والاستثمار في بلده وقريته، وعلى حمل أولاده وعائلته وأمواله التي جمعها بعرق عمره وشبابه، وهو يسمع كلّ اليوم، التهديدات اليوميّة وتبادل التحذيرات الخطيرة من إمكانية تجدّد الاشتباكات سواء من قبل إسرائيل أو بسبب الأوضاع السياسيّة المترديّة في الداخل؟

إنّ تشجيع المغتربين بالقدوم والعودة والبقاء في الوطن، لا يتمّ بالدعوات والآمال والاغراءات الورديّة الوهميّة، بل بإقناع هؤلاء بوقائع ملموسة وإجراءات واقعيّة على الأرض، لخلق الحوافز لديهم وإشعارهم بالأمن والسلامة على حياتهم وحياة أسرهم ومستقبل جنى عمرهم الطويل. وترجمة ذلك واقعيًا هي في توفير البنيّة التحتيّة اللازمة في حدّها الأدنى لإقامة المشاريع الاستثماريّة والتنمويّة في الوطن، هذا بداية، وبعده تأمين القوانين والتسهيلات المطلوبة لإنقاذ المستثمر من السماسرة والوسطاء والمرتشين وتعقيدات الإدارات والمسؤولين ومن صرف نصف مدّخراته قبل أن يرى مشروعه النور، ثمّ حماية القادمين من المبتزّين المحميّين من القوى الحزبيّة والسياسيّة، السبب الذي دفع بالكثيرين ممّن أقدموا على إقامة بعض المشاريع الصناعيّة أو المؤسّسات السياحيّة أو الزراعيّة وغيرها، إلى التوقّف عن استكمال مشاريعهم وإقفالها والعودة ثانية إلى حيث كانوا.

إنّ أمثال هؤلاء المغتربين، كانوا في أوطانهم الثانية، مواطنين صالحين، قدّموا لهذه الأوطان خدمات جلّى في جميع المجالات والقطاعات، وساهموا في تنمية اقتصادها وإغناء حياتها الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة، فلماذا يحرمون ويحرم الوطن من خدماتهم وخبراتهم؟ فهم منجم للطاقات والكفاءات، بما اكتسبوه من مهارات حديثة ومتقدّمة وخصوصًا لدى أبنائهم الذين تشرّبوا روح هذه البلاد ويتوقون للعودة إلى بلد الأجداد ليضمّوا جهودهم إلى جهود إخوانهم ويضعوا إمكاناتهم الماليّة والعلميّة في خدمته.

ومن الغريب في هذا الأمر أن نجد الجهات المختلفة الرسميّة والخاصّة، تهرول لتوقيع اتفاقات التوأمة والتآخي مع المؤسّسات الأكاديميّة والبلديّة والعلميّة

وغيرها في البلاد المتقدّمة، للاستفادة من خبراتها في هذه المجالات، في حين أن الكثيرين من المغتربين وأبنائهم يعتبرون من المبرّزين في مثل هذه المجالات وهم بين يدي الوطن وعند ندائه، لا يلتفت إليهم أحد من أصحاب القرار والنفوذ.

إنّ مصيبتنا الكبرى، التي لا تثير إنتباه أحد، ولا تأخذ ثانية من تفكير الكبار عندنا، هي أنّ بلادنا التي أصبحت مصابة بتخمة السياسيّين والمشتغلين بشؤون الدولة والأحزاب، والذين يتوالدون ويتكاثرون كالفطر يومًا بعد يوم، تعاني في الوقت نفسه من فقر دمّ بشبابها وعقولها وطاقاتها المنتجة والفاعلة.

فلماذا لا يتمّ تصدير بعض السياسيّين إلى العالم ومنع هجرة الأدمغة وأصحاب الكفاءات؟ حتّى نعيد التوازن الطبيعيّ لحياة وطن يستحقّ أن يتقدّم إلى الأمام، وأن "يفتخر الشابات والشباب بالانتماء إليه لينهض بقدراتهم وخبراتهم ومشاركتهم في إيجاد الحلول." على حدّ قول رئيس الجمهوريّة العماد ميشال سليمان في خطاب القسم، الذي جاء معبّرًا عن طموحات اللبنانيّين في الداخل كما في المغتربات، في تحصين الوطن والعيش الواحد عبر التلاقي ضمن ثقافة الحوار لكي نسير معًا "نحو مصالحة راسخة لزرع الأمل لدى أبنائنا." مصالحات تتمّ بين الدولة والمجتمع، وبين الأحزاب والمواطن، وبين الأحزاب والسياسة، وإصلاح الخلل القائم بينها، لنربح الوطن مرة واحدة، ونتيح لجناح لبنان الثاني (المغتربين)، بأن "يرى وطنه الأم وقد تعملق من جديد."

من الضرورة بمكان، وبأسرع وقت ممكن الاعتراف بحقوق المغتربين كما أكّد أيضًا الرئيس العماد سليمان، وأن "نمضي قدمًا في الاجراءات الآيلة إلى تعزيز

التصاقهم وتداخلهم بالوطن والاستعانة بقدراتكم وتوظيفها، حتّى لا يبقوا في غربة عن الوطن."

وتأسيسًا على خطاب القسم الرئاسي، وتركيزه على الاعتراف بحقوق المغتربين، فإنّني أؤكّد أنّ على رأس هذه الضرورات، فعليًا وعمليًا، الدعوة لعقد مؤتمرعام للمغتربين الشيعة اللبنانيّين، يحضره نخبة من أبنائنا من مختلف دول العالم وممثّلين من بينهم لمختلف القطاعات والمجالات والمراكز والمؤسّسات، بهدف إيصال صوتهم وحاجاتهم ومطالبهم ومعاناتهم ورؤاهم للقيادات وذوي الشأن وأصحاب القرار، شريطة أن يكون هذا المؤتمر من أجلهم ومن أجل أبنائهم ومن أجل الطائفة والوطن، وأن تتاح لهم الفرص التامّة، بكلّ حرّيّة وموضوعيّة وأمان، ومن غير ترهيب ولا ترغيب، لتبليغ رسائلهم التي يرونها مناسبة لبناء مرحلة جديدة وواضحة من العلاقات، وتوفير الاستعداد الكامل لسماع هذه الرسائل ومناقشتها وتدارسها والبناء عليها، لأنّ الفئة المغتربة الشيعيّة سبق وتلقّت وتبلغّت رسائل الزعماء والمتنفّذين منذ سنوات طويلة وعبر الكثير من المواقف والأحداث، لكنّ رسائل المغتربين أنفسهم، كما يبدو، إمّا أنّها تعثّرت أو صودرت على أحد الحواجز ولم يتسنّ لها الوصول إلى من يهمّه الأمر، وإمّا أنّها وصلت مشوّهة ومفخّخة ومزوّرة عن طريق العيون والآذان والأزلام المبثوثين الذين نقلوها كما يحلو لهم وكما يحلو للزعيم أن يتلقّاها. فضلاً على أنّ عقد مثل هذه المؤتمرات يجب أن تكون ورشًا للعمل والانتاج وليست منابر لاستعراض خطابات وعضلات وبطولات السياسيّين والأنصار والأتباع.

كما من الضرورة أن يبادر المغتربون، وهذا أمر أساسيّ، بإقامة المشاريع الإنمائيّة والاقتصاديّة في مناطقهم، وأن يوظّفوا علاقاتهم الخارجيّة في بلاد

الإغتراب، ومواقعهم وقدراتهم لتوفير المساعدات والدعم والتشجيع لهذه المشاريع، كأن يعملون على تجهيز محميّة حرجيّة مثلاً باسم كندا، أو حديقة نموذجيّة باسم فرنسا، أو غابة باسم أميركا، وغيرها الكثير من المشروعات الممكنة والتي يجب أن يدعى ممثلو الدول الداعمة أو سفراؤها للمشاركة في افتتاحها والتأكّد من قيامها لضمان استمرار دعمها لمثل هذه المبادرات، بكامل الحرّيّة والتقدير والاحترام، وبغضّ النظر عن سياسات هذه الدول ومواقفها من قضايا المنطقة، لأنّ ذلك هو من صميم خصوصيّاتها واستراتيجيتها، ولا يحقّ لنا كمغتربين، بل لا يجوز أبدًا أن نكون في موقع صدام وعداء مع دول هي أوطاننا التي قدّرتنا واستقبلتنا وأكرمتنا وحضنت أولادنا وعلّمتهم وهيّأت لهم أفضل الفرص العلميّة والعمليّة، أضف إلى ذلك، أنّ مناداة بعض الموتورين والجاهلين بمقاطعة أو التنديد بمواقف بعض الدول الكبرى، لا يؤثّر على هذه الدول ولا يدفعها لتغيير مواقفها تجاهنا، بقدر ما يسيء إلى إخوانهم المغتربين وينعكس سلبًا على المساعدات التي يمكن أن يتلقّونها من أجل أوطانهم، كما على أهلنا وشبابنا الراغبين في الحصول على تأشيرة دخول لهذه البلاد.

كما لا بدّ من التأكيد على هؤلاء المغتربين بضرورة الإصرار على تسجيل هذه المبادرات والمشروعات بأسمائهم أو أسماء الدول الداعمة لا أن يهدوها مجّانًا، مع تعبهم وجهودهم وشهاداتهم، للقادة وللزعماء، فهي حقّهم الطبيعيّ لأنّها ثمرة أتعابهم وصورة شخصيّتهم ونتيجة نجاحهم وسهرهم في بلاد الغربة.

كما من المهمّ كثيرًا، ونحن في إطار البحث عمّا يساهم في تخفيف معاناة المغترب الشيعيّ، أن نشير إلى الحاجة الماسّة لإعادة النظر في أسلوب التعامل والإشراف على بعض المراكز الجاليويّة أو الدينيّة التي أنشئت في

المغتربات، والتي خرجت عن أهدافها وغاياتها، ولم تعد حاضنة لأبناء الجالية، ولا تعبّر عن شخصيتهم وموقعهم، ولا تفي بحاجاتهم الدينيّة والاجتماعيّة التي أنشت من أجلها.

فهذه المراكز التي نهضت أساسًا على أكتاف المغتربين أنفسهم وبدعمهم الماليّ والمعنويّ وجهودهم ورعايتهم، كما أنها أقيمت لحاجة وأهداف روحيّة واجتماعيّة وثقافيّة لم تعد خافية على أحد. تحوّلت بقدرة قادر كما سبق وذكرنا، إلى مزرعة أخرى من مزارع الزعماء والقادة، يخضعونها لنفوذهم وسيطرتهم، ويرسلون من أتباعهم من يتحكّم بتوجّهاتها ورسالتها، تحت اسم الممثّل الشرعيّ والرسميّ، الذي لا يلبث أن يحوّلها هو الآخر إلى جزء من أملاكه الخاصّة يتصرّف ويفعل بها ما يشاء، يوظّف ويعزل ويفرض الرسوم كما يحلو له وتبعًا لمصالحه ومصالح عائلته وأنسبائه وأقربائه. وأصبحت هذه المراكز مصدرًا هامًا من مصادر الثراء غير المشروع لأمثال هؤلاء الذين نسوا رسالتهم وواجباتهم الدينيّة، وباتت هذه المراكز بين أيديهم، مقفلة في وجوه المؤمنين وأبناء الجالية، على مدى أكثر من أحد عشر شهرًا في السنة، حيث لا يتكرّم القائمون عليها إلا بفتحها خلال شهر رمضان المبارك وأيام عاشوراء (مواسم جمع الصدقات والأموال). فضلاً على حالتها المزرية التي لا تليق بسمعة الجالية ومركزها، بسبب الاهمال المتعمّد والإمعان في تخريبها وعدم الاهتمام بصيانتها وتجهيزها والاعتناء بها.

ومن محاسن الصدف، قبل أن أدفع بكتابي هذا إلى المطبعة، أن حلّ عيد الأضحى المبارك. وعلى الرّغم من تفاوت الاعلان عن مواعيد الاحتفال بهذا العيد بين بعض الدول العربيّة والاسلاميّة على عادتها في مثل هذه المناسبات،

فقد أسعد جالياتنا اللبنانيّة جدًا أن تتادى جميع ممثّلي الطوائف الاسلاميّة، السنيّة والشيعيّة والدرزيّة في كندا، لتعيين موعد موحّد، يجتمعون فيه معًا ويقفون صفًّا واحدًا لاستقبال المهنّئين في هذا العيد. إنّها بادرة خير وبركة، حبذا الاقتداء بها في وطننا، وحبذا الاعتماد على الوسائل والأدوات العلميّة المتطوّرة في تحديد بدايات الأشهر القمريّة ونهاياتها، لننتهي من مهزلة الفوارق في مواعيد أعيادنا ونكفي المسلمين والمغتربين بخاصّة مغبّة تكفير من صام يوم العيد أو فطر قبله.

أمّا بشأن عودة المغتربين الحقيقيّة إلى ديار يحملون عبقها ورائحة ترابها في وجدانهم ولا ينفكّون يمجّدون اسمها أينما حلّوا وكيفما فعلوا، فإنّني أترك ما يلي من الآمال والأماني والرغبات لتعبّر عن موقف المغتربين وعنائهم ومعاناتهم وهم ينتظرون ولادة اللحظة المؤاتية لذلك، كي لا يبقوا كنوزًا ضائعة في عالم الاغتراب:

بعدما إقتنعنا، بسبب كلّ العوامل الطاردة، أنّ بلاد الإغتراب أفضل من البقاء في الوطن تحت نير الفقر والاستبداد. وأنّ برد القطب الشمالي القارس لهو أدفأ من شواطئ بلادنا المتعبة من شمس الربّ ومن وضع اليد عليها من الحاكمين بأمر الله، وأنّ الأمل بالتفاهم مع شعوب العالم، الذين لا نعرف عن لغتهم شيئًا، لهو أقرب من التفاهم مع الكثيرين من أبناء جلدتنا الذين فقدوا العقل والأدب وجنحوا نحو الجريمة المنظّمة بحقّ الأرض والبحر والسهل والجبل، وبحقّ البشر والحجر.

وبعدما غادرنا وودّعنا الأرض والأصدقاء والحبيبة، وخرجنا بجلودنا العارية، وبقليل من المال والخبرة وكثير من الأمل والإيمان، دون أن نلتفت الى الوراء

وعندما نرى يومًا، أنّ بلدنا أصبح جاهزًا لاستقبالنا، وشعبنا أصبح جاهزًا لبناء وطن.

وعندما نعلم أنّ المقاعد في الدوائر المهمّة التي تحتاجها عمليّة البناء، تنتظر من يشغلها من أبنائنا، أبناء النور والحرّيّه والغد والمستقبل، دون إخضاعهم لفحص دمّ وقياس درجة دينهم والمسافة بينهم وبين الخالق، من قبل أناس لم يروا أبعد من أنوفهم ولم يجعلوا أبناءنا يفرحون سويًّا أيام العيد، لأنّهم يرفضون اعتماد الوسائل العلميّة وما توصّل إليه العقل البشريّ الفذّ من مبتكرات وأجهزة تسبر أغوار الكون.

عندما نجد أنّ العقل قد ساد، وأنّ القوّة تحيط بهذا العقل وتحميه وتؤمّن له البيئة المناسبة للإبداع.

عندما نجد الحرّيّات تعمّ، وكرامة الإنسان، الذي هو خليفة الله على الأرض، أصبحت في مأمن من الذين يدوسون كرامات الناس باسم الله وباسم الوطن وباسم الأمن، دون رادع. حيث يصبح أيّ مأخذ، حتّى ولو كان تافهًا، فرصة للأوباش لكي يجعلوا منه مشكلة معقّدة، تحتاج إلى حلّ غير متوفّر إلا في جعبتهم وبيد رفاق لهم زرعوا في أماكن حساسة، كما أنّ لهذا الحلّ ثمنًا يحدّد تبعًا لقدره المغترب المغدور والمطعون من أبناء طائفته الكريمة، بهدف تدجينه وتطويعه وإخضاعه وإعادته قسرًا إلى حظيرة التهليل والتبرّك بعباءة السلطان.

عندما نجد طريقًا نمشي عليها، وعندما تشمل كلمة عالِم من يقضي حياته في المختبرات ليكتشف دواء يشفي به عليلاً أو يخفّف به من معاناه مريض بالأمراض المزمنة.

وعندها، وعندها فقط، ستجدوننا زاحفين بالعودة إلى الوطن دون أن نلتفت إلى الخلف. لا لكي نقطف الثمار الناضجة ونسرق مكتسبات الآخرين، لأننا إعتدنا أن نأكل الحلال بعرق الجبين، بل لكي نبارك لمن بدأ ونشدّ على أيديهم ونضع ما نملك في خدمتهم ونشبك الأيدي معًا ونرفع البناء معًا في بيئة صالحة وصحيّة وسليمة.

إنّها رسالة في كتاب، أردتها أن تكون من القلب، مفعمة بالصراحة والصدق، ومجلّلة بكلّ معاني الوفاء والاخلاص والحبّ لأوطاننا، بعيدًا عن المزايدات والمبالغات، عسى أن تصل إلى أولياء الأمر منّا، وألاّ تبدّدها الرياح العاتية، فتساهم في توضيح الصورة لواقع الإنسان الشيعيّ في لبنان والخارج، وتكون ورقة عمل متواضعة للإقلاع في ورشة التقويم والاصلاح والبناء. قبل أن نجد أهلنا المغتربين يقدمون على التخلّي عن جنسيّاتهم اللبنانيّة، حفاظًا على حياتهم ومكتسباتهم وإنجازاتهم التي دفعوا من أجلها سنوات عمرهم في العناء والمعاناة، وقبل أن تقتصر قوافل العائدين على العجزة وكبار السنّ والصناديق الخشبيّة التي تحمل رفاة المتوفّين ليدفنوا في تراب الوطن. اللهمّ إنّي قد بلّغت، اللهمّ فاشهد. "**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون.**" **صدق الله العظيم.**

-31-

متى نقرأ التاريخ؟

لقد قيل: "إنّ تفكّر ساعة خير من عبادة سنة ". التأمّل في خلق الله ومجريات الأحداث وتداول السنين، في جميع الأديان، وسيلة للتفكّر الصحيح في ما حدث في الماضي، وما يدور في الحاضر ليتمكّن الفرد على الصعيد الشخصيّ، أو الأمم على المستوى الجمعيّ، من استخلاص العبر والدروس لرسم خطوط المستقبل واستنباط الحلول الملائمة على ضوء التجارب والأحداث. وفي مُحكم التنزيل، يقول ربّ العالمين في سورة البقرة {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ }. كما أنّ التأمّل والتفكّر يشكّلان، على قصر المدّة التي يستغرقانها، مخرجًا وفسحة للعقل الإنسانيّ كي يبتعد عن ضجيج الحياة وزحمة شؤونها وشجونها، ويخفّف من الآلام الطارئة، ويترك العنان لصفاء الذهن ونقاء السريرة للتواصل مع الخالق في لحظات من أجمل ما تنتجه رحلة ذاتيّة متحرّرة من قيود العيش وإرهاصاته.

في مثل هذه اللحظات الساحرة والفريدة، نستطيع أن نستلهم من الماضي القريب ما يمكّننا من محاولة مقاربته وإسقاطه على أوضاعنا الحاضرة هذه الأيّام.

لو أنعمنا النظر قليلاً في تاريخنا غير البعيد، لوجدنا أنّ الدول العربيّة بصورة عامّة، لم تكن صادقة ولا وفيّة مع الجهات التي احتضنتها سنوات طويلة ومدّتها بمختلف الوسائل والمساعدات وقدّمت لها العون والنجدة في أحلك ظروفها وأحوالها السياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة.

هل هو جلد للذات في ما أقول؟ أم إنّني ألقي الأحكام جزافًا من غير تبصّر ولا تمعّن؟

لنستعرض معًا ما جرى مع العرب منذ نكبتهم الكبرى فلسطين، كي لا نذهب بعيدًا في ذاكرة الزمان كان الاتّحاد السوفياتيّ على مدى سنوات، المموّل الأكبر، إن لم يكن الوحيد، لعتادنا العسكريّ فقد زوّد أغلب دول المواجهة العربيّة بشتّى أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة والطائرات والدبّابات، كما أمدّ الجيوش العربيّة بخبراء في مختلف حاجات التدريب والتأهيل، وكان لموقفه الأثر الكبير في إنهاء العدوان الثلاثيّ على مصر إثر تأميم قناه السويس ثمّ إنّه فتح أبواب جامعاته ومعاهده لآلاف الطلاّب للتزوّد بالعلم والاختصاصات العالية، وساهم بإنشاء أهمّ المشروعات الإنمائيّة والاقتصاديّة وتمويلها في عدد كبير من الدول العربيّة ولا يزال السدّ العالي في مصر، المشروع الإنسانيّ التاريخيّ العملاق، الذي كان أثره وسيبقى كبيرًا وأساسيًّا على حياة المصريّين واقتصادهم ومستقبلهم، خير دليل على ما أقول كما وقف الاتّحاد السوفياتيّ أيضًا بصلابة وشرف داعمًا ومدافعًا عن كلّ قضايانا وحقوقنا لدى الهيئات والمؤسّسات الدوليّة. ولا تزال الديون الروسيّة الهائلة والمستحقّة على بعض الدول العربيّة حتّى يومنا هذا، خير شاهد على حجم التقديمات والمبادرات منذ أكثر من نصف قرن كما لا تزال ماثلة في الأذهان الهبة التي فاقت كلّ التوقّعات وسمّيت "قمّة المنح"، التي قدّمتها روسيا للجيش اللبنانيّ في كانون أوّل/ ديسمبر من العام المنصرم (2008)، وهي عشر طائرات حربيّة مقاتلة من طراز ميغ 29 لإعادة بناء سلاحه الجويّ دون مقابل، مع التعهّد بتدريب الطيّارين اللبنانيّين، وهذا ما لم تفعله أيّة دولة عربيّة أو غربيّة، صديقة أو غير صديقة.

لكنّ الجيوش العربيّة المهزومة سلفًا قبل الحرب ودخول المعارك، والمنقولة أسرارها إلى العدو ممّن كان ينبغي عليهم أن يحافظوا عليها بأهداب العيون، جعلت تلك الجيوش تتداعى خلال ساعات أثناء "حرب السادس حزيران"، أو ما اتّفق على تسميته "عام النكسة والهزيمة".

ولأنّ العرب دائمًا على حقّ، فسرعان ما ألقوا تبعة الهزيمة على نوعيّة السلاح السوفياتيّ، في محاولة ساخرة ومضحكة للتنصّل من مسؤوليّاتهم وتقصيرهم وعجزهم وخيانات بعضهم. تلك، كانت أولى علامات النكران والجحود لأقرب الأصدقاء وأصدقهم مع العرب، حتّى الآن على الأقلّ. ومع ذلك فإنّ الاتّحاد السوفياتيّ آنذاك، لم يأبه لكلّ هذه التخرّصات ولم يتوقّف عندها، بل تابع عمليّة تزويد هذه الجيوش بالأسلحة والذخائر والخبراء، إلى أن قرّر الرئيس المصريّ المرحوم أنور السادات طردهم من البلاد. وكانت حرب تشرين (1973)، لتبلي صواريخ سام البلاء الحسن وتسقط الطائرات كالعصافير ويعبر العرب بالسلاح والتجهيزات والمضخّات الروسيّة التي أطاحت بخطّ بارليف. لكنّ الجيوش المهزومة من الداخل والأنظمة الأكثر انهزامًا، بدّدت روعة الانتصار التاريخيّ بخرق "الدفرسوار" وحصار الجيش الثالث المصريّ، فضلاً عمّا أطلق بعدها من تهم الخيانات والطعن في الظهور من الدول الشقيقة بعضها لبعض.

أظنّ أنّنا لم ننس بعد كيف انقلب العرب والمسلمون على الاتّحاد السوفياتيّ الذي كان من أشدّ المؤيّدين لهم والمتعاطفين معهم، يوم كان العالم ينقسم إلى معسكرين لا ثالث لهما ، الشرقيّ بقيادة موسكو والغربيّ بزعامة واشنطن فما أن انطلقت الحملة ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ إثر غزوه أفغانستان، حتّى نسي

العالمان العربيّ والإسلاميّ جميع فضائل الصديق القديم ومآثره، وأسرعا يلبّيان دعوات الجهاد الأميركيّة قبل العربيّة "لتحرير البلد المسلم من هجمات الدولة الملحدة الكافرة ! (ألم تكن كذلك يوم استقبلنا مساعداتها وهلّلنا لمواقفها؟)، فأرسلا آلاف المتطوّعين لـ "الجهاد"، وجمعا مليارات الأموال لتمويل الحرب ضدّ الغزاة السوفيات الملحدين، إثر "تلاقي" مصالح الغرب مع المسلمين. فكان ما كان من هزيمة الاتّحاد السوفياتيّ ومن ثمّ سقوطه وتفرّد أميركا بفرض هيمنتها على العالم أجمع. وكيف لنا أن ننسى أنّ معظم المقاتلين والمجاهدين الذين ساهموا في إخراج الاتّحاد السوفياتيّ من أفغانستان، ما لبثوا أن أصبحوا ضيوفًا غير مكرّمين في معتقلات غوانتانامو!

لم أكن يومًا شيوعيًا، ولست ممّن يؤيّدون الشموليّة من أيّة جهة أتت، كما أنّني لا أؤيد الحزب الواحد الذي يختصر أصوات الأمّة في صوته، وإرادات الناس في إرادته، ووجود الشعب بوجوده فقط، لأنّني على يقين بأنّ صفة "الواحد والأحد" هي صفة ربانيّة مقدّسة ومن أسماء الله الحسنى التي لا تصحّ لغيره، فضلاً عن إيماني العميق بروعة التعدّد والتنوّع والاختلاف في مجتمعات تضمّ بشرًا لكلّ منهم رأيه وفكره وقناعاته، وليسوا مطبوعة واحدة بملايين النسخ. ولكن عندما نتناول التاريخ، للاضاءة على حقبة من حقباته، فإنّما نشتغل بالعلم والعقل والمنطق، ولا يجوز إلاّ أن نظهر الحقيقة التاريخيّة كما هي، سواء وافقت أمزجتنا وأهواءنا وميولنا أو لم تتفق، وسواء كانت شيوعيّة أو ديموقراطيّة أو رأسماليّة.

هذه أمثولة واحدة من دروس التاريخ الكثيرة، التي لا بدّ أن نتذكّرها، ونحن نرسم برامجنا وخططنا واستراتيجيّاتنا، وسط صراعات وتسابقات عالميّة لا

يهمّها أعداد الضحايا ولا الأيتام ولا المشرّدين ولا الفقراء وهي تزحف فوق أعناقهم لتحقيق أطماعها ومصالحها.

هذا هو ناقوس الحذر والخوف والخطر، أقرعه خوفًا على طائفتي الفقيرة ذات الإمكانات البسيطة مقارنة بالاتّحاد السوفياتيّ طائفتي التي تريد أن تعيد التاريخ وتغيِّر الموازين متناسية أو متجاهلة أنّ العرب "فالج لا تعالج"، وأنّهم زئبقيّون ومزاجيّون في علاقاتهم بالآخرين، تخدعهم الوعود، وتتقاذفهم الأهواء لأنّهم يشرون حاضرهم، على ضعفه وبؤسه وتفاهته، بمستقبلهم، وكأنّهم يعملون ليومهم كأنّهم يموتون غدًا . أرفع صوتي منبّهًا ومحذّرًا، وفاءً لشهدائنا، وضنًّا بأرواح أبنائنا الذين يقدّمون أنفسهم بإيمان وإقدام وشجاعة من أجل شرف الأمّة وتحرير الأرض، ومنعًا لتحمّل المزيد من الخراب والدمار والتهجير والتشرّد.

لقد هيّأ الاتّحاد السوفياتيّ لهذه الأمّة الجاحدة مئات الآلاف من ذوي التعليم العالي، ورفع مستوى الشعوب المستضعفة وحوّل أبناءها إلى طواقم متخصّصة من العلماء والأطبّاء والمهندسين، بدل أن يفتك بهم الجهل والفقر والمرض، الثالوث الذي كان قدرًا لأبناء أمّتنا، وحكرًا عليهم بفضل زعامات دينيّة ودنيويّة، والذي يخلق منهم جيلاً من العاطلين والمجرمين والأزلام والعالات على أوطانهم. وسرعان ما نسي العرب والمسلمون قضيّتهم الأمّ وتخلّوا عنها، وغابت عن عيونهم مشاهد المهجّرين واللاجئين وعذاباتهم من إخوانهم الفلسطينيّين، وهم على مرمى حجر من عواصمهم الغارقة في البذخ والرفاه والبطر، وسافرت أفئدتهم وعقولهم وعيونهم إلى مسافة آلاف الكيلومترات، لينقذوا إسلام أفغانستان من الحملة الشيوعيّة التي لا تعرف الله ولا تطبّق

تعاليمه! وضجّت منابر المساجد في عرض العالم الإسلاميّ وطوله حتّى في مكّة المكرّمة نفسها، بالدعاء والابتهال إلى الله ليمحق الكافرين وينزل بهم الهزيمة والفناء، كما امتلأت قاعات المنتديات والجمعيّات الدينيّة بخطابات التنديد بزحف الكافرين والحضّ على الجهاد وجمع التبرّعات وتجييش النفوس وإرسال الأولاد والشباب للجهاد في أفغانستان وما أن أنهوا مهمّاتهم "المجيدة" من أجل عيون أميركا وأتباعها، حتّى أصبحوا في أوّل قوائم الإرهاب الأميركيّة والعربيّة والباكستانيّة مطلوبين وملاحقين ومعتقلين بحجّة أنّهم يصدّرون ثقافة القتل ويهدّدون سلام العالم وأمنه ولا غرو في أن يكون العرب بسخافاتهم وجهالاتهم وحقدهم وتبعيّتهم، قد ساهموا في دقّ المسمار الأوّل في نعش الاتّحاد السوفياتيّ الذي بدأ يتهاوى بعد ذلك وما هي إلاّ سنة حتّى تفكّكت لحمة اتّحاده وتهاوت الشيوعيّة لتخلو بعدها الساحة للمارد الأميركيّ، ليعدّل خارطة القوى العالميّة تبعًا لمصالحه وأطماعه، وليتحكّم بمصير العالم منفردًا، ويشهد زلازل متوالية من الاجتياحات والاحتلالات وحملات التأديب، إبتداء من قيام نظام طالبان في أفغانستان وانقلاب العرب عليهم، وانتهاء بما يزال يجري في العالم الإسلاميّ كلّه، ولا سيّما في صراعنا مع إسرائيل.

ألا يذكّر سقوط الاتّحاد السوفياتيّ، وما تبعه من تداعيات وزلازل إرتداديّة فادحة، بضياع فلسطين من جرّاء سقوط الدولة العثمانيّة والمساعدة التي قدّمها العرب وقتذاك للإنكليز؟ أليس هناك تشابه بين الحدثين في النتائج الكارثيّة على منطقتنا وعالمنا العربيّ والاسلاميّ؟ إذًا فالمؤامرة قديمة ومستمرّة، والفاعل لا يزال جاهزًا. وإذا ما طلب من هذا الفاعل، وكم هو يتشوق إلى ذلك، أن يقف ضدّ إيران، فالمنابر جاهزة والطبّالون مستعدّون مع تقنيّات ووسائل جديدة للتطبيل، والمجاهدون أيضًا جاهزون والمبرّرات والذرائع كثيرة. ويجب ألاّ نعتقد

أنّ إحتضان القضيّة الفلسطينيّة وتدمير بلادنا من أجلها، أو أنّ تقديم ملايين الدولارات من قبل فقراء إيران إلى إخوانهم من فقراء غزّة، والجهد المضني لنقل المساعدات عبر الأنفاق، سوف يشفع أو يقلّل من حجم التّجييش ونوعه وأطرافه، لا لأنّ إيران شيعيّة، بل لأنّ الأوامر، إذا ما صدرت وبدأت مراكز "البروباغاندا" بالعمل، فلا يعود بعدها أيّ حساب لشيعيّ أو سنّي، أو عدوّ أو صديق، وربّما قد نعرف أين نبدا ولكن لا يمكن أبدًا أن نعرف أين سننتهي.

دعونا نتذكرّ معًا أشرف وأنبل وأشجع مواقف التّاريخ العربيّ، وأنصع صفحاته بطولة وصدقًا وإقدامًا، لأؤكّد لكم مرّة جديدة، جحودنا نحن العرب، وإستهتارنا وإهمالنا لأحداث التّاريخ، لا بل نسيان أروع ما كان يجب أن نحفره في وجداننا ونغرسه في قلوبنا ونجعله منهجًا ومشعلاً لسبيلنا وكياننا تحت ضوء الشمس.

إنّنا أثناء حرب 1973 مع إسرائيل. وإليكم هذا الخطاب القصير الحافل بكلّ معاني الصدق والإيمان والرجولة، والمثقل بغصّة العتب ودموع الحرقة على قدسنا الشريف، والحسرة والقنوط من تقاعس العرب وعجزهم وتقصيرهم:

" إخواني، ماذا ننتظر؟ هل ننتظر الضمير العالمي؟! أين هو الضمير العالمي؟! إنّ القدس الشريف يناديكم ويستغيثكم أيّها الأخوة، لتنقذوه من محنته وممّا ابتلي به. فماذا يخيفنا؟ هل نخشى الموت؟ وهل هناك موت أفضل وأكرم من أن يموت الإنسان مجاهدًا في سبيل الله؟!...

أيّها الأخوة المسلمون، نريدها قومة ونهضة إسلاميّة، لا تدخلها قوميّة ولا عنصريّة ولا حزبيّة، إنّما دعوة إسلامية، دعوة إلى الجهاد في سبيل الله، في سبيل ديننا وعقيدتنا، دفاعًا عن مقدّساتنا وحرماتنا. وأرجو الله سبحانه وتعالى،

إذا كتب لي الموت أن يكتب لي الموت شهيدًا في سبيل الله..وإني أدعو الله مخلصًا إذ لم يكتب لنا الجهاد وتخليص هذه المقدّسات، ألاّ يبقيني لحظة واحدة على هذه الحياة."

كلمات تخرج حارّة صادقة عفويّة من صميم القلب، ممزوجة بالأسى والدموع، من أعظم زعيم عربيّ في تلك الفترة التاريخيّة العصيبة، إنّها كلمات ثائر ليس كبقيّة الثوّار، وبطل ليس كبقيّة الأبطال، إنّها كلمات مواقف الرجال يوم عزّ الرجال، كلمات شهيد القدس والأقصى وفلسطين والكرامة العربية الجريحة، الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربيّة السعوديّة (1964 – 1975)، الذي عمر قلبه بحبّ فلسطين وعزّ العروبة، ففتح خزائن المملكة ووضع كلّ إمكاناتها لدعم الدول العربيّة في حربها ضدّ إسرائيل، وأمر بفتح حسابات الدولة كلّها لتمويل الحرب والتعويض على ما تخسره مصر، صحيح أنّ المملكة ليست الاتحاد السوفياتيّ، ولا تملك الصناعات الحربيّة والعسكريّة لتمدّ الجيوش العربيّة، لكنّها كانت تملك الأموال، وعصب القوّة وشريان الدمّ لكلّ العالم وهو النفط، فلذا وقف، رحمه الله، مهدّدًا ومنفّذًا للمرّة الأولى في تاريخ العرب، العالم الغربيّ وعلى رأسه أميركا، بقطع النفط عنه إذا استمرّ في مساندة إسرائيل. هذا الرجل الملك الذي كان يملك ثروات الدنيا دون أن تمتلكه، والذي طبّق الزهد على حقيقته كما يقول الإمام عليّ عليه السلام: "الزهد ليس في ألا تملك شيئًا، بل في ألاّ يملكك شيء." هو نفسه الذي لم تغره مباهج الدنيا وسلطانها، فقرع آذان كيسنجر (هنري)، وزير خارجيّة أميركا آنذاك، قائلاً لدى استقباله له في خيام في وسط الصحراء: "هل ترى هذه الأشجار. لقد عاش آباؤنا وأجدادنا مئات السنين يأكلون ثمارها، كنّا وما نزال بدوًا نعيش في الخيام، غذاؤنا التمر والماء، ومستعدّون للعودة إلى ما كنّا عليه، أما أنتم

الغربيّون فيل تستطيعون أن تعيشوا بدون نفط" وكانت كلمته البطوليّة تلك، هي الرصاصة التي قضت عليه بعد ذلك.

أجل إنه الملك الشهيد فيصل رحمه الله، الذي قدّم ملكه وماله وحياته من أجل العرب وفلسطين، يوم كانت الأسرار العسكريّة تباع في أسواق النخاسة، والذي زرع الرعب والخوف في قلب العالم، حتّى قيل عنه في الصحف الغربيّة: "إنّه بلغ من القوّة الجماهيريّة، ما جعله يستطيع بحركة واحدة من قبضة يده أن يشلّ الصناعة الأوروبيّة والأميركيّة."

إنّه الملك فيصل، شهيد القضيّة المقدّسة، الذي أعلنها دعوة جهاديّة إسلاميّة بعد أن رأى "حرمنا ومقدّساتنا تنتهك وتستباح وتمثّل فيها المخازي والمعاصي والانحلال الخلقيّ"، والذي وصفه الرئيس المصريّ الراحل "أنور السادات"، بأنّه بطل معركة العبور.

إنّه الملك فيصل، الملك العربيّ المسلم، الذي دفع حياته ثمنًا لمواقفه الجريئة والبطوليّة والفريدة، حين تمّ اغتياله عام 1975. لم يكن زعيمًا أجنبيًّا ولا سوفياتيًّا ولا شيوعيًّا، إنّه ابن هذه الأرض وابن هذه القضيّة وابن هذه الأمّة وشقيق هؤلاء الحكّام والزعماء والقادة، ومع هذا، فقد غاب الملك فيصل وطويت صفحة تاريخه دون أن نجد كتابًا واحدًا في دولنا العربيّة يذكر هذا القائد الفذّ المخلص، وهذا الأستاذ الذي يعلّم الرجولة والشهامة والإيمان والتحدّي. إنّه عالمنا العاقّ الجاحد والناكر ذو الذاكرة الهوائيّة الفارغة، والذي لا يجرؤ على تذكّر عظمائه وأبطاله وحفظ رسالاتهم ودعواتهم ومواقفهم، لكي لا تسقط أوراق التوت عن عوراته فيظهر أمام الملأ عجزه وقصوره ويكشف على

مرأى الدنيا كذب المدّعين والمزايدين والنافخين زورًا في قِرَب الوفاء للأوطان والقضيّة.

رحمة الله عليك أيّها القائد الشهيد، فها هي نداءاتك المجروحة والدامية والمجلّلة بدموع الكبار، تتحوّل إلى حلبات سباق يتبارى فيها نظراؤك، زعماء هذه الأيام، في تقاذف التهم والخيانات والمؤامرات والحروب. وها نحن بعد رحيلك، نشهد نكبات فلسطينيّة أخرى، وما يزال الحبل على "الجرّار" والآتي أعظم والعياذ بالله.

فأين نحن من التاريخ؟ وأين نحن من الوفاء؟!...

إذا كان التاريخ ذاكرة الأمم كما يعرّف، وإذا كان التاريخ خزّان التجربة الإنسانيّة وخبراتها، وإذا كان التاريخ للدراسة والتأمّل والتفكّر لاستخراج العبر والدروس وليس ملهاة للقراءة والترف الثقافيّ فقط، كما هو سائد في بلادنا فإنّ ما جرى وما نشهده جاريًا، لا سيّما في طائفتنا الشيعيّة، وكأنّنا مخلوقات مثاليّة منزوعة من خارج الزمان والمكان، أي من خارج التاريخ وظروفه وبيئته وأحكامه، يدلّ دلالة واضحة، أقلّه بالنسبة إلينا، أنّنا طائفة بلا ذاكرة، لأنّ الأمّة التي تهمل قراءة التاريخ لا تحسن قيادة حاضرها ولا صياغة مستقبلها على حدّ قول أحد المؤرّخين.

يقول "أرنولد توينبي" بهذا الصدد: "إنّ الذين يقرأون التاريخ ولا يتعلّمون منه، أناس فقدوا الإحساس بالحياة، وإنّهم اختاروا الموت هربًا من محاسبة النفس أو صحوة الضمير والحسّ." فهل كان توينبي يصفنا في ما قال؟ فمتى يحين الوقت لنواجه حقائق ا لتاريخ، ونبني عليها آفاق تحرّكنا، ونتبع إتّجاه البوصلة

الصحيح، ونؤسّس رؤية واضحة لمستقبل بلادنا وأجيالنا، لكي نبدأ معركة البناء والتنمية بالسواعد والعقول؟ أرجو ألاّ يكون ذلك بعيدًا، لأنّ النزف المستمرّ في طاقاتنا وإمكاناتنا يهدّد وجودنا ودورنا وإنجازاتنا ا لتي كلّفت الكثير الكثير، في الوقت الذي يتابع شركاؤنا في الوطن، والعالم من حولنا، مسيرتهم نحو تأهيل أبنائهم وتنمية مناطقهم وتوسيع رقعة نفوذهم في غفلة غرقنا وانهماكنا بكتابة تاريخ جديد للعرب وللمنطقة، بدمّ أبنائنا ودمار قرانا وتعطّل حركة التنمية والتقدّم عن مناطقنا، كما في جنوح أوهامنا لعقد تحالفات غير متوازنة مع ظروفنا وواقعنا، وتقرير خصومات مع جهات عربيّة ودوليّة هي فوق طاقاتنا بكثير ولا يمكن لطائفتنا أن تتحمّل تبعاتها ومخاطرها، أولاً لأنّها خارج الاجماع الوطنيّ، وثانيًا لأنّها مستولدة، كما في أكثر حقبات سذاجتنا التاريخيّة، على وقع الطبول الفارغة واللعب على عواطف الجماهير البريئة، دون تقدير للنتائج والعواقب الوخيمة المترتّبة عليها.

أعتقد أنّ الوقت قد حان لنقف وقفة حقّ مع الذات، ونرى ببصيرتنا ما لم نره بأبصارنا، ونعلم أنّ الذي يربح العالم قاطبة ويخسر نفسه، ليس برابح. وندرك أنّنا، إذا كنّا قد اخترنا مكان الدار والإقامة فيها، فإنّه لم يكن لنا خيار في من يجاورنا ويشاركنا في الوطن. وما لم ندرك ذلك حقًّا، فإنّ كلّ مكتسبات الواقع، وهي لا شكّ جديرة بالإشادة والتنويه، لن تكون مضمونة الاستمرار والديمومة وليس عبثًا أن قيل: "جارك القريب ولا أخاك البعيد. وإذا كان جارك بخير فأنت أيضًا بخير، والعكس صحيح أيضاً ." فإذا اتّخذنا ممّا حصل مع الاتّحاد السوفياتيّ عبرة ودرسًا، فعلينا، نحن الشيعة، أن نفهم العلاقة بإيران من منطلقها الوطنيّ وبعدها الإقليميّ، مع الفارق الكبير بين ما كان عليه الاتّحاد السوفياتيّ، أحد القطبين الجبّارين في العالم، وما هي عليه إيران التي ما تزال

تواجه أعباء جمّة، سواء داخل المجتمع الإيرانيّ أو على مستوى الوضع الدوليّ، في عالم يسوده قطب واحد، على الأقلّ آنيًا وإلى وقت قادم قصر أو طال. لا شكّ أنّ اهتمام موسكو الشيوعيّة بمنطقتنا أو بغيرنا من شعوب العالم في ذلك الوقت، لم يكن مبعثه خالصًا لوجه الإنسانيّة والله، فقد كانت لها أهداف ذاتيّة، منها القضاء على العالم الرأسماليّ، وإنهاء الفوارق بين الشعوب والدول تمهيدًا للقضاء على الحكومات الدوليّة في أقطارها وانتها ء بإقامة الدولة الشيوعيّة العالميّة.

إنّ مفخرة الشيعيّ الجنوبيّ في ما حقّقه من انتصارات في معارك التحرير القتاليّ والاجتماعيّ يجب ألاّ تضيع سدًى، أو أن تجيّر لغير صالحه المجتمعيّ وتحسين أوضاعه في الجنوب والبقاع . فالثمن الذي دفعه من دمه وماله ووجوده يبقى رمز عزّة الوطن واستقلاله. وقد آن الآوان كي يقطف ثماره، ويتكاتف للنهوض وإقامة المشاريع الكبرى من مرفأ إلى كهرباء إلى ماء نظيفة إلى شوارع، حيث إنّ الشوارع الفارهة أي الأوتسترادات تنتهي حيث يبدأ الجنوب،والبقاع والهرمل، وهذا إجحاف صارخ ووصمة عار في جبين الكثيرين من الذين ارتضوا لأهلنا ذلك وآمل مخلصًا مع كلّ تحفّظاتي على سلوك البعض، أن تبدأ مرحلة البناء الفعليّ في جنوبنا الغالي، ووضع أسس البنية التحتيّة فيه أسوة بباقي مناطق لبنان، ولا أقول في المجتمعات الغربيّة مع طموحي لذلك.

ذكرت في مقدّمة الكتاب أن ألمانيا إستطاعت، بفضل إرادة شعبها وتعاضده وتطلّعه للمستقبل، وبفضل ما قدّمه مشروع "مارشال" الأميركيّ من مساعدات، أن تعيد بناء ما دمّرته الحرب في أقلّ من عشر سنوات، لتصبح في طليعة

الدول الأوروبيّة صناعة وأمنًا وتقنمًا، كما أضحت مثار إعجاب العالم أجمع

فماذا عن مشروع "مارشال" العربيّ الذي قدّمت فيه دول عربيّة خليجيّة وإيران عشرات الملايين إن لم يكن مئات لإعمار ما دمّرته آلة الموت والدمار الإسرائيليَّة في أماكن تواجد أبناء طائفتنا الشيعيّة؟ ! تمرّ السنون لنرى قصورًا ترتفع، ومنازل أهلنا ما تزال تنتظر رحمة الله وعطف ولاة الأمور. أعرف أنّ الدمار هائل، وأنّ هناك من المخلصين الذين يعملون ليل نهار، وهذا ما لمسته في خلال زيارتي إلى بنت جبيل ولقاء رئيس بلديّتها، لكنّ الأصوات بدأت تتصاعد، لا لكي تتحدث عن ماض لا يمكن لنا أن نغيّر فيه شيئًا، بل عن مستقبل أتمنّى أن ننظر إليه بحذر وتأنٍ وأن نكون واقعيّين، وألاّ نكون ملكيّين أكثر من الملك نفسه.

فيا أخي الشيعيّ، ماذا عساني أقول والألم غصّات في القلب وحرقة في الوجدان، سوى:

"إِلَى المَاءِ يَسْعَى مِنْ يغُصُّ بِلُقْمَةٍ فَإِلَى أيْنَ يسْعَى مَنْ يَغُصُّ بِمَاءٍ؟"

حقًّا إلى مَن نلجأ ونسعى؟!

ننظر إلى الجنوب الصامد المؤمن الذي دفع ضريبة الوجود من دمه ثمّ من ماله فإذا به مناظر "تَكْذِبُ فِيهَا العَيْنُ وَالأُذُنُ". وإذا سألت عن التقدم والتنمية في مناطقنا في عصر العولمة والتقدّم و "سيادة القانون"، في بلد "الديموقراطيّة التوافقيّة"، وإذاسألت عن من يسهر على مصالح الطائفة هل الأكفأ أم الأكثر إخلاصًا أو تأهيلاً، أم المحاسيب والأزلام؟ يرتدّ عليك السؤال، وتردّد في سرّك

خشية أن تتّهم بأنك تشقّ عصا الطاعة على الطائفة : "نَحْنُ أدْرَى وَقَدْ سَألْنَا (بِصَمْتٍ) أطَوِيْلٌ طَرِيْقُنَا أمْ يَطُولُ؟"

لقد آليت على نفسي أن أكون في طليعة مَن ينبّه للخطر المحدق بطائفتي العزيزة الكريمة من جرّاء واقعها السياسيّ المؤلم في الوطن ولكي يدرك أهلنا بأنّنا لسنا في خطر على مذهبنا وعقيدتنا كي نختلق الذرائع والمبرّرات لارتباطات وتحالفات داخليّة وخارجيّة مصيرها الفشل والخذلان مهما طال الأمد. ولكي يفهم القريب والبعيد أنّ الشيعيّ كالماء، عندما تشتدّ عليه الحرارة، يتبخّر ولا ينتهي، فيرتفع إلى الأجواء ليعود قطرات تحيي الأرض اليباس، وتشكل الجداول التي تتجمع لتصبح أنهارًا هادرة تسبّح للخالق وتدين بالإسلام وتسير على خطى آل بيت محمّد عليهم الصلاة والسلام.

جميل أن أنهي فصل "متى نقرأ التاريخ!" بقول من كتاب الله، وبآخر من تراثنا الزاخر بالعبر والأمثال والحكم والأجمل أن نتدبّر ما نقرأ، ونستوعبه ونتمثّله فعلاً صادقًا في سلوكنا ومسار حياتنا. يقول الباريء جلّ وعلا في سورة الأعلى: **{فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى}**. وها أنا فاعل راجيًا أن تنفع.

ومن التراث، أعود لشاعر جاهليّ يحثّ قومه على التماسك والتعاضد في ما بينهم، وأن يكون لهم أولو أمرٍ منهم يصلحون شأنهم حتّى لا يسود جهّالهم عليهم. ولم يرَ بدًا من إظهار سخطه على بني قومه بشعور الغضب والانفعال، لما آلت إليه حالة السلطة في عشيرته، وكأنّني به يصف حالنا بعد أكثر من ألفي عام على إطلاق قصيدته إنّها دعوة إصلاح وهداية لكلّ ذي لبّ سليم. يقول "الأفوه الأوديّ"، الشاعر الجاهليّ:

"أَمَارَةُ الغَيِّ أنْ تَلْقَى الجَمِيعَ لَدَى الإبْرَامِ لِلأَمْرِ وَالأَذْنَابُ أَكْتَادُ

حَانَ الرَّحِيلُ إلَى قَوْمٍ وَإنْ بَعُدُوا مِنْهُمْ صَلاحٌ لِمُرْتَادٍ وَإرْشَادُ

فَسَوْفَ أَجْعَلُ بُعْدَ الأَرْضِ دُونَكُمُ وَإنْ دَنَتْ رَحِمٌ مِنْكُمْ وَمِيلادُ

إنَّ النَّجَاءَ إذَا مَا كُنْتَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَجَّةِ الغَيِّ إبْعَادٌ فَإبْعَادُ

وَالخَيْرُ تَزْدَادُ مِنْهُ مَا لَقِيتَ بِهِ وَالشَّرُّ يَكْفِيكَ مِنْهُ قَلَّ مَا زَادُ

وَالبَيْتُ لا يُبْتَنَى إلا لَهُ عَمَدٌ وَلا عِمَادَ إذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ

فَإنْ تَجَمَّعَ أَوْتَادٌ وَأَعْمِدَةٌ وَسَاكِنٌ بَلَغُوا الأَمْرَ الَّذِي كَادُوا

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لا سَرَاةَ لَهُمْ وَلا سَرَاةَ إذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

تُهْدَى الأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلُحَتْ فَإنْ تَوَلَّتْ فَبِالأَشْرَارِ تَنْقَادُ

إذَا تَوَلَّى سَرَاةُ النَّاسِ أَمْرَهُمُ نَمَا عَلَى ذَاكَ أَمْرُ القَوْمِ فَازْدَادُوا

فِينَا مَعَاشِرُ لَمْ يَبْنُوا لِقَوْمِهِمُ وَإنْ بَنَى قَوْمُهُمْ مَا أَفْسَدُوا عَادُوا

لا يَرْشُدُونَ وَلَنْ يَرْعَوْا لِمُرْشِدِهِمْ وَالجَهْلُ مِنْهُمْ مَعًا وَالغَيُّ مِيعَادُ

أَضْحَوْا كَقَيْلِ بْنِ عَمْرٍو فِي عَشِيرَتِهِ إذْ أُهْلِكَتْ بِالَّذِي سَدَّى لَهُمْ عَادُ

أَوْ بَعْدَهُ كَقُدَارٍ حِينَ تَابَعَهُ عَلَى الغَوَايَةِ أَقْوَامٌ فَقَدْ بَادُوا."

حقًّا متى نقرأ التاريخ لنتعلّم؟...

32

إتّقوا الله في رسوله "وأهل بيته" عليهم أفضل الصلاة والسلام

لَقد كرّم الله سبحانه وتعالى أهل البيت عليهم السلا م أجمعين، وخصّهم بمنزلة لا يرتقي لها أيّ من البشر بعدهم، وأكّد ذلك في قوله عزّ وجلّ في سورة "الأحزاب": "{إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}.

يصف الله سبحانه وتعالى في سورة "الحجرات" الذين يدّعون ما ليس فيهم {وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}. ويقول جلّ من قائل في سورة "الأحزاب": {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، ومن كانت له أسوة حسنة في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، له في أهل بيته أسوة حسنة أيضًا. فالذين يريدون لقاء وجه الله بقلوب مؤمنة سليمة طاهرة، وأكّدوا ذلك في سلوكهم، عليهم ألاّ يجعلوا آل البيت الأطهار المكرّمين عرضة لأهوائهم ونزغات شياطينهم. ولأنّ اسم "آل البيت"، وصفاتهم وأسماء مَن خصّهم الله بها غدت محصورة بأهل الطائفة الشيعيّة ولا سيّما في لبنان، وجب على مَن يتّخذ منهم شعارًا أو صفة أن يرتفع إلى مستوى قدرهم ومنزلتهم، وإلاّ أن يكفّ عن إقحام أسمائهم الشريفة وصفاتهم المطهّرة في أمور دنيويّة ، تجعلهم عرضة لأهواء المستغلّين والسماسرة والذين يبيعون كلام الله بثمن بخسٍ. هؤلاء، وبئس مَن هم، يتّخذون من "آل البيت" الأطهار "ماركة مسجّلة" أو علامة تجاريّة فارقة لتحقيق مآرب خاصّة ومكاسب أبعد ما تكون عن الدين وتعاليم مذهبنا الشيعيّ الذي كان الهدى والبيان على مرّ عصور الإسلام.

لماذا لا نترك اسم من أُرسل رحمة للعالمين نقيًّا صافيًا بعيدًا عن التداول الدنيويّ التجاريّ الرخيص؟ كما أنّ هناك من الأسماء للمشاريع الربحيّة والخيريّة ما يِعدّ بالملايين.

إنّ إقامة المستشفيات أو المستوصفات أو مراكز الرعاية الاجتماعيّة والخدمات الإنسانيّة والثقافيّة وغيرها، هي من الإنجازات الرائعة التي تستحقّ كل التقدير والتشجيع والدعم، ونحن كنّا وما زلنا، في مقدّمة المؤيدين والحاضنين على إنشاء مثل هذه المؤسّسات التي من شأنها تقديم العون للمعوزين والمرضى والعاجزين، وتوفير التعليم والتأهيل لأطفالنا وأبناء طائفتنا . كما أننا نثمّن عاليًا ما قدمته، ولا تزال تقدّمه، هذه المؤسّسات الإستشفائيّة من خدمات صحيّة هامّة لأهلنا ومناطقنا، وما يبذله القائمون عليها من جهد وسهر ومتابعة من أجل تطويرها وتجهيزها وتحديثها وتوسيع تخصّصاتها وخدماتها.

نحن مع كلّ هذه المشاريع والمؤسّسات ونشدّ على جميع الأيدي التي ساهمت برفعها وإقامتها. ولكن علينا أن نعي في الوقت نفسه، أنّ أيًّا من هذه المشاريع، عندما يوسم بأسماء الرسول العظيم وآل بيته الأطهار وغيرهم ممّن يتوشّحون بصفات القداسة والعصمة والطهارة والعفّة، لا يجوز أبدًا ومهما كانت الظروف والأحوال، أن يفتقد جزءاً من هذا الصفات السامية والمعاني الجليلة والمبادئ الرفيعة، كما لا يجوز أبدًا أن تفتقد أساس الرحمة التي أقيمت هذه المشاريع باسمها، ومبدأ الخدمة العامّة لوجه الله تعالى، على غرار الكثير من المؤسّسات والجمعيّات والهيئات المحليّة أو الدوليّة، التي نذرت نفسها ومتطوّعيها أو العاملين فيها من أجل خدمة الإنسان دون قيد أو شرط، كجمعيّات الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر، وغيرها من الهيئات الخيريّة للإنقاذ والإغاثة وتكفّل

الأيتام والفقراء على سبيل المثال، والتي لا تتوانى لحظة عن المسارعة لأداء واجبها تحت كلّ الظروف ولجميع الناس.

وأؤكّد مجدّدًا، أنّنا عندما ننادي بتنزيه أسماء أئمّتنا وأطهارنا عن أعمالنا الدنيويّة، فليس من أجل التقليل من أهميّة ودور هذه الأعمال، إنّما من أجل الحفاظ على شرف هذه الأسماء ونقاوتها وقيمها، وكي لا تكون وسيلة لدى قليلي الذمّة والدين لتحقيق المكاسب والمصالح . ولنتّخذ من الأسماء ما نشاء، وإذا ما تمّ خطأ أو تقصير أو إساءة، فليلحق ذلك بصاحب الاسم وليس بالأشراف المطهّرين.

إنّ الذين امتهنوا تعاليم الدين وحوّلوها إلى تجارة رابحة في دنياهم، ليخسروا بها الآخرة والأجر والثواب، غدوا كالطحالب ينمون ويتكاثرون، ويظنّون أنّهم يخدعون أبناء الطائفة الشيعيّة عامّة، وما يخدعون إلاّ أنفسهم. لقد عاثوا بأشرف الأسماء والصفات فسادًا، وليس هناك مَن يحاسبهم ولا مَن يردعهم، وكأنّ ولاة الأمور، ورجال الدين تحديدًا إمّا عاجزون عن ردع هؤلاء، أو أنّهم غير عابئين بما يقترفون مَن إساءات برموز طائفتنا، وتراثهم الذي نفخر بالتمسّك به. أو أنّهم راضون عن ذلك، وهذه مصيبة لو صحّت!.

آل بيت رسول الله عليه السلام أجمعين، الذين جلّلهم بكسائه الشريف، هم إرثنا الطاهر وكنزنا القيميّ الأخلاقيّ الثمين، هم عترتنا والنهج الذي نقتدي به والنور الذي يهدي إلى سواء السبيل. تاريخهم تاريخ أناس نذروا لله، ودافعوا عن الحقّ في وجه البغي والضلال، وآثروا الموت في سبيل الله وإعلاء كلمته على الحياة في غير ما أمر الله . فهذا الإمام الحسين سيّد رجال الجنّة يقول "**ما خرجتُ أشِرًا ولا بطِرًا   إنّما خرجت لطلب الإصلاحِ في أمّة جدّي** ." ولمّا

كانت ساعة الحسم والثبات على دين الله، ولا خيار فيه قال حفيد رسول الله : "**إن كان دين محمّد لا يستقيم إلاّ بقتلي، فيا سيوفَ خُذيني** ." هكذا كان آل البيت الأطهار، وهكذا يجب أن يكون من يقتفي أثرهم الطيّب . ولكن ما نشاهد من آثام المدّعين، وإجحاف المبدعين تجعلنا نقف حائرين أنكذّب ما ترى العيون، ونشكّ بما تسمع الآذان!؟

لقد أدرك هؤلاء السماسرة والمضاربون كم هي عزيزة على نفس الشيعيّ هذه الأسماء والصفات، فعملوا على احتكارها لاستغلال ابن الطائفة الذي أرهقه العناء في الوطن وهدّت كاهله المعاناة في المهجر . يعمل ليلاً نهارًا، ويضحّي براحة الجسد والنفس من أجل بناء أسرة في الوطن البديل يبعد عنها شبح الفقر والعوز اللذين أذاقاه مرّ الحياة في الوطن الأصيل، ليجد نفسه لقمة سائغة وسلعة رائجة في أيدي المضاربين الذين يوهمونه بأنّ مساهمته الماديّة في المشاريع الخيريّة التجاريّة ا لتي تحمل أسماء آل البيت أو صفاتهم، بالإضافة إلى الربح الماديّ الذي سيعود عليه، سينال رضى الله والأئمّة الصالحين، ويساعد أبناء طائفته الذين لم يسعدهم الحظّ، فلم يتمكّنوا من مغادرة الوطن. ولأنّ الشيعيّ لا يتردّد عن فعل الخير ومساعدة من هم في حاجة، ينصاع لفيض الأكاذيب التي تنطلي عليه باسم الدين والأئمّة الصالحين، ويساهم بما توفّر له من مال يدّخره لشيخوخته. وإذا به يفاجأ أنّ شركة كذا وكذا التي تحمل اسم آل البيت قد اختفت واختفت معها مبالغ طائلة تركت المساهمين فيها "ربّ كما خلقتني". وليس من مرجع يشكون له ما أحاق بهم. يختفي الجاني إلى حين ليظهر في لبوس آخر، وتعاد الكرّة من جديد . وأعتقد أنّ لا داعي لذكر الأسماء أو تعداد حالات في الوطن والمهجر ذهبت معها ملايين الدولارات، ونكبت فيها مئات العائلات . هذا بالنسبة إلى من يجعل الله عرضة لإيمانهم،

ويجعلون آل البيت ضحيّة صفقاتهم التجاريّة التي جعلوها مظلّة لنشاطاتهم واختلاساتهم.

وكان الله معك أيّها اللبنانيّ المعذب، والشيعيّ الذي كتب عليه دوام الشقاء والمعاناة.

والسلام عليك ورحمة الله، وأنت عائد من "كوتونو"، (كارثة تحطم الطائرة في كانون الأول / ديسمبر 2003، وبين ركّابها 87 لبنانيًّا)، على متن رحلة الفاجعة كنت فيها تحصي الثواني للقاء الأهل والأحبّة، لكنّ اللقاء كان أسبق مع الحبيب الأعلى، فاستقبل الوطن جثمانك بالعويل والنحيب . والسلام عليك، وأنت مغادر إلى "أثيوبيا" (كارثة تحطم الطائرة الأثيوبيّة في كانون الثاني / يناير 2010، وبين ركّابها 54 لبنانيًّا) للّحاق برزقك، فإذا بك تلقى وجه ربك في غياهب اللجّة، بعد لحظات من وداع الأحبة، ويستعيدك بحر بلادك جثّة في أحشائه، وتبقى حياتك معلقة على الجلجلة بين رحلة الموت والموت، وتبقى اللوعة جمرة متّقدة تكوي قلوب الأهل وتوشّح قرانا بالسواد ليزداد عدد الأيتام والأرامل والمفجوعين، ويتصدّر السياسيّون، الذين كانوا سبب بلائك ومحنتك وكوارثك، الشاشات للتصريح والمشاركة في مراسم الدفن والعزاء، فيما تنهمك العائلات المنكوبة بتقديم واجب والشكر حتى تستمر بركات فضائلهم، دون أن يتجرّأ سؤال واحد على الانفجار في وجه أحدهم ليسأل عن الأسباب التي قذفت بأبنائنا وآبائنا بعيدًا عن العيش الكريم بين الأحبّة.

وإنّي أعتقد أنّه لو أتيح المجال لإنشاء مركز مستقلّ للتخطيط والدراسات على أسس علميّة واقعيّة، ترصد حاجات وطننا ومنطقتنا، وتضع الخطط والتصوّرات والبرامج والأولويّات لتأمين هذه الحاجات، وانطلق مئات الرجال والنساء من

مغتربينا الأبطال المبدعين، الذين اكتسبوا خبرات طويلة وحديثة خاصّة في مجالات الصناعة والإدارة والتنظيم وغيرها، للمساهمة في عمليّة البناء والإعمار، ولو وقف زعماؤنا وقفة حاسمة ومسؤولة من أجل إنجاز البنية التحتيّة الملائمة والضروريّة لكل منطقة تبعًا لموقعها وظروفها وبيئتها وخصائصها، ولو توفّر السلام والقوّة التي تحمي السلام وتحمي الإنجاز، لتغيّر الوضع تغيّرًا جذريًا، ولما تجرأ أحد على استغلال قيم الدين وصفات الأئمّة الطاهرين في الأسواق وترويج البضائع والخدمات والسلع.

أمّا مَن جعل الدين تجارة في المهجر، فذاك شأن آخر. تُقام المراكز الإسلاميّة والجمعيّات تحت شعار الحرص على أبناء الجالية والعمل على وحدتها وتراصّ صفوفها. وما أن يتمّ جمع المال الذي يفي لإقامة المركز، وغالبًا ما يتحمّل معظم تكاليفه نفر قليل من أبناء الجالية الميسورين الذين هم عرضة لأغراض الفاشلين الذين يتّخذون من الدين قناعًا، حتّى يتجمّع هؤلاء، ويتنكّرون أنّ الديموقراطيّة هي الأمثل لاختيار القائمين على شؤون هذا المركز وبـ "الديموقراطيّة" يصل بعض الذين تحلّلوا من صفات آل البيت، وإن أظهروا مكر الثعلب الذي أصرّ على أن يؤمّ الديك صلاة الصبح ! وسبحان الله، بين ليلة وضحاها يصبح هؤلاء دون سواهم، القائمين على أمور ديننا في المهجر ولأنّ الشرفاء والمخلصين الذين يعملون لله تعالى، لا يفهمون ولا يدركون أساليب الدجّالين وخططهم ومشاريعهم وغاياتهم، فإنّهم يجدون أنفسهم، إمّا متورّطين بالعمل معهم فريقًا واحدًا، أو أن يبتعدوا عنهم ويتركوهم وينأوا بأنفسهم عن الهبوط إلى مستوى الدجّالين، لكي يتحاشوا تلطيخ سمعتهم، بمن لا رادع من دين عندهم ولا وازع من أخلاق، فتخلو بذلك الساحة.

وحتّى أبتعد عن العموميّات في ما أقول، أرى لزامًا عليّ أن أذكر مثالاً حيًّا عمّا أودّ لفت الأنظار إليه . كان والدي رحمه الله يحضّني دائمًا، وفي كلّ بلد نحلّ فيه، على المساهمة في إنشاء مركز إسلاميّ لإيمانه بضرورة إيجاد مكان يضمّنا ونجمتع فيه، ولا سيّما عند حصول وفاة أحد أبناء جاليتنا. كان همّه الأوّل المحافظة على تقاليدنا وعاداتنا المرتكزة على تعاليم عقيدتنا الدينيّة التي يجب التمسّك بها حتّى لا تتأثّر أو تندثر من جرّاء التقاليد السائدة في المجتمعات الجديدة التي نعيش فيها، وهي بالطبع غير إسلاميّة . وقد كانت الثقة التي اكتسبها فضيلة الشيخ علي "أبو ريّا"، وحبّ آل البيت في اوتوا كندا هما الدافع لتقديم الغالي والنفيس. ومن المفارقات الغريبه أنّه ما أن ينتهي هذا الشيخ الجليل من التأسيس حتى يمنع من العيش في كندا. لقد كانت التهمة التي حاكها فاقدو الضمير، كبيرة وخطيرة إلى درجة لم نفلح معها، رغم كلّ اتّصالاتنا مع السلطات، ونحن على ثقة تامّة ببراءته من أيّ اتّهام، ورغم إصرارنا على ضرورة وجوده لكفّ يد الباحثين عن المكاسب الماديّة والمعنويّة . لذا فلن أدّخر فرصة أو جهدًا لإثارة قضية هذا المؤمن المظلوم، وإعادة الحقّ لأصحابه. وأملنا كبير با لله وبالعدالة، أن نوفّق لأنّنا بأمسّ الحاجة إلى رجل دين بقامة الشيخ "أبو ريّا" وعلمه ونشاطه وحكمته وتواضعه ودرايته وفراسته وأقول بصدق إنّه لو بقي في هذه البلاد لتغيّر حالنا من حال إلى حال. ولا ننسى أنّه في علم الجريمه يقولون دائمًا: (فتّش عن المستفيد)!...

وهنا أريد أن أضيء على مسألة هامّة بل في غاية الخطورة والأهميّة، نظرًا لما تتركه من آثار سلبيّة على تحرّكاتنا الإغترابيّة من أجل وطننا وبلداتنا، وهي أنّه في الوقت الذي يُطلب منّا أن نوظّف علاقاتنا ونستثمر مواقعنا ونكرّس نفوذنا في المغتربات لخدمة الوطن والطائفة التي هي جزء من الوطن، فإنّ مسؤولي

الطائفة السياسيّين، والذين يستقبلون سفراء الدول المختلفة، لا يهتمّون ولا يبدون أيّ مبادرة للتدخّل من أجل إيجاد حلّ لمشاكل الطائفة في بلاد الإغتراب، والتي يتسبّب بها احيانا أحد أتباعهم ومبعوثيهم، ولا يهمّهم إذا ما بقي مركزًا إسلاميًّا بدون إمام لسنوات عدّة مثلاً، أو أنّ مركزًا إسلاميًّا قد تحوّل إلى سلّم للارتقاء ومصدر للكسب لقد آن الآوان لكي ننتهي من النظر إلى الجاليات على أنّها بقرة حلوب، تجمع من خلالها الأموال ويستخدم حضورها ومركزها لقيام المشاريع والمراكز والجمعيّات، ثم تنسب إقامتها إلى زعامات دينيّة في الوطن أو لأنصارهم في المهجر وهذا ما ترك أثرًا وخيمًا على واقع جاليتنا سواء في علاقتها في ما بين عائلاتها وأبنائها، أو ما بينها وبين الجهات الرسميّة في الدولة المعنيّة، وفي كلا الحالتين كانت هذه النتائج وبالاً على الطائفة والوطن.

لم يتعدّ تفكير الوالد والمخلصين من الطائفه هذا الأمر، إذ أنّه من خلال معايشته الواقع، أدرك أنّ أيّ مشروع دينيّ خيريّ يجب أن يأخذ بالحسبان وضع الجالية ومقدرتها على تحمّل أعباء الاستمرار بالمركز وصيانته وتكاليف الإشراف عليه. وأنّ أيّ مشروع لا يضع ذلك في مخطّطه مآله إمّا إرهاق الجالية بما لا تقدر عليه أو تدنّي مستوى المركز، وانتفاء جدواه، ليصبح مجرّد بناء يحمل اسمًا دينيًّا تراثيًّا جليلاً دون أن يتمثّل جوهر الاسم، ولا سيّما إذا كان ذا دلالة مذهبيّة سامية كآل البيت عليهم السلام أجمعين لذا، أراد أن يكون ملتقى أبناء جاليتنا ولا سيّما كبار السنّ لقضاء أوقات فراغهم يتبادلون فيه أحاديث الوطن وذكرياته، وتبادل المعلومات الدينيّة التي نشأوا عليها، لترسيخها في نفوسهم وإبقائها حيّة ليتناقلها الأبناء ومنهم إلى أحفادهم المولودين في مجتمعات لا تلتزم بتلك التعاليم على أكثر الاحتمالات.

أراد رحمه الله أن نساهم لإيجاد مركز، يواسي أبناءنا المغتربين في أتراحهم، ويشاركهم في أفراحهم. مركز تتضافر فيه الجهود وأيدي الخير والتبرّع والسخاء إذا ما دعت ضرورةٍ لذلك، كإرسال جثمان متوفٍ أوصى أن يُدفن في تراب الوطن، أو الحثّ على تقديم المعونة وإغاثة المحتاج من أبناء الوطن . أراده مركزًا يؤمّه الجيل الصاعد من أبناء الجالية للتسلية يتعارفون ويتآلفون ويتعرّفون إلى واجباتهم الدينية بيسرٍ ولين وبدون إكراه ولكن عندما ينحصر تفكير نفر في كيفيّة استغلال الاسم واللعب على العواطف والمشاعر المذهبيّة، يصبح الدافع الذاتيّ هو المحرّك والمعيار . وهذا ما كان. فمشروع إنشاء مركز إسلاميّ في بلاد الاغتراب يفكّر فيه الحالمون كالشيخ "أبو ريا" مع ثلّة من الأخيار، وينشئه المقتدرون ، ما مكّن قيام المراكز في كندا كما في إفريقيا وكما في أوروبا، فيأتي من يرتدي زيّ الدين، ويدّعيه لنفسه، ثمّ يستغلّه المنتفعون. وما هو إلاّ بعض وقت حتّى يضع هؤلاء الطارئون سياسة المركز ويحكمون القبضة عليه، ولأنّه يحمل اسم أهل البيت عليهم أفضل السلام، يصبحون فوق النقد معصومين والعياذ بالله.

ولأنّ الهدف كما ذكرت ذاتيّ، فإنّهم يتبنّون مشاريع ظاهرها الحرص على الجالية ومنفعتها وفائدتها، بينما هي في واقع الأمر مفصّلة على مقاس واضعيها. فعلى سبيل المثال، أنشئت في المراكز مشاريع تقدّر خسارتها بعشرات آلاف الدولارات سنويًّا، بينما تُفرض على أولياء التلاميذ الذين يرسلون أبناءهم لتعلّم اللغة العربيّة ودين محمّد وأهل بيته رسومًا ماديّة، علمًا أن هناك مدارس "آخر الأسبوع" مشابهة وبالمجّان يتعلّم فيها أبناء كلّ طائفة اللغة وتعاليم الإسلام حسب مذاهبهم.

إنّها مسألة تستعصي على الفهم والإدراك، وأرجو ممّن يفهمها أن يتعطّف عليّ بشرحها! وهي أنّ هناك مركزًا إسلاميًا يتبع لمذهب آل البيت يأخذ المال ممّن يريد أن يتعلم مبادئ الدين ويتعرّف على مذهب أهل البيت، بينما تستعمل أموال التبرّعات لتغطية الخسائر في مشاريع دنيوية تؤمّن للبعض المواقع والمظاهر المخادعة ليظهروا وكأنّ بيدهم الحلّ والربط، وإذا ما سألتهم يقولون إنّهم يعملون لوجه الله تعالى!

ومن خلال هذا "الجبر الطائفيّ، يتكبّد الشيعيّ المغترب، الذي يتمثّل الحسين عليه السلام في سلوكه وحبّه لطائفته، خسارةً ماديّةً لا ذنب له فيها، من أجل أن يؤمّن للمشرفين على المركز وعائلاتهم ومعارفهم في اكثر الاحيان وظائف "تعليميّة" يتقاضون فيها مرتّبات شهريّة لا يمكنهم تأمين نظيرها أو أقلّ منها بكثير لولا وجود "المركز".

ومعاذ الله أن أقول ذلك مفاخرًا، أو مانًّا . وإنّما لتصحيح أمور لا تليق باسم آل البيت الكرام الذين ما نزال نتمثّلهم في قول وعمل، ولا تتناسب مع تضحيات أبنائنا الشيعة المغتربين الذين تركوا الوطن بعد إرهاقهم بالعناء، وها هم في المغترب ما تزال معاناتهم مقيمة.

إزاء هذا الواقع المؤلم، والخارج على الأصول والمبادئ، كان لا بدّ للغيورين على مصلحة الطائفة، والحريصين على التمسّك بتعاليم مذهبنا الإسلاميّ النقيّ، أن يجاهروا بالصوت مطالبين زعماء الطائفة الروحيّين والسياسيّين في الوطن أن يتواصلوا مع سفارات الدول التي لدينا جاليات فيها ، وأن يقلعوا عن اعتماد الغوغائيّة وأسلوب إثارة الغرائز ضدّ سياسات تلك الدول، لأنّه بالحوار يمكن أن نجعل من العدوّ صديقًا. فالزعيم الحقيقيّ هو الزعيم الذي لا يقنط من

رحمة الله، شأنه في ذلك شأن الرئيس المناضل نيلسون مانديلاً الذي حرّر شعبه وأرضه، والذي كان يحاور سجّانيه من داخل سجنه التاريخيّ، ويرفد حركة مقاومة شعبه، حتّى تمكّن من انتزاع حقوقه، ومن قبله الزعيم القائد الكبير عبد القادر الجزائريّ الذي ما أن حاوره السجّان نابليون الثالث حتّى أعجب بذكائه وحكمته، وكان إطلاقه رحمة لابعاد الفتنة الإسلاميّة المسيحيّة في دمشق.

من أجل هذا، نطالب باسم أبناء الطائفة الذين يؤثرون الصمت على ألاّ يثيروا أمرًا لا قِبَل لهم بمتابعته وتحمّل أعباء تبعاته، أن يعي المسؤولون، الذين هم مرجعيّة المشرفين على "هذه المراكز والمؤسسات الإسلامية " واجبهم في تصحيح المسار .وليتق الله في آل البيت الأطهار مَن يتّخذهم شعارًا وتجارة رابحة في دنياهم، وهم في الآخرة لمن الخاسرين.

فصل الخطاب

{وَأنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَوَّلِيْنَ} (صدق الله العليُّ العظيم)

فَالدُّرُّ يَزْدَادُ حُسنًا وَهوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ

ما أن تصل قارئي العزيز إلى هذا المقام، حتّى تكون قد آنست في ما قرأت لي نارًا فلعلّك تأتي منها بقبس أو بخبر ورأيت فيه رشدًا، فنكون كلانا بإذن الله قد بلغ ما يريد . أنا أن أوصل الرسالة، وأنت أن تقول **"اللهُمَّ أرِنَا الحَقَّ حقًّا، وارزقنا اتّباعه، والباطلَ باطلاً وارزقنا اجتنابَه."**

بقدر ما ينفتح الشيعيّ، والمغترب تخصيصًا، على الآخر المختلف عنه مذهبيًّا ودينيًّا وثقافيًّا وإرثًا وتراثًا، بقدر ما يكون وفيًّا لمعتقده، أمينًا على تراثه، ومتمسّكًا بعقيدته التي تتلخّص فيها أسمى معاني الإنسانيّة، وتترجم سلوكًا ومعايشة يوميّة ننال بها رضا الخالق ومحبّة المخلوق. ويجدر بنا، نحن الشيعة المغتربين، وهذا دأبنا أن نؤكّد ذلك لأنفسنا قبل غيرنا، ولآلنا وأقربائنا قبل الآخرين. فالأقربون أولى بالمعروف ومَن أقرب منّا إلى أخوتنا في الوطن والمهجر !؟

لا إخالك وأنت تقرأ ما كتبت من ألم، تلتبس عليك الأمور وتغيب عنك الحقيقة في شأن طوائفنا في لبنان . أنت مثلي لم تغادر الوطن راغبًا عنه وطنًا آخر، وهاربًا من واجب ضننت به عليه . ولكن عندما يضيق الوطن بأهله، لا يترك

لهم خيارًا سوى الرحيل . واللبناني الذي ارتحل و تنفّس الحرّيّة، مع كلّ معاناته وعنائه، لن يقنع بعيش مهما كان بدونها. ولكم يؤلم النفس ويحزّ في القلب ظلم ذوي القربى! وما علينا إلاّ أن نواجه الحقيقة المؤلمة التي قد يتنكّر لها أولئك الذين ما كنّا في شؤونهم سوى أصفار تتحوّل إلى أرقام، كلّما استدعى العراك الطائفيّ ذلك . فحريّ بي وأنا أتصدّى لتحرير الحقيقة وعتقها، أن أتمثّل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الشعراء : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ﴾. فهل من مصيخ السمع رواعِ القول؟

فشتّان بين مغترب يحمل عبء الماضي ومعاناته، وبينه الآن وهو يحقّق ذاته، ويبني مستقبلاً تتأكّد فيه إنسانيّته، ويمارس فيه طقوس عقيدته بلا رقيب ولا حسيب. إنّه يقدّم المال عن قناعة وإيمان، لكن ليس من كنز جمعه من تعب الآخرين وشقائهم، بل من جهده وكدّه، وهو يقدّمه راضيًا لمن هم في حاجة إليه كما أمر ربّ العالمين: ﴿وَيُطْعِمُوْنَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيْنًا وَيَتِيْمًا وَأَسِيْرًا﴾. ففيروس الطائفيّة والمحسوبيّات التي تهوي لتقطع أعناق العباد أصبحنا في حرز مكين منها، ولن تقوى بعد الآن على النيل منّا، أو جعل المغترب رهينة أصنام اللات والعزّى، ولسان حاله يقول مع الشاعر اليمنيّ "عبد الله البردوني":

"وَرُحْتُ مِنْ سَفَرٍ مُضْنٍ إِلَى سَفَرٍ   أَضْنَى لأَنَّ طَرِيْقَ الرَّاحَـةِ التَّعَبُ

لَكِنْ أَنَا رَاحِلٌ فِي غَيْرِ مَا سَفَرٍ   رَحلِي دَمِي وَطَرِيْقِي الجَمْرُ وَالْحَطَبُ

إِذَا امْتَطَيْتُ رِكَابًا لِلنَّـوَى فَأَنَـا   فِي دَاخِلِي، أَمْتَطِي نَـارِي وَأَغْتَرِبُ

قَبْرِي وَمَأْسَاةُ مِيْلادِي عَلَى كَتِفِي   وَحَوْلِيَ العَدَمُ المَنْفُوخُ وَالصَّخَبُ."

إنَّ المغترب الذي اتّخذ وطنًا ثانيًا، وأخلص لهذا الوطن، لا يعني بالضرورة تنكّره لموطن الآباء والأجداد، كما يحلو لفئة أن تعيّره به. فليس أبعد عن الصواب من إفك زمرة جعلت المذهب أو الدين او الحزب شعارًا في المضاربات السياسيّة وقناعًا يخفي مطامعها الأنانيّة. هؤلاء الذين أصبح ماءهم غورًا، فلن يأتيهم المُغترب بماء معين. إنّه بعد أن أزال الغشاوة عن عينيه، ورأى حقيقة الأمور كما يجب أن تُرى، وتمكّن بفضل إيمانه بكتاب الله وعقيدته الراسخة أن يتمثّل قول الله في سورة آل عمران في كتابه الكريم: {مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيْزَ الْخَبِيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ}.

إنّ اغترابنا عن الوطن ملحمة إنسانيّة يتجلّى فيها الحبّ والإخلاص في أسمى معانيهما. فمع كلّ ما نكابد من ألم الفراق وحرقة البعد عن أهل وأحبّة، ترانا نتوق إلى مسقط الرأس وتراب الوطن، وتظلّ أمنية الشيعيّ المغترب أن يوسدَ ذاك التراب المقدّس جثمانه بعد أن تفيض الروح إلى بارئها. وليس والدي الحاج قاسم حمقة، تغمّدته شآبيب الرحمة ورضوان الله بمختلف عن والدك أيّها الشيعيّ المغترب، فما أن يشعر بدنوّ الأجل حتّى يضرع إلى الله عزّ وجلّ أن يكون مثواه في تراب بلدته. وحمدًا للخالق أن تحقّقت أمنية الوالد وحطّ الرحال في هذه الدنيا الفانية في تربة الآباء والأجداد في بنت جبيل.

ولا أغالي إذ أقول إنّ المغترب الذي عرك الحياة وعجم عودها هو كالدرّ المنتظم في سلك تتحلّى به الأجياد، لكنّه ليس بأفضل من أخيه الذي مكث في الوطن ولا أجلّ قدرًا منه. فالدرّ در إنتظم أو لم ينتظم.

حريّ بزعمائنا، سياسيّين ورجال دين، أن يدركوا حقيقة، إمّا أنّها غابت عنهم أو أنّهم تجاهلوها، وعليهم أن يلقّنوها أزلامهم وخاصّتهم، وهي أنّ المغترب

اللبنانيّ عامة الذي أثبت وجوده في مجتمعات غريبة عنه ثقافة ولغة وسلوكًا ودينًا، مجتمعات راقية متقدّمة فرض فيها احترامه وبلغ فيها شأوًا ما كان ليبلغه في وطنه لأنّ مفاتيح أبواب المستقبل فيه تقبض عليها أصابع الزعيم ودونها حراب الزبانية الأفاكين، هذا المغترب الذي فرد جناحيه ليحلّق فوق حماة الجهل والتعصّب والاسترلام لن يرضى بإرجاع عجلة تقدّمه وازدهاره وحرّيته إلى مجاهل الماضي ومستنقعات الواقع.

كيف ترضى أخي المُغترب، ومنك يقبس المقيم هدًى علّ الله يمنّ عليه بالفرج القريب، أن تقبل بدعوات الإنكماش والانعزال، وتنقاد خلف دعوات تسربلت بأردية الجهل والتقوقع ينادي بها أناس طائفيون عشيت أبصارهم وقصر نظرهم وتحجّرت عقولهم؟! بشر ضحكت من جهلهم خليقة الله!

أراني بك أيّها المغترب الذي جُبلت عقيدته بدمائه وامتزجت بروحه، فمحال أن ينفصل عنها أو أن يستبدلها بسواها، تقول لمن يتبعك حيث أنت في بلد الاغتراب، ويتستّرون خلف اسماء تتّخذ من الصفات الوطنية يافطات لتنفيذ مآربهم الخاصّة، متّبعين في ذلك أوامر أساطين السياسة والدين في الوطن، وكأنّ وجودهم بيننا امتداد لوجودهم هناك، وتعاملهم بالخداع كي تلين قنواتنا لهم، ونساوم على حرّياتنا ونقايض على وجودنا لننال حظوة عند مَن كانوا سببًا رئيسًا في تشريدنا.

قل لهؤلاء الرهط الذين لا يفقهون حديثًا، إنّ الزمن الذي خاطب فيه خليل مطران، شاعر القطرين "يَا قَوْمُ لا تَتَكَلَّمُوا إنَّ الكَلامَ مُحَرَّمُ" ناصحًا فيه ذويه وحاضّهم على اتبّاع مشورته كي لا يكونوا عَرَض سهام الحاكم ورجل الدين

الذي ابتاع عمّته منه وليس من الله، قد ولّى واندثر. ففي بلاد النور والحرّيّة، أردِّد مع صديق شاعرٍ أبياتٍ من قصيدة له في "حنظلة":

"وَيَقُولُ حَنْظَلُه حكمنا إنَّ القَضَـاءَ مُحَتَّم

لا تَمنكُتُوا عَنْ حقكم فَالصَّمْتُ طَعْمُـهُ عَلْقَمُ

لا تَقْفِلُـوا أَفْواهَكم إيَّاكُمُـو إيَّاكُمُـو

مَنْ لَم يَمُتْ بالسيف ماتَ بِغَيْرِهِ هَلْ تَفْهَمُوا!

مَا عَاشَ طَـاغٍ خَالِد فَتَكَلَّمُـوا فَتَكَلَّمُوا."

تكلّم أيّها المغترب، فالمجتمع الذي أتاح لك بملء اختياره وقناعته أن تعبّر عن ذاتك، وتأخذ حقوقك كما تؤدّي واجباتك يجب أن يكون دافعك لتأكيد ذلك في موطن الأهل ومسقط رأسك. ولأنّك تتكلّم بمسؤوليّة، أسمِع صوتك لأولي الشأن هناك، من رؤساء وزعماء طوائف يرفضون إلغاء الطائفيّة من دستورنا لأن فيها حياتهم وبها هلاكنا وتشرّدنا، أنّك عندما تطالب بإحقاق حقّ حيث أنت، وعندما تجهد لتقويم خلل اجتماعيّ أو سياسيّ فيه لا تكون حرّيتك الثمن، ولا قطع رزقك. الآن أنت أبعد من رشق سهامهم، وأعصى على رمي نبالهم. فكن مع الله ولا تبالِ.

عندما تتكلّم أيّها المغترب، لست تبتعد عن طائفتك في ما تقول، ولا تتخلّى عن معتقدك، إنّه صوت الحقّ الذي تعلّمته في بلاد يُحترم فيها الفرد، وتُحفظ

حقوقه وفي ذلك حقوق من يتكلّم باسمهم أو من ينوب عنهم. فالقانون وُضع لسويّةَ المجتمع وأفراده، ولا لأحد، كبيرًا كان أو صغيرًا، أن يتجاوزه أو ينجو من عقابه. ولنا في سيرة الرسول الأعظم وأحاديثه الشريفة خير مثل: "إِنَّمَا هَلَكَ الذينَ مِنْ قَبْلِكُم أَنَّهُم كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشرِيفُ (القَوِي) تَرَكُوه، وإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَأَيْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَها." ونرى الآن الأيدي التي تسرق هي التي تقيم الحدّ على الضعفاء والمحرومين.

لا شكّ أنك قد تبدو غريباً في عُرف هؤلاء، وقد تُعتبر هجينًا في مجتمعهم بعد أن نعمت بنور الحياة ونسائم الحرّيّة وقبول الآخرين الذين جعلهم الله قبائل وشعوبًا للتعارف وتنتظم بتعارفهم وتآلفهم الحياة الإنسانيّة.

لخّص ذلك شاعر العرب بعد أن خرج من دائرة البدو وانفتح على العالم، ليدرك بعد أن اكتشف بعض حقائق الوجود وكنه الحياة بأنّها لا تنحصر قطعًا في مجتمع مغلق، ولا تكون حكرًا عليه. فلمّا أراد أن يبيّن لقومه الأمور، عاتبوه بأنّه خرج منهم وتخلّى عنهم، فقال لهم:

"مَنْ مُبْلِغُ الأَعْرَابِ أَنِّيَ بَعْدَهَا شَاهَدْتُ رَسطَالِيسَ وَالإِسكَنْدَرَا

وَمَلِلْتُ نَحْرَ عِشَارِهَا فَأَضَافَنِي مَنْ يَنْحَرُ البِدَرَ النُّضَارَ لِمَنْ قَرَى

وَسَمِعْتُ بَطْلِيمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ مُتَمَلِّكًا مُتَبَدِّيًا مُتَحَضِّرَا

وَلَقِيتُ كُلَّ الفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا رَدَّ الإِلَـهُ نُفُوسَهُمْ وَالأَعْصُرَا."

وهكذا أنت أيّها المغترب، هاجرت قسرًا أو طوعًا إلى مجتمعات غريبة عنك، لكنّها قبلت لتصبح بعد حين واحدًا منها، وأدركت آنذاك أنّ الحياة خضمّ واسع، وليست مستنقعًا آسنًا.

أمّا لمن تحكّم في رقاب أهلنا في الوطن، وإلى الذين يريدون أن يرسلوا طائفيّتهم وانقساماتهم إلى بلاد الاغتراب، معلّبة بصناديق اقتراع لا تقدّم ولا تؤخّر في بلد الديموقراطيّة التوافقيّة، فنقول إنّ المثل العربيّ الشائع "فداوني بالتي كانت هي الداء" كان يتحدث عن الحبّ وليس عن الكراهيّة والتباعد، وإنّ الطائفيّة والانقسام اللذين كانا السبب في تشريدنا لم ولن يكونا الدواء، وإنّ اهتمامكم المفاجئ بنا وبحقوقنا لن يكفّر لكم ذنوبكم. لقد طفح الكيل وشبّ الطفل عن الطوق، وبلغ من الله رشدًا. فلا بدّ من وقت تقفون فيه وأزلامكم أمام المحاسبة، إن لم تكن في الأرض فهناك في السماء التي نسيتموها، وساعتئذ لات ساعة مندم.

-34-

الصفحة المؤلمة

إذا أتَتِ الإسَاءة مِنْ لَئيمٍ   وَلَمْ أَلُمِ المُسِيءَ فَمَنْ أَلُومُ!

لَكَم كنت أتمنّى أن أقدّم كتابي هذا بيدي إلى الزعماء السياسيّين والروحيّين القائمين بدون منازع على شؤون الطائفة الشيعيّة في لبنان! لكم كنت أوثر أن يكون كتابي هذا سجلاً لإنجازاتهم واعترافًا بصنائعهم في سبيل إنهاء معاناة الشيعيّ ليس في الجنوب فحسب، بل في كلّ أماكن تواجده في لبنان والعالم!

لا شكّ أنّ مسيرة الشيعيّ وما حقّقه من تقدّم وإنجازات، وما بلغه من تمكين الذات في مجالات شتّى، مدعاة فخر واعتزاز له ولأسرته وللبنان قاطبة. هذا الشيعيّ الذي خلق من ظروف العدم والقهر والإهمال ما يشبه المعجزة، ومن المُحال ما يرقى إلى الأعجوبة، لا يعود الفضل فيه إلى أحد غيره. فعل ذلك وأيدي أولي الأمر في أحيان كثيرة تشدّ به إلى الأسفل أو تحول دون تقدّمه وسيره إلى الأمام، أسوة بغيره من اللبنانيّين الذين إن لم يأخذ قادتهم بأيديهم فلم يكونوا عصا الرحى في تقدّمهم. لقد ترك الشيعيّ يواجه قدره، وذُري به في مجاهل واقعه وحاضره بلا دليل، ووجهه في الهجير بلا لثام، علّه يرضى ب "الإناخة والمُقام"، فيرتع أولو أمره بنعيمهم بينما هو رازح في بؤسه وشقائه. لا هم راغبون في الهبوط إلى حيث هو، ولا هو قادر إلى الصعود إلى حيث هم. ورحم الله "أبا العلاء المعرّيّ" إذ قال:

"مُلَّ المَقَامُ فَكَمْ أُعَاشِرُ أُمَّةً   أَمَرَتْ بِغَيْرِ صَلاحِهَا أُمَرَاؤُهَا

ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا   وَعَدَوْا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أُجَرَاؤُهَا."

يجدر بي وأنا أصل إلى هذه الصفحة المؤلمة من نهاية الكتاب الذي ضمّنته معاناة وصراعات ومشاعر المغترب الشيعيّ، من خلال تجارب ذاتيّة قد يكون مرّ بها غيري وآثر السكوت عنها، أن أكشف عن حقائق يعلوها غبار الزمن ويحول دون إزاحته من يتولّى شؤون المجتمع الدينيّة والسياسيّة، لأنّ الذين يقاسون مرارة الواقع غير الذين يراقبونه. فقد هيّأ لي الخالق من أمور دنياي ما يمكّنني من تأدية الواجب إرضاء له ولضميري بعده.

لقد قيّض الله لي ولعائلة الحاج قاسم حمقة تغمّده المولى بواسع رحمته، والدين أتاحا لنا من فرص التعليم والدراسة ما لم يُتح للكثيرين من أهلنا وأبناء بلدتنا بنت جبيل وجنوبنا العزيز الغالي. فبفضل الله وبفضل الوالدين اللذين ارتحلا إلى دار البقاء، تمكّن ابنهما الدكتور وجيه حمقة، كاتب هذا الكتاب، من بلوغ أرفع الدرجات في العلم، وأفاء الله عليه من خيره ونعمه بفضل جدّه واجتهاده وعرقه وعمله وسهره.

من خلال السرد، لا شكّ يتبيّن للقارئ أنّ الباعث على الخوض في تناول معاناة أبناء طائفتي في لبنان، كان تجربة ذاتيّة مرّة وقاسية. إنّها حقًّا مرارة الاغتراب وقساوة المعاناة.

من المعروف، أنّ آلاف اللبنانيّين الذين هاجروا على مرور الزمن منذ مائتي عام أو يزيد، أصبحوا الآن بالملايين، حتّى أنّ عدد اللبنانيّين أو المتحدّرين من أصول لبنانيّة في المغتربات يفوق عدد اللبنانيّين في الوطن أضعافًا مضاعفة، ولم يفكّر معظمهم، مع حنينهم للبنان وحبّهم له، بالرجوع للإقامة الدائمة فيه.

لا غاية لنا من لبنان إلاّ إعلاء اسمه ورفعة شأنه، فلماذا يصرّ الزعيم على زرع مخبريه لملاحقة المغترب ورصد تحرّكاته ليصدر الحكم عليه حسبما ينقل عنه هذا المخبر أو ذاك! علمًا بأنهم جميعًا على يقين تام، بأنّ مثل هذه الصغائر لا يمكنها أن تسرق نجاحات أصحاب الفضائل ومكرماتهم، أو أن تغيّر في قناعاتهم المؤسّسة على مبادئ الحرّيات والحقوق. وما أصدق قول الشاعر حينما عرّض بأمثال هؤلاء الوشاة ونكّر المُوشى به بفضله من حيث لا يريدون أو يدرون:

"وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ، أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ."

أضف إلى ذلك أنّ أمثال هؤلاء السعاة بالسموم والأباطيل لبثّها في أذن الزعيم الذي جعل بطانته من النمّامين، والذي ظنّ أنه مَلَكَ الطائفة في مقيميها ومُغتربيها، يسيئون إلى الطائفة نفسها وإلى الزعماء أنفسهم ويُظهرون أمام الآخرين مدى الدرك الذي انحدروا إليه، وكم نعاني من محتكري شؤونها والقائمين عليها. وعندما يطفح الكيل ويرشح الإناء بما فيه، يصبح الساكت عن الحقّ شيطانًا أخرس. وهنا يجدر بكلّ مغترب شيعيّ أن يرفع الصوت ويجاهر به، ويعلن للزعيم الدينيّ والسياسيّ قبل غيرهما، بعدم استخدام أفاضل الشيعة أغراضًا وأهدافًا لإزلام مخبرين مسترزلمين يعيشون على ما يبتذّونه من المغتربين من أبناء طائفتنا الشيعيّة، وألاّ يحسنوا "الظنّ برجل من الناس ليس أهلاً للثقة، ثم يكونون أسرى لأخباره، وآذانًا لأقواله، ويصغون إليه ويصدّقونه."

في تاريخنا، نحن الشيعة أبناء الجنوب، كان الزعيم الإقطاعيّ والسياسيّ يوظّف رجال الدين لخدمته ورعاية مصالحه والإبقاء على مكانته وزعامته في الطائفة وفي الوطن ويُبقي جلّ أبنائنا في جهل وأميّة، ويدّعي ألاّ حاجة

للمدارس أو المتعلّمين طالما أنّ أبناءه يفعلون ذلك نيابة عن الطائفة ا تغيّر الأمر بالنسبة إلينا، وتجاوزنا هذا التفكير العفن منذ عقود، لكنّه لم يتغيّر بالنسبة إلى عقليّة الزعيم الجديد.

كم كان جميلاً وحريًا بهذا الزعيم أو ذاك أن يقابل الدكتور وجيه حمقة، وأمثاله من أبناء الشيعة المغتربين، الذين بلغوا مناصب عليا مرموقة في
المغتربات معزّزين مكرّمين، ويفاخر بهم أنداده من زعماء الطوائف الأخرى، بدلاً من إذلالهم وإجبارهم على تقديم الولاء والطاعة بأساليب رخيصة مبتذلة!

لا ريب أنّ قول الحقيقة جارح أحيانًا، وممارسة حرّيه التعبير في وقت تُكَمُّ فيها الأفواه من الكبائر، وله ثمن يجب أن يُدفع ! لكنّني أرفض أن أهادن مَن يستهتر بمشاريعنا وإنجازاتنا في الخارج. وبعد أن خرجت من أسر القوقعة إلى رحاب العالميّة، أصبحت نسرًا لا يأبه بالزرازير ! وها أنا أمسك بسلاحي (العلم والثقافة والأخلاق واحترام الآخر) الذي أخرجني وعائلتي من الظلمات إلى النور، وهو قلمي يُملي عليه الضمير فيخطّ شيئًا ممّا في كينونتي لأتكلّم وأكسر حاجز الرعب لأطلق الصرخة الحقّ التي تكوّن القطرة لبداية الغيث وبداية نهاية حلقة الاستبداد والاستهتار بخلق الله. وأتمنّى أن يتنازل أحد زعماء الطائفة ويجيب في خطاباته المراثونيّة عمّا ورد في هذا الكتاب.

إنّ المغتربين من أبناء طائفتنا الكريمة، بفضل جدّهم وكدّهم، أفاء الله عليهم من فضله ونعمته ما مكّنهم من بلوغ أعلى الدرجات وملّكهم زمام أمورهم ماديًا ومعنويًا، فكانوا مصابيح دجى الطائفة حيث تواجدوا . وكانوا سعاة حقّ لأبنائها يهدونهم سواء السبيل، ويضعونهم في سويّة مع غيرهم من الأعراق والأجناس في حبّ وتفانٍ وإخلاص للبلد الذي استقبلهم وهم عنه أغراب.

نحن الذين يُشار إلينا بالبنان في أوطاننا الثانية، كنّا أوسمة لبنان ووجهه المشرق الناصع، تلسعنا سياط الجهل والريبة والظنون في لبنان أحياناً . سياط مَن يفرض الواجب والحقّ أن يولونا صدر لبنان، ويبادلونا الحبّ حبّا، والإخلاص تقديرًا، لأنّ مآقينا تكحّلت بنور الحياة، وشرّعنا الأبواب والنوافذ على رحابة العالم، وهذا ما لا يحبّون ولا يحبّذون، ولأنّنا أدركنا أنّ الإخلاص للطائفة والتفاني في خدمتها لا يكون في التقوقع والإنكفاء على الذات والنكوص على العقبين. فعلامَ نلام؟ وعلى أيّ شيئ نؤاخذ؟ فلله درّه مِن قائلٍ:

"وَأصْبَحَ قَلْبِي قَابِلاً كُلَّ صُوْرَةٍ   فَمَرْعَى لِغُزْلانٍ وَدَيْرٌ لِرهبانِ

وَبَيْتٌ لأَوْثانٍ وَكَعْبةُ طَائِفٍ   وَأَلْوَاحُ تَوْراةٍ وَمِصْحَفُ قُرْآنِ

أدِيْنَ بِدِيْنِ الحُبِّ أنَّى تَوَجَّهَتْ   رَكَائِبُهُ فَالْحُبُّ دِيْنِي وَإِيْمَانِي."

لكم كنت أتمنّى أن يكون هذا الكتاب بعنوانه ومضمونه غير ما يتصفّح القارئ العزيز، ولكن كيف لي أن أماري في الحقّ!

ما أجمل ما كان المفكّرون المسلمون الأتقياء يقولون عندما يصل مستوى تفكيرهم إلى ما قد يربكهم: "أغمضت عيني فرأيت الله، فارتاح قلبي." وها أنا في ما أكتب أردّد هذه المقولة عندما أصل لما يمكن للعقل أن يسدر فيه أو يضلّ عنه. لأنّني عندما أتحدّث عن الوطن الأم ورجاله القائمين عليه، تبدو أمامي هذه الأم تفرّق فلا تجمع، تصمّ الأذن فلا تسمع، وتغشي البصر فلا تخشع، ومع ذلك نُطالب بألاّ نعقّ هذه الأم. وهذا فعلاً ما نفعل. ولكن ألا يحقّ لي وللمغترب الذي وجد كفًّا طريّة حانية، وحضنًا دافئًا آمنًا ألاّ يغمط هذه الأم

حقّها! فهل أكون أنا وسواي مُلامين في حبّنا وإخلاصنا لهذه الأم أو تلك التي عوّضتنا عن أمّ ألقت ببنيها لليمّ والمجهول غير عابئة بما سيلاقون، وبعد أن وصلوا برّ الأمان وملكوا زمام أمورهم بأيديهم، عادت لتتنكّرهم بواجبهم الأموميّ وبحقّها عليهم!

من ألوم في كلّ ما يجرى؟!

لا ريب أنّ الوشاة والهوام الذين يحومون حول الرئيس أو الزعيم، ولا سيّما إذا كان يفتقر إلى الحكمة والإدراك يجعلونه طوع أمرهم. هم يشيرون وهو يستجيب. وهذا شأني إن لم أقل شأن الكثيرين أمثالي، الذين غدوا بفضل ما وصلوا إليه من علو شأنٍ ورفعة منزلة هدف هؤلاء المبتزّين والمستزلمين المنتشرين بين أبناء طائفتنا الكريمة في المهاجر. يطالبوننا بالخضوع للجهل والتقوقع، وإن مانعنا نتحوّل إلى إعداء. وهم قبل غيرهم يعرفون أنّنا أعيان الطائفة ونمثّل كرامتها ونبلها وتسامحها في المجتمعات التي نقيم فيها. وبفضل أعمالنا الخيريّة الكثيرة، واتّصالاتنا الرسميّة وغير الرسميّة أصبحنا هدفًا للحسد والكيد، كفانا الله شرّهما. فهل يُلام الدكتور وجيه حمقة في لومه لئيمًا يصوّب سهام حقده إلى رأس وجهاء الطائفة والمدافعين عن اسمها وسموّ أخلاقها وعقيدتها في بلاد الاغتراب؟!"

أطالب بأن أجد للجاني عذرًا في ما اقترف، وأطالب الضحيّة أن تقبل الجرم فيها؟!

عندما يعجز القلم عن الوصف، ويصمت اللسان عن البوح، "أغمض عينيّ فأرى الله، فيرتاح قلبي." وعندما يحتاج الصباح إلى دليل، لا يصحّ في الأفهام شيء، حقًّا لا يصحّ!

قد لا يجدي قولي مع المسؤولين نفعًا، وقد لا يجد في نفوسهم هوًى، ولكن ربّما، ولذا أقول لهم رأفة بأبناء طائفتهم المخلصين الذي يؤثرون الصمت على القول:

"فَلا تَغْرُرْكَ أَلسِنَةٌ مَوَالٍ تُقَلِّبُهُنَّ أَفْئِدَةٌ أَعَادِي

فَإِنَّ الجُرْحَ يَنْفِرُ بَعْدَ حِيْنٍ إِذَا كَانَ الْبِنَاءُ عَلَى فَسَادِ."

لأنني لا أمسح الغبار عن أحذية القياصرة، يلومني الأقزامُ والسماسرة.

"وَمَنْ يَكُنِ الْغُرَابُ لَهُ دَلِيلاً يَمُرُّ بِهِ عَلَى جِيَفِ الكِلابِ."

"إِذَا كَانَ الغُرَابُ دَلِيْلَ قَوْمٍ فَلا وَصَلُوا وَلا وَصَلَ الغُرَابُ."

وأضيف مردّدًا المزمور الخامس والستّين، للنبي داوود الذي قال فيه الله سبحانه وتعالى في سورة النساء: {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}:

"انتظرتْ نفسي اللهَ وحدَه. من لدنه يأتي خلاصي. هو وحدُه صخرتي وخلاصي وحصني المنيع، لذلك لا أتزعزعُ أبدًا.

إلى متى توالون الهجوم على الإنسان، وتسعون جميعكم إلى هدمه، كأنّه حائط متداعٍ أو سياج مخلخل؟ إنّما يتآمرون كي يطيحوا به عن مكانته الرفيعة، مبتهجين بالكذب، يباركون بأفواههم ويلعنون بقلوبهم.

في الله خلاصي ومجدي. والله هو صخرة قوّتي وملجأي. ثقوا به في كلّ حين أيّها الشعب. اسكبوا أمامه قلوبكم، الله ملجأنا. ليس البشر جميعًا، عظماء وأدنياء، سوى باطل ووهم. إن وضعتهم في كفّة ميزان لا يزنون شيئًا. إنّهم أخفّ من نسمة. لا تتكلوا على الظلم ولا تتفاخروا بالسرقة. إن كَثُرَ الغنى فلا تعتمدوا عليه، مرّةً تكلّم الربّ ومرّتين سمعت هذا: إنّ العزّة لله، لك الرحمة يا ربّ فأنت تُجازي كلّ إنسانٍ بمقتضى عمله."

وأستودعك الله قارئي العزيز شيعيًا كنت أو لبنانيًا أو سواه. لا فرق، فنحن أبناء الإنسانيّة بقول مأثور للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

"وَقِيْمَةُ المَرْءِ مَا قَدْ يُحْسِنُهُ وَالجَاهِلُونَ لأَهْلِ العِلْمِ أَعْدَاءُ."

اللهمّ أهْدِ قَومِي إنّهم لا يعلمون.

فهرس الكتاب

الفصل الصفحة

عندما يعجز القلم عن الوصف، ويصمت اللسان عن البوح، «أغمض عينيّ فأرى الله، فيرتاح قلبي.» وعندما يحتاج الصباح إلى دليل، لا يصحّ في الأفهام شئ. حقًا لا يصحّ!

لماذا أكتب؟

لأنني مؤمن:

بشيعيتي التي تعلّمت من الظلم الذي أحاق بها، ألاّ تمارس الظلم على أحد وهي تسعى لاستعادة العدالة.

وبطائفتي التي أثبتت، على مرّ التاريخ حيويّتها وقدرتها على صُنع مستقبلها، ضمن ظروف البيئة العربيّة التي تحتضن جذورها.

وبلبنانيّتي التي، بعد كلّ الأثمان الباهظة التي دفعناها من أجل تفسيرها، ما نزال مستعدّين لدفع المزيد من أجل تأكيد بقائها بتنوّعها الفريد الذي يضمّ جميع أبنائها.

وبالدور الكبير للمغترب في بناء الإنسان المواطن لقيام وطن يستحقه.

وبإنسانيّتي التي أدركت معها قيمة الإنسان في مجتمعات يزيدها تقديرها للفرد وقبوله إيمانًا بالله وتأكيدًا على أنّ الاختلاف في شؤون الحياة لا يعني خلافًا فيما بينهم.

وقد كتبت:

لأنّ الكلمة المكتوبة لا تمحي، ولأنّها أبقى على الورق منها في الصدور.

تقديرا ووفاء للدماء الطاهرة التي روّت تراب الوطن، وللتضحيات الجسيمة التي صنعت المعجزات.

لكي أهيب بالزعماء الدينيّين والسياسيّين أن يستمعوا إلى النداءات التي منحتهم أصوات ضمائرها وليس أصوات طبولها.

ولأنني لا أملك الا صوتي وقلمي، لذا كتبت حتى لا نبقى، أسرى الماضي ورهينة الواقع، عاجزين عن صنع المستقبل لأبنائنا وأحفادنا

د. وجيه قاسم حمقة

